مكتبة الدراسات التاريخية

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول

فى الدولة المملوكية الأولى

تأليف

الدكتور فايد حماد عاشور

قدم له وراجعه

الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم
أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول

في الدولة المملوكية الأولى

مكتبة الدراسات التاريخية

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول

في الدولة المملوكية الأولى

تأليف

الدكتور فايد حماد عاشور

قدم له وراجعه

الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم

أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب — جامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ – كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

تقـــديم

عندما طلب مني الدكتور فايد حماد عاشور أن أقدم لكتابه « العلاقات السياسية المغولية فى الدولة المملوكية الأولى » سعدت لأكثر من سبب . أولاً لأنه تتلمذ علىّ فى أثناء دراسته فى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، وكان طوال سنى دراسته مثالا للطالب الممتاز علماً وخلقاً . وثانياً لأنى اشتركت فى مناقشة رسالته التى تقدم بها فى سبتمبر ١٩٦٩ لنيل درجة الماجستير فى الآداب من جامعة عين شمس . كما اشتركت فى مناقشة رسالته التى تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس فى أغسطس ١٩٧٢ . وقد تناول فى رسالتيه موضوعين من الموضوعات الصعبة مبدياً مهارة واضحة فى معالجتهما .

وأول ما يستلفت النظر فى الكتاب الذى بين يدى القارئ أنه يمتاز بجدته وأصالته . إذ لم يظهر فيه للآن بحث مستقل قائم بذاته يلم بكل أطرافه وجوانبه فى دراسة موضوعية جامعة . وكل ما هنالك نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك لا تشفى من غلّ ، ولا تعطى القارئ فكرة واضحة متكاملة عن العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك البحرية .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى فصول خمسة ، تحدث فى أولها عن نشأة المماليك ونسبهم وتربيتهم وثقافتهم وبداية دولتهم بمصر. كما أشار إلى الجيش المملوكى وفرقه وطوائفه وطبقاته، وأنظمته وسلاحه وتدريباته ، هذا الجيش الذى كان عليه التصدى للخطر المغولى الذى هدد منطقة الشرق الأدنى الإسلامى بشر كبير خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى وفى فترات متقطعة من الشطر الأكبر من القرن الثامن ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المغول وأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم . والجيش المغولى وفرقه وخططه وتكتيكاته الحربية . واستلزم ذلك من الباحث عقد دراسة مقارنة بين الجيشين المملوكى والمغولى كمدخل طبيعى لموضوع البحث .

وفى الفصل الثانى استعرض المؤلف علاقة المماليك البحرية بالمغول حتى نهاية

حكم المظفر قطز . ومن النقاط الهامة التى ناقشها فى هذا الفصل موقعة عين جالوت التى ألحق فيها المماليك هزيمة ساحقة با لجيش المغولى تركت النتائج المترتبة عليها آثارها على مجريات الأمور والأحداث وتداك . ويدل تحليله للموقعة على عمق فى البحث ووضوح فى الرؤية . أما الفصل الثالث فقد خصصه المؤلف لشرح طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين المغول والمماليك فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، والتى كانت تتأرجح بين الحرب والسلام وبين العداء والصفاء وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال . وحتى تكتمل صورة العلاقات بين بيبرس والمغول ، تطرق المؤلف إلى الحديث عن قوى أخرى كانت طرفاً فى هذه الصلات بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومنها على سبيل المثال دولة الروم وبلاد الأرمن وإفرنجة الشام . فتناول بطريقة سليمة العلاقات المتشابكة المعقدة المتداخلة فى بعضها بين هذه القوى وبين كل من المغول والمماليك . وفى الفصل الرابع من الكتاب عالج المؤلف موضوع الصلات التى كانت قائمة بين الطرفين فى عهد المنصور قلاوون وأولاده ، وهى لا تزيد عن كونها فى مجموعها امتداداً للعلاقات السابقة .

وفى خاتمة الكتاب أشار المؤلف إلى خلاصة الآراء والأفكار التى توصل إليها ، كما ضمنها تقييماً شاملا لموقف مماليك مصر من كل من مغول فارس ومغول القفجاق ، أو بكلمة أخرى مغول الشرق ومغول الشمال . وذيل الكتاب بعدد من الملاحق الهامة التى تخدم الموضوع .

لقد تناول المؤلف فى كتابه القيم العديد من القضايا والمسائل الهامة وتوصل فيها إلى آراء وأفكار طيبة تكشف عن حاسة تاريخية سليمة . ومنها ، على سبيل المثال ، الأسباب التى جعلت علاقات المماليك بمغول فارس تتسم فى أغلب الأحيان بطابع العداء ، فى حين كانت علاقاتهم بصفة عامة ودية مع مغول القفجاق . ومنها أيضاً مدى إفادة المماليك من الخلاف القائم بين مغول الشرق ومغول الشمال ، مع تقييم موضوعى دقيق للحروب والمعارك التى قامت بين المماليك ومغول فارس والنتائج التى ترتبت عليها . كذلك يسلط الكتاب الأضواء على الدوافع الكامنة وراء فترات العداء والبغضاء بين المماليك والمغول ، وفترات الوئام والسلام بينهما . ولم ينس الباحث كذلك تقييم العلاقات المتشابكة بين القوى الثلاث المتصارعة على

مسرح الأحداث وقتذاك ، وهى المماليك والمغول وأهل الغرب اللاتينى ، مع تحليل دقيق لموقف المماليك حيال هذه القوى . كذلك أدلى الباحث بدلوه فى العديد من القضايا الصعبة ، نذكر منها موقف أهل مصر والشام من الأحداث التى كان الشرق الأدنى الإسلامى مسرحاً لها وقتذاك ، والتكتل الصليبى المغولى ضد الإسلام وموقف المماليك البحرية منه ، والتنافس بين البوذية والمسيحية والإسلام فى سبيل اكتساب المغول إليهم ودور مماليك مصر فى هذا الشأن وأثر ذلك على العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، مع بيان أثر العامل الاقتصادى فى تكييف العلاقات السياسية بين الطرفين ، وتأثير الحروب المتتالية بينهما على الأحوال الاقتصادية فى دولة المماليك البحرية ، وما إلى ذلك من النقاط العويصة التى عالجها المؤلف فى ثنايا الكتاب وتوصل فيها إلى آراء صحيحة قيمة .

وبناء على ما تقدم يعدّ كتاب الدكتور فايد حماد عاشور كسباً للمكتبة العربية يسد فجوة فى ناحية لم تأخذ حقها الكافى من البحث والدراسة ، ويفتح آفاقاً واسعة لدراسات جديدة متجددة .

د . جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الإسكندرية فى ١٠ ديسمبر ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

لا يعرف التاريخ حرباً مدمرة . وهدماً للمدنية مثل التى قام بها المغول فى الشرق الإسلامى والدمار الذى حاق بالمنطقة على أيديهم والتى انتهت بسقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م وتقدم جحافلهم إلى الشام وبالتالى أصبحت تهدد العالم الإسلامى كله بل الغرب المسيحى ، هذا فى وقت كان الضعف والتفكك يسودان المنطقة لولا أن قيض الله لها . عنصراً جديداً ، ودماء جديدة لتحمى العالم الإسلامى وتتصدى لهذا الخطر المدمر وتهزمه فى موقعة عين جالوت الخالدة (٦٥٨هـ – ١٢٦٠ م) والتى تمثلت فى قوة المماليك، إلا أن هذا لم يكن معناه انتهاء الخطر . وإنما كان بداية لنوع جديد أو طور جديد من العلاقات . فعلاقات يسودها الطابع العدوانى بينهم وبين مغول الشرق، وعلاقات يسودها السلم والود، بل وصلت إلى حد المحالفة مع مغول الشمال (القبيلة الذهبية) .

ولقد كان يتخلل ذلك الصراع فترة من السلم فى أثناء حكم بعض الأيلخانات الذين اتخذوا الإسلام ديناً لهم مثل أحمد تكودار ، إلا أن فترة السلم كانت قصيرة .

ويعتبر هذا الكتاب أول بحث مقارن فى أطوار العلاقات بين المماليك والمغول فى القرن السابع الهجرى ،الثالث عشر الميلادى .

ولا أحب هنا أن أستعرض فصول الكتاب بل أتركه يتحدث عن نفسه . وإننى لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة دون أن أتوجه بشكرى إلى أستاذى الدكتور جوزيف نسيم الذى تفضل مشكوراً بمراجعة الكتاب والتقديم له .

وبعد فأرجو الله أن أكون وفقت فى إزالة بعض الغموض عن ملامح تلك الفترة من تاريخنا والله ولى التوفيق .

الدوحة – الخميس ١٧ / ٤ / ١٩٧٥ — د . فايد حماد عاشور



الفصل الأول

المماليك والتتار

أولاً — المماليك :

نشأة المماليك فى بلاد الإسلام :

يعتبر العباسيون أول من استعملوا العنصر المملوكى فى دولتهم ، سواء أكان ذلك فى الجيش أم القصور أم الإدارة ، لعدم اطمئنانهم إلى العرب أولا ثم فيما بعد إلى تغير الدولة على الفرس الذين كانوا عماد تكوينها فى بادئ الأمر ، ولكنهم مالبثوا أن وجدوا أنهم وإياهم كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى تدخلوا فى شئون الدولة واختيار الخلفاء وعزلهم بما يتفق وهواهم ، وظهر ذلك واضحاً زمن الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ (٨٤٦م) عندما عرض عليهم ابنه فرفضوا توليته لصغر سنه ، ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فقبلوا ذلك الاختيار فبايعه الناس . هذا فى الخلافة العباسية [١] أما الدولة الطولونية التى قامت فى مصر ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م) فقد اعتمد أحمد بن طولون على المماليك ، ويمكن القول إنه أول من استخدم المماليك بمصر فى جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك ، رجاء أن يتمكن من الاستقلال بولاية مصر عن الخلافة العباسية ، ولم يكن الأخشيديون أقل من أحمد بن طولون فى استخدام هذا العنصر ، ونستدل على أن الفاطميين حين انتقالهم إلى مصر سنة ٣٥٨—٥٦٧هـ (٩٦٩—١١٧١م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم ، فلجأوا إلى الأتراك وشراء المماليك [٢] . ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر عام ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ (١١٧١— ١٢٥٠م) جلب سلاطينها أعداداً ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم فى جيشهم وبناء قوتهم ، ويعتبر

---

(١) العبر والمبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٣٧٠ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ٢٦ — ٢٧ .

الملك الصالح أيوب مؤسس فرقة المماليك البحرية فى مصر ، والسبب فى ذلك تفرق العناصر الكردية عنه ، وتركهم لخدمته فلم يبق معه منهم إلا القليل وخاصة مماليكه ، فلما تولى الملك أكثر من شراء المماليك وجعلهم معظم عسكره (١) ورباهم تربية عسكرية ، واهتم بهم وقبض على الأمراء الذين كانوا فى خدمة أبيه وأخيه واعتقلهم واستعاض عنهم بأن أعطى مماليكه الأمريات والمناصب ، فصاروا بطانته والمحيطين به ، ولكنهم سرعان ماكثر فسادهم وعبثهم وشرهم، فضج الأهالى من ذلك وقال فى ذلك الحال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... ترك بـدولته يا شر مجلـوب
قد أخـذ الله أيوبـا بفعلته ... فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب (٢)

فلما اشتد سخط الناس عليهم فكر الملك الصالح أيوب فى نقلهم إلى جزيرة الروضة واتخذها سكناً لهم وأنفق عليها أموالا عظيمة لبناء قلعتها ، وكانت قبل ذلك متنزهاً لوالده فأتم تعميرها وأنشأ بها العمائر فى ثلاثة أعوام ، وتحول إليها وسمى المماليك الذين أسكنهم بها بالمماليك البحرية لإحاطة ماء النيل بهم واتخذ منهم الملك الصالح أمراء دولته وبطانته ومماليكه الخاصة وحرسه الخاص (٣) . وكان معظم المماليك الذين جلبهم السلاطين الأيوبيون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، بالإضافة إلى مماليك جلبوا من البلاد الأوربية ، ومن هذا الخليط تكون الجيش الأيوبى .

نسب المماليك وتربيتهم وثقافتهم :

المملوك أصلا من الامتلاك للشىء ، وكان مصدرهم الشراء والأسر فى ميدان القتال ، ثم الإهداء والهبات وفى شكل ضريبة أو جزية يدفعها حكام الولايات ، وكل المماليك كانوا عبيداً أرقاء ولكن ليس كل العبيد مماليك ، واختص ذلك اللقب بالرقيق الأبيض دون السود ، وكان أول مصدرهم بلاد الأتراك فى وسط

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ — ٣٢٠

آسيا ثم من غرب آسيا ومن أنحاء كثيرة من أوربا ومن بلاد بحر البلطيق ، وكانوا يفخرون بأنفسهم عندما ينادون باسم الأتراك إذ قام المماليك الأتراك بدور هام فى السياسة الإسلامية فى العصور الوسطى [١] . ولقد انتسب المماليك إلى تجار النخاسة أحياناً وإلى سادتهم الذين اشتروهم أحياناً أخرى ثم إلى الثمن الذى دفع عند شراء أحدهم إن كان المبلغ كبيراً . وسادت علاقة الأستاذية بين السيد ومماليكه فهو أستاذهم وسيدهم وعلاقتهم به قوية لأنه هو الذى رباهم ، فهى رابطة لا انفصام لها فيكونون دوماً رهن إشارته وينفذون أوامره ، وكانت تربط الأمراء الذين نشأوا وعاشوا عند سيد واحد علاقة الخشداشية [٢] . أى الزمالة ، فهم جميعاً زملاء وأصدقاء ، وكانوا يؤمنون أنهم جميعاً متساوون فى النشأة والأصل والحق والواجب ، ولم يكونوا عبيداً للخدمة فقط مثل غيرهم فى البلاد الأخرى ، إذ كانوا يرون أن السلطان واحد منهم ، وكان هؤلاء المماليك يحررون ويعتقون فيتسلمون المناصب العليا فى الدولة مثل قيادة الجيش أو نيابة الأقاليم أو وظيفة من وظائف البلاط [١] . وكانت ثقافة المماليك وتربيتهم فى كلا الدولتين الأيوبية والمملوكية تهدف إلى الاهتمام بالناحية العسكرية والاحتفاظ بهم جنوداً تعتمد عليهم الدولة فى الدفاع عن الوطن والدين ، ومن ثم كانت تربيتهم تقوم على أسس من تعليم القراءة والكتابة والتدريبات الرياضية وحفظ بعض آيات الكتاب الكريم ، حتى إذا فرغوا من ذلك بدأت المرحلة الثانية وهى مرحلة تعلم أساليب الحرب والقتال ، ويقسم المماليك إلى طوائف وكل طائفة يتسلمهم معلم ، فيعلمهم السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيف والضرب بالرماح والقذف بالأطواق والمبارزة ورمى النشاب ولعب الكرة ، فيكون جندياً كاملا يلتزم بالطاعة واتباع الأوامر وتنفيذها . وكان ظهور المواهب وكفاءة المملوك فى ميدان القتال والمبارزة والرياضة داعياً إلى ترقيته وعتقه وإدراجه ، فى سلك الوظائف حتى قد يصل به الأمر إلى نيابة السلطنة أو إمرة فى الجيش أو السلطنة نفسها .

---

(١) The Mamluk Sultans, P. 735-736.

(٢) خشداشية جمع خشداش أى الزميل فى الخدمة والخشداشية فى اصطلاح عصر المماليك معناها الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠ حاشية ١ .

(٣) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦ .The Mamluk Sultans, P. 736

الجيش المملوكي وأنظمته :

كان لابد من قوة عسكرية تحفظ سلطان المماليك في البلاد ، وتستطيع دفع العدو عن البلاد ، وأدرك السلاطين المماليك حقيقة أوضاعهم الداخلية والخارجية ، وأدركوا حاجتهم إلى جيش قوى فكونوا جيشاً وفرقاً عسكرية كثيرة ، وأنشأوا أسطولا بحريًّا قويًّا ، ظهرت آثار الاهتمام بالقوة العسكرية في الانتصارات الرائعة التي حققها المماليك ضد التتار من ناحية وضد الصليبيين من ناحية ثانية ، والحديث عن القوات المسلحة المملوكية يشمل ناحيتين ، هما : ديوان الجيش ثم أنظمة الجيش وتكوينه .

أما ديوان الجيش فكانت قلعة الجبل تعتبر المقر الرئيسى الدائم لديوان الجيش ، وكان ناظر الجيش بمثابة وزير الدفاع والحرب لا يبرح ذلك الديوان ومعه سائر كتاب الجيش والموظفين ، فهم يعملون طول الوقت وذلك لأهمية ديوان الجيش ، فهو يقوم بالإشراف على جميع شئون القوات العسكرية وإقطاعات الجند ورواتبهم ويمتاز بالدقة والترتيب والتنظيم . وبه سجلات بها أسماء الجنود والأمراء الذين هم قادة وضباط الجيش ، وكانت أسماء الجند تعرض بديوان الجيش ، إلا أنه لما ازداد عدد هذا الجيش واتسعت المملكة أصبح الأمراء يدونون أسماء جنودهم في دواوينهم الخاصة ، ثم يضعون مثل هذه السجلات في ديوان الجيش بالقلعة ، وكان «كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله »[١] وإذا مات أحد الأجناد أو فصل فيحل محله آخر ويتناول إقطاعه الذى كان يتناوله الأول من ديوان ذلك الأمير ، أما انتقال جندى من خدمة أمير إلى آخر فلا تكون إلا بإذن من السلطان ، وبعد صدور مرسوم خاص من السلطان أو من نائبه بهذا الخصوص ، وكان الجندى في الدولة المملوكية يتبع أميره في كل شيء[٢] .

ويرأس ديوان الجيش موظف يعرف باسم ناظر الجيش ويشرف على الجيوش

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص٦٠ — ٦٢ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٣ .

وكل ما يتعلق بها ويشرف على الإقطاعات فى مصر والشام ويصدر أوامره بكل ما يختص بهذه الإقطاعات بعد استشارة السلطان فى بعض الأمور ، ولناظر ديوان الجيش مساعدون يعاونونه لاتساع مسئولياته المكلف بها ، وبلغ عددهم أربعة مساعدين هم صاحب ديوان الجيش ومستوفى الجيش ومستوفى إقطاع العرب ومستوفى الرزق إلى جانب من يعرف بنقيب الجيش ، ويلى ناظر الجيش فى الرتبة والدرجة ، وينوب عنه فى تصريف شئون ديوان الجيش [١] .

مراتب أمراء المماليك :

كان لأمراء الجيش المملوكى درجات ورتب فمنهم من له إمرة مائة فارس ومقدماً على ألف فارس فى وقت القتال من أجناد الحلقة ، فيقال له أمير مائة مقدم ألف ، ومن هذه المرتبة يكون نواب الولايات والأقاليم ، ثم أمراء الطبلخانات ومعظمهم من يكون له إمرة أربعين فارساً وقد تزيد إلى السبعين ،ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين ، ثم أمراء العشرات وبعضهم من يكون له عشرون فارساً ولا يعد إلا فى أمراء العشرات ، وأمير عشرة يكون فى خدمته عشرة مماليك ، ثم أمراء خمسة ويكون فى خدمته خمسة مماليك « وهم فى الحقيقة كأكابر الجند [٢] »

تكوين الجيش المملوكى :

كان الجيش المملوكى ينقسم إلى ثلاثة فرق نظامية كل أفرادها من الأرقاء الذين يعملون فى خدمة السلطان ومنهم من هو فى أقطار المملكة والولايات وسكان بادية كالعرب [٣] . وأول هذه الفرق طائفة المماليك السلطانية « وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً ، وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم من تؤمر

---

(١) مستوفى الجيش ويقوم بتحديد مرتبات الجند والإشراف عليها ، أما مستوفى إقطاعات العرب فيقوم بالإشراف على إقطاعات العرب ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الجند : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ — ٢٢ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥ ، ٢٧ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣ ، الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٥٠ ؛

(٣) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٥٠ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣ .

الامراء رتبة بعد رتبة » [١].

وقد سموا بذلك الاسم لأن السلطان القائم فى الحكم كان يجلبهم إلى مصر ، ولذا كانوا يعرفون أيضاً باسم « الأجلاب » و باسم « الأحداث » وكذلك كان من بين المماليك السلطانية طائفة من المماليك القدماء من أجلاب السلاطين السابقين أطلق عليهم اسم « القرانصة » أو « القرانيص »، وهؤلاء كانت لهم سجلات خاصة بهم بديوان الجيش وتصرف لهم الرواتب ، ولكن لم تبلغ منزلة هؤلاء درجة المماليك السلطانية ، ويلى طائفة المماليك القرانصة طائفة المماليك الخاصكية وهم مماليك السلطان القائم فى السلطنة قبل أن يعتلى عرش السلطنة [٢] ، ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى أمر تربيتهم وعتقهم وهم دائماً يلازمون السلطان ، وكانت لهم المنزلة الأولى، حتى إنهم كانوا يرشحون قبل غيرهم للإمارة وكانت بعض طوائف المماليك تختلف عن الأخرى ،إذ أن بعض الفرق كانت تصرف لهم رواتب شهرياً بينما كان البعض الآخر يعيش من دخل أرض أقطعت له وذلك بعد أن نال حريته وأصبح قادراً على التملك .

أما الفرقة الثانية فى الجيش المملوكى فهى طائفة أجناد الحلقة، وتتكون هذه الفرقة من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم . وهم أقرب طوائف الجيش المملوكى إلى نظم الجيش الحديثة وهم لا يتغيرون بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين ولكل مائة منهم نقيب « دباش » ولكل أربعين « مقدم منهم » وكانت تصرف لهم مرتباتهم من ديوان الجيش ، أما عن مقدم الأربعين هذا فليس له حكم عليهم إلا القتال معه فيكون عليه ترتيبهم فى مواقفهم ، وليس له أن يخرج أحداً من الخدمة أو يفصله إلا بعد إذن السلطان أو نائبه [٣] . ومن مات منهم استخدم آخر عوضاً عنه بعد إثبات ذلك فى ديوان الجيش وموافقة السلطان على ذلك [٤].

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .

(٢) The Mamluk Sultans, P: 756.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ص ١٦ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣، الخطط ج ٣ ص ٣٥١ تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٧ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١ .

أما الفرقة الثالثة فى الجيش النظامى فهى طائفة مماليك الأمراء وهذه تشبه المماليك السلطانية إلا أن أفرادها يتبعون أمراءهم مباشرة ، إذ أن لكل أمير جيشاً يتراوح عدده على حسب حالة الأمير المادية وثروته ، ومن مجموع هؤلاء الأمراء وجنودهم وأتباعهم تكونت الكتائب الحربية التى سارت تحت قيادة الأمراء والسلاطين وتبدو أهمية مماليك الأمراء مما قاله المقريزى : «إن مقام الأمراء بمماليكهم» [1] . ويبدو أن جيوش ، الدولة المملوكية كانت خليطاً من الأجناس ولم يكن فى هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما ألحق بالحملات الحربية من فقهاء ومقرئين وصناع ، إذ اقتصر عمل أهل البلاد الأصليين على النواحى الاقتصادية والوظائف المدنية [2] . وبالإضافة إلى الفرق النظامية سالفة الذكر توجد فرقة أخرى تسمى فرقة «أولاد الناس» وتتكون من أبناء أمراء المماليك فقط ، وهى فرقة الاحتياطى لا تستدعى إلا عند القتال ، ويضعون أنفسهم تحت تصرف السلطان فى حالة الطوارئ والحرب ، وكانت تدفع لهم رواتب سنوية أو إقطاعات من الأرض كغيرهم وذلك فى أيام الحرب والسلم ، ورواتب القوات العسكرية هذه جميعاً تكون نقوداً أو إقطاعاً ولعامة الأمراء والجنود .

مقر الجيش المملوكى :

كانت جزيرة الروضة بالقاهرة المقر الرئيسى للجيش أيام الملك الصالح أيوب ، ولكن السلطان المعز أيبك أمر بنقل جميع المماليك التى بها إلى قلعة الجبل إلا أن السلطان الظاهر بيبرس أعاد بناء قلعة الروضة وسكنها الأمراء بجنودهم ، ولما جلس السلطان قلاوون الألفى على عرش السلطنة عام ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نقل المماليك من قلعة الروضة إلى قلعة الجبل مرة ثانية . وكان لا يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلا أو نهاراً ، وكان كثير الاهتمام بهم ويشرف على طعامهم بنفسه ، ثم بنيت طوابق أخرى فى قلعة الجبل فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وسكنها المماليك ، وكانت القلعة عبارة عن معسكر أو مدينة غاصة بطوائف الجند

---

(١) تاريخ المماليك البحرية ٢٦٧ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٣٥٦ .

(٢) The Mamluk Sultans, P. 756.

والأمراء ، ولم تكن كل الجيوش تقيم بالقلعة بل كان بعضها يلحق بولاة الأقاليم فكان لكل وال جماعة من المماليك تحت قيادته ، وينفذون أوامره، أما مماليك الأمراء فكانوا يقيمون مع أمرائهم فى مساكنهم فى المدينة أو فى الأراضى المقطعة لهم ، فى مصر أو الشام ، وكان جند الأقاليم يقيمون فى قلاع وحصون أو فى معسكر بجوار مقر الوالى ، وهذه القلاع والحصون تشبه قلعة الجبل وهى مملوءة بكل ما يحتاج إليه الجندى من سلاح وعتاد وزاد وذلك استعداداً للطوارئ .

أما فى حالة خروج الجيش للقتال فإنهم يتخذون لهم معسكرات من خيام وتكون بترتيب محكم تتوسطها خيمة القائد ثم من حوله الأمراء ثم الأجناد ، واستعمل المماليك أنواعاً من الأسلحة منها السيوف والرماح والدروع المصنوعة من الزرد ، وتحفظ هذه الأسلحة فى مكان يعرف باسم السلاح خاناه ، وفى السلاح خاناه الصناع المقيمون الذين يقومون بإصلاح الأسلحة وتجديدها ، ويسمى صانع الأسلحة باسم الزردكاش ، أما المشرف على دار السلاح هذه فيعرف باسم السلاح دار « ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدمين »[1] .

مجلس الجيش :

كان يجتمع مجلس الجيش برئاسة السلطان وأتابك العساكر[2] ويحضره الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين ، والهدف من الاجتماع قبل الخروج إلى القتال هو التشاور ووضع خطة للقتال وأخذ رأى القضاة فى مشروعية القتال وإذا تم الاتفاق تجمع الجند من جميع الجهات ويؤدون يمين الولاء والطاعة والإخلاص ، ثم توزع عليهم الأسلحة ، ومعدات الحرب من مخازن السلاح ، ثم يجرى استعراض القوات قبل خروجها للقتال ، ويعين قائد على رأس الجيش ممن تتوافر فيه الخبرة فى القتال وظهرت شجاعته وكفايته الحربية ، واتبع المماليك فى قتالهم طريقة الصفوف ، وكان يعاقب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ — ١٢ ، ١٨

(٢) اتابك العسكر وهو أكبر الامراء المقدمين ، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى وغايته رفعة المحل وعلو المقام ، القلقشندى ج ٤ ص ١٨ .

من يخرج عن الصف ، وكان الخليفة يرافق الجيش فى معظم الأحيان لتشجيع الجنود والصبر على قتال العدو[١] ، كما ترافقه فرق الموسيقى والطبول ، وكان لكل أمير طبله الخاص ، وكان مع الجيش الأعلام والرايات وكذلك فرق الإسعاف والتمريض لعلاج الجرحى والمرضى[٢] .

الأسرى ومعاملتهم :

كان الأسرى من نصيب السلطان الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ثم يأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء ، أما الرجال من بين الأسرى ، فمن كان ذا مقام خاص دفع الفدية وأطلق سراحه ، أما من كان أسيراً وهو من العامة ولا ينتظر منه دفع الفدية فكان يرسل إلى معتقلات خاصة بالأسرى أو يوزع على الأمراء . وكانت معاملتهم حسنة فنجد السلطان الملك العال كتبغا المنصورى كان أسيراً ولكنه صار سلطاناً ، وكان بعض الأسرى يستخدمون فى بعض الأعمال كالبناء[٣] . وخلاصة القول أن الأسرى كانوا يجدون معاملة طيبة لم نجد لها مقابلا عند التتار[٤] .

قيام دولة المماليك :

قامت دولة المماليك فى ظروف صعبة ، كان الفرنج يحتلون جزءاً من أرض مصر ، وكان لانتصار المماليك على الصليبيين فى موقعة المنصورة أكبر الأثر فى انتقال الحكم اليهم بعد أن أدركوا ضعف الأيوبيين وخصوصاً بعد وفاة الملك الصالح أيوب أستاذ المماليك البحرية وكانت شجرة الدر زوجته أرسلت فى طلب ولده المعظم تورانشاه من حصن كيفا[٥] للحضور لتولى السلطنة بعد أبيه ،

---

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧١ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٣٥٧

(٢) القلقشندى : ج ٤ ص ٨ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ١٧٤ ، الدولة الخوارزمية ص ٢١٨ ،

(٤) المغول فى التاريخ ص ٢٦٢ .

(٥) حصن كيفا ويوجد بين جزيرة ابن عمر وميا فارقين بديار بكر : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٤ – ١٤٥ .

بالرغم من وصية والده بعدم توليته[1] ، واستطاعت شجز الدر أن تدبر شئون المملكة حتى حضر المعظم تورانشاه إلى مصر ، وبعد هزيمة الصليبيين فى المنصورة على يد المماليك الذين قال فيهم المقريزى « وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى — فى هذه النوبة بلاء حسناً وبان لهم أثر جميل » ، وقال كذلك « وكادت الكسرة أن تكون فإن الملك رايدا فرنس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك بلطفه وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية والجمدارية[2] وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ..

ولكن المعظم تورانشاه أساء معاملة زوجة أبيه التى حفظت له السلطنة إلى أن وصل من حصن كيفا واحتجب عن الناس وأضمر سوءاً للمماليك أصحاب الفضل فى الانتصار على الصليبيين ، وكان متهوراً مما أثار عليه زوجة أبيه ومماليك زوجها فاحتالوا لقتله وهو فى فارسكور بالقرب من المنصورة وذلك فى المحرم عام ٦٤٨ هـ (أبريل ١٢٥٠ م) وقام بهذا العمل بيبرس البندقدارى وتم قتله حتى مات « جريحاً حريقاً غريقاً[3] » ويعتبر تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين فى مصر ، واستقر رأى الأمراء على سلطنة شجر الدر لأنها زوجة الملك الصالح أستاذهم والتى كانت قريبة فى نشأتها وحياتها إلى المماليك ، ولهذا اعتبرها المقريزى « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك » ، واستقر الرأى أن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى مقدماً للعسكر ، فخطب على منابر مصر باسم شجر الدر ونقش اسمها على السكة وكانت الأمور كلها موكولة بها ، ويمكن اعتبار شجر الدر قنطرة وصل المماليك إلى الحكم عن طريقها وهى حد فاصل بين عهدين ، وبالرغم من حب الناس والمماليك لها إلا أن سلطنة امرأة كانت أمراً لم يتعوده المسلمون ،

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) الجمدار وهو الذى يتصدى لإلباس السلطان ثيابه أو الامير — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥ حاشية ٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٠ ، العبر والمبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٠ إلى ٣٧٢ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ ، تحفة الإسلام للكبرى ص ١٠٥ ، الروض الزاهر ص ٣ — ٤ ، أخبار الأول ص ١٢٥ — ١٢٦ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٧ ، تراجم رجال القرنين ص ١٨٥ .

وكذلك لم يكن أمراء الأيوبيين فى الشام يقبلون انتقال الحكم إلى المماليك وطمعوا فى ملك مصر وخاصة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين الذى أخذ دمشق وأخذ يطالب بمصر ويستعد لغزوها[١] ، أما موقف الخليفة العباسى فى بغداد من تطورات الأحداث فى مصر فإنه استاء لتولى شجرالدر الحكم وأرسل إلى الأمراء فى مصر يقول لهم « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا[٢] » ، ولهذا عرض أمراء المماليك على شجر الدر أن تتزوج من أيبك مقدم العسكر فوافقت على ذلك وتنازلت له عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً ، ويعتبر المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحى النجمى المعروف بالتركمانى أول ملوك الترك المماليك بمصر[٣] ، وكانت سلطنته فى أواخر ربيع الآخر عام ٦٤٨هـ / أغسطس ١٢٥٠م) .

ولكن لم تمض أيام خمسة على سلطنته حتى ثار المماليك الصالحية وطالبوا بأن يكون السلطان من بنى أيوب ومن بين زعمائهم الأمير فارس الدين أقطاى والأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير شمس الدين سنقر الرومى ، ورغب هؤلاء فى أن يكون المعز أيبك أتابكاً وليس سلطاناً ، واختاروا أن يقيموا فى السلطنة أحد الأمراء الأيوبيين الصغار ليكون له اسم السلطنة فقط وهم يدبرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به ، واختاروا الملك الأشرف موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك المسعود افسيس بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب ، وكان صغير السن فسلطنوه وخطبوا باسمه وجعلوا أيبك أتابكاً له . ولم يكن للأشرف موسى فى الحقيقة إلا اسم السلطنة .

وحدثت وقائع بين المعز أيبك وأمراء الأيوبيين فى الشام وكان النصر للمعز

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٨٦ ، الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ٥٦ ، ٥٧
Howorth: Part 3, P. 142.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣ ، ١٤ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٤ .

أيبك ، ولما انتصر أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام ثبت حكمه فى مصر فخاف بعض أمراء المماليك من سطوته ، ومن هؤلاء الأمير فارس الدين أقطاى الذى كان منافساً لأيبك فى النفوذ ، وكان مماليكه ينادونه بالملك الجواد[1] ، ثم دبر المعز أيبك لقتل أقطاى فقتله،فهرب معظم المماليك البحرية إلى الشام هرباً بحياتهم[2] .

عزل الأشرف موسى من السلطنه واستقلال أيبك بالحكم :

كان من نتائج انتصار المعز أيبك على الناصر صلاح الدين يوسف فى العباسة شرقى مصر أولا وتخلصه من منافسه فارس الدين أقطاى وهروب المماليك البحرية إلى الشام من ناحية ثانية أن قرر أيبك خلع الملك الأشرف موسى من السلطنة فأنزله من قلعة الجبل وجعل نفسه سلطاناً وأخذ يستعد ويزيد من قوته لمقابلة خصومه من الأيوبيين وأمراء المماليك البحرية ، وبالإضافة إلى ذلك لمواجهة الخطر الصليبى والمغولى .

وبعد أن استقرت له الأحوال فى مصر طلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ أن يزوجه ابنته ، فلما علمت شجر الدر بذلك ثارت ثائرتها وقررت الخلاص منه قبل أن يتم الزواج ، فدبرت قتله وهو فى الحمام ودبر أيبك أيضاً لقتلها ولكنها كانت أسرع منه فى ذلك ، وقتل فى الحمام يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ٦٥٥هـ . أبريل ١٢٥٧م[3] ، وتولى من بعده ابنه على وسمى بالملك المنصور نور الدين على ولم يكن تجاوز خمس عشرة سنة[4] ، ثم قتلت

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٠ ، النجوم ج ٧ ص ١٠ — ١٢ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٥ — ٣٧٦ الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ ، المختصر ج ٣ ص ١٩٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٣ ، المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، الذيل ج ١ ص ٤٥ — ٤٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، العبر ج ٥ ص ٣٧.٧ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٣٨ ، تحفة الناظرين ص ١١٧ — ١١٩ The Mamluk Sultans, P. 744.

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٥ ، الخطط ج ٣ ص ٣٨٦ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، المختصر ج ٣ ص ١٩٢ ، النجوم ج ٧ ص ٤١ — ٤٢ ، أخبار الأول ص ١٢٦ .

شجر الدر بعد أيبك بأيام وأقيم الأمير قطز نائباً للسلطنة على عادته وصار له الشأن والتدبير ، واستمر الحال على ذلك حتى داهم التتار بلاد الشام ، ووصلت طلائعهم إلى غزة ، عند ذلك استقل قطز بالسلطنة ، وعزل المنصور على وسار بقواته إلى بلاد الشام لقتال التتار وانتصر عليهم فى عين جالوت ، ولكن الظاهر بيبرس البندقدارى تآمر عليه فى طريق العودة إلى مصر وقتله ثم تسلطن بيبرس وبدأ فى إقرار الأمور وتركيز سلطانه ، فقابلته مشاكل داخلية وأخرى خارجية خطيرة حتمت عليه الظروف أن يكسب حكمه الصفة الشرعية أمام المسلمين ليتسنى له القيام بواجب الجهاد ، ولكن من أين يكسب حكمه الصفة الشرعية والخلافة قد زالت من بغداد على يد التتار ، فكان عليه أن يوجد الخلافة والخليفة أولا ليكسب تأييدها ثانياً .

سقطت بغداد وبها الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ (يناير ١٢٥٨م) على يد التتار وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم ، فى الوقت نفسه الذى احتاج فيه المماليك إلى التأييد الدينى من خليفة المسلمين ، وعلى ذلك كان على المماليك أن يوطدوا حكمهم الجديد فى مصر بإقامة الخلافة وإحيائها من جديد ، ليظهروا أمام العالم الإسلامى بأنهم حماة الإسلام مما يضفى على حكمهم الصفة الشرعية ، وكانوا فى حاجة إلى استقرار داخلى يمكنهم من الوقوف فى وجه التتار والصليبيين ، ولم يكونوا يأمنون الجبهة الداخلية لكراهية الناس لهم لأنهم أصلا أرقاء جلبوا من بلاد الشرق واتخذوهم الأمراء فى خدمتهم ثم وصلوا إلى الحكم بعد أن انتزعوه من سادتهم الأيوبيين ، ولذلك كان المسلمون يتطلعون إلى عودة حكم الأيوبيين الشرعيين ، ولم يكن أهل البلاد يقبلون حكم المماليك ، ولهذا فكر سلاطين المماليك فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة إرضاء لشعور المسلمين وكسب تأييدهم ، وقد فكر المظفر قطز فى إحياء الخلافة ، ولكن الوقت لم يتح له تنفيذ ذلك المشروع فلما تسلطن الظاهر بيبرس شرع فى بداية حكمه فى إحياء الخلافة فعلم من أحد نوابه فى الشام بأنه ورد إلى الغوطة[1] رجل قيل إنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر وهو عم المستعصم وأخو المستنصر ومعه جماعة من

---

(١) وهى الكورة التى منها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلا يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها وتمتد بها أنهار تسقى بساتينها : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١٠٠٥ — ١٠٠٦ .

عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارساً . وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين وقال بهؤلاء يحصل المقصود ، وكان أبو القاسم قد سلم من بطش التتار ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة ، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس عندما علم بسلطنته ، وأرسل السلطان الظاهر إلى نوابه فى الشام يطالب القيام بخدمة أبى القاسم والعناية به ومن معه حتى يصل مصر « فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر »

وخرج السلطان الظاهر والفقهاء والأعيان والشهود والقضاة والوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العساكر والمؤذنين وجهمور من العامة ، وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل لاستقبال الخليفة الجديد ، ووصل أبو القاسم إلى مصر فى رجب عام ٦٥٩هـ / يونيه ١٢٦١م ، ونزل قلعة الجبل وبالغ السلطان الظاهر فى إكرامه وإقامة ناموسه ، ولما كان يوم الاثنين الثالث عشر رجب ٦٥٩هـ / يونية ١٢٦١م عقد الظاهر مجلساً لمبايعة أبى القاسم بالخلافة وإثبات نسبة العباسى ، وحضر ذلك المجلس الشهود والفقهاء والقضاة والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وحضر الأعراب الذين حضروا مع الأمير العباسى وأقاموا البينة على أن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ، ولما شهد هؤلاء بصحة نسبه قبل قاضى القضاء تاج الدين بن بنت الأعز شهادات القوم وأثبت ذلك ، ثم قام القاضى تاج الدين وبايع الخليفة الجديد ، ثم قام السلطان الظاهر من بعده وبايع أمير المؤمنين المستنصر أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها ، ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ، وبعد ذلك قام الخليفة المستنصر بالله وقلد السلطان الظاهر حكم البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار ، ثم بايع الناس الخليفة ، ثم كتب بذلك إلى الولايات والنيابات بأن يأخذوا البيعة للخليفة وأن يدعى له على المنابر ثم للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسميهما ، وفى السابع عشر من شهر

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥٠ ، الخطط ج ٤ ص ٩٤ .

رجب ٦٥٩هـ / يونيه ١٢٦١م ، خطب الخليفة العباسى بالناس فى صلاة الجمعة بعد أن كان منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصف سنة منذ قتل الخليفة المستعصم بالله فى صفر ٦٥٦هـ / فبراير ١٢٥٨م ، وعلى ذلك يكون الخليفة المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس[1] ،ويلاحظ من تقليد الخليفة للسلطان الظاهر بيبرس ، أنه أصبح كفيلا بالبلاد الإسلامية مسئولا عن حمايتها والدفاع عنها بما فى ذلك بلاد الحجاز والحرمين الشريفين ، وما يفتح الله على يديه من بلاد جديدة . بمعنى آخر أن ذلك التقليد حقق الصفة الشرعية لحكم المماليك للبلاد الإسلامية والحجازية ،بالإضافة إلى تحملهم المسئولية فى الجهاد من أجل تطهير بلاد الإسلام من الأعداء وذلك شرف عظيم أمام المسلمين .

أضف إلى هذا أن فوز المماليك بذلك الشرف قد أغلق الباب فى وجه بقايا الحكام الأيوبيين الذين لم يستطيعوا القيام بهذه الزعامة وكلهم يسعى إليها فسبقهم المماليك إلى ذلك ، فصدقوا العزم والنية وجاهدوا فى سبيل الله وحافظوا على بلاد الإسلام ، وأوقفوا تقدم الغزو المغولى ، وأنهوا الاحتلال الصليبى نهائياً من بلاد الشام بعد أن دام قرابة قرنين من الزمان .

كان من نتائج إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة أن انتقل إليها المركز الإسلامى الدينى والسياسى والعسكرى والثقافى بدلا من بغداد ، وبرغم التشكيك فى صحة نسب الخليفة المستنصر بالله فإن إحياء الخلافة أدى دوراً سياسياً وروحياً بالنسبة لدولة المماليك الناشئة ، واستطاعوا أن يحققوا انتصارات رائعة على عدوهم ، ونعموا بثراء واسع لم يكن يتم لهم ذلك بدون إحياء الخلافة ، ومهما يكن هدف الظاهر بيبرس من إقامة الخلافة فإنه اهتم بالخليفة وأحاطه بكل رعايته وعنايته ، ولما خرج الخليفة المستنصر بالله إلى الشام لقتال التتار واسترداد بغداد ، زوده الظاهر بما يحتاج إليه من الفرسان والأموال ، ولم يمنعه من زيادة تلك المساعدات إلا تحريض بعض الأمراء له أن ينازعه السلطان إن هو انتصر على التتار واستقر فى بغداد فاكتفى بتزويده بجيش ضئيل لم يستطع الخليفة به الثبات طويلا أمام التتار فقتل وتفرق أصحابه ، وبالرغم من ذلك فإن الظاهر بيبرس لم يكن راغباً فى

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣١ .

إسقاط الخلافة فنجده يسرع فى استدعاء الخليفة الحاكم بأمر الله الذى رافق الخليفة المستنصر فى قتاله للتتار ، يستدعيه إلى القاهرة ليقيمه ويبايعه بالخلافة بدلا من الشهيد المستنصر بالله ، وقرر أن يستقر الخليفة هذه المرة فى القاهرة[١] .

بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله فى القاهرة :

وصل الأمير أبو العباس أحمد الذى تلقب بالحاكم بأمر الله إلى دمشق وسار منها إلى مصر ، ووصل إلى ظاهر القاهرة فى ٢٧ ربيع الأول عام ٦٦٠هـ / فبراير ١٢٦٢م ، واحتفل السلطان الظاهر بقدومه وأنزله بقلعة الجبل ، ووصل فى منتصف شهر رجب من العام نفسه جماعة من بغداد من مماليك الخليفة المستعصم كانوا تأخروا فى بلاد العراق وعلى رأسهم الأمير سيف الدين سلار[٢] ، وفى يوم الخميس الثامن من شهر المحرم عام ٦٦١هـ / نوفمبر ١٢٦٢م ، عقد السلطان الظاهر مجلساً لبيعة الخليفة الجديد وثبت نسبه ولقب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وبايعه السلطان الظاهر على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقتال أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها وكذلك الوفاء بالعهود وإقامة الحدود والعمل على حفظ البلاد والقيام على حراسة المسلمين والاهتمام بالدين والعمل من أجله ، فلما تمت بيعة الخليفة قام بدوره وقلد السلطان الظاهر بيبرس أمور البلاد والعباد وسائر الأمور[٣] .

وقد استقر الخليفة هذه المرة فى القاهرة حتى وفاته ، وبالرغم من الفوائد التى حققها المماليك من وجود الخلافة والخلفاء فى القاهرة ، إلا أن الآخرين كانوا مسلوبى السلطة ألعوبة فى أيد السلاطين ، وأصبحت مهمته مقصورة على التوقيع وإعطاء التفويض بالحكم للسلطان ،وبالرغم من أخذ تفويض من الخليفة للسلطان فإن

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٩ . تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٨ ، تتمة المختصر ج ٢ ص ١١٤ ، الذيل ج ١ ص ٤٨٣

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧٧ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٧ ، الذيل ج ١ ص ٥٣ ، الذيل ج ٢ ص ١٨٦ – ١٨٧ ، المختصر ج ٣ ص ٢١٥ ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧٩ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٠٤ – ٣٠٥ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٨ – ١٢٩ . Howorth, Part 3, P. 200.

كثيراً من السلاطين خلعوا بالرغم من ذلك التفويض ولم يكن للخليفة أن يختار السلطان بل يختار الأمراء ويوافقون عليه ثم يأخذ السلطان الجديد على الأمراء العهود بالطاعة والولاء والإخلاص ، وعلى ذلك قد تطول مدة حكم السلطان أو تقصر بناء على موافقة ورغبة الأمراء دون النظر إلى تفويض وبيعة الخليفة والقضاة الأربعة إلى السلطان ، والخلاصة فقد فقدت الخلافة جوهرها وبقى مظهرها التقليدى فيظهر الخلفاء فى الأعياد والمناسبات والاحتفالات ثم يخرج الخليفة أحياناً مع الجيوش ليباركها ويحث الجنود على الجهاد فى سبيل الله ويدعو الله بتفريج الكروب وتخفيف البلاء وقت الشدة، وهذا بالإضافة إلى كتابة اسمه على السكة والدعاء له على المنابر فى خطبة يوم الجمعة ، ومجمل القول لم يتمتع الخلفاء فى القاهرة بما تمتع به أسلافهم فى بغداد من حيث السلطات الواسعة والسيطرة والقوة والتأثير على وجود دولته .

ثانياً ــ التتار (المغول) :

أما المغول فقد نشأ الأصليون فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى وهى تمتد فى أواسط آسيا جنوبى سيبريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غرباً وجبال خنجان شرقاً ، عاشت قبائل المغول ومجموعات أخرى من الأقوام المغولية المجاورة مثل قبائل المغول البايوت والتيدوجوت والكنجرات وكانت تقيم فى الإقليم الواقع جنوبى بحيرة بيكال ، وأمة التتار كانت تعيش على شاطىء بحيرة بويور فى أقصى الشرق من منغوليا[1] ، وهناك قوم كرايت الذين سكنوا الواحات الشرقية الداخلة فى صحراء جوبى وجنوب بحيرة بيكال حتى سور الصين ، وكانوا يدينون بالمسيحية منذ عام ٣٩٨هـ ــ ١٠٠٧م ، ثم قوم مركيت الذين عاشوا بجوار قوم كرايت شمالا على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بيكال وقبائل أويرات (اويراد) الذين سكنوا ما بين نهر أونون وبحيرة بيكال ، ومن بين قبائلهم قبائل النايمان والأسرة الجلائرية التى كانت تشمل عشرة قبائل وكانت تسكن منطقة شواطىء نهر أونون ،

---

(١) محنة الإسلام الكبرى ص ٧٣ .

ومن هذه القبائل المغولية كانت هناك طائفة صغيرة اسمها « قيات » وتعرف باسم « يورجقين » هذه القبيلة نشأ فيها جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ، عاشت قبائل المغول والتتار حياة قبلية كل قبيلة مستقلة عن الأخرى ويمتلكون قطعاناً من الأغنام والخيول ، وهم كعادة الشعوب القبلية فى نزاع مستمر وحروب دائمة ، وعلى الرغم من اختلاف لغات هذه القبائل البدوية إلا أنهم جميعاً عاشوا حياة تجرى على نظام ونسق واحد متقاربين فى الشبه والخلقة والعادات والتقاليد وكانوا يتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التى نشأوا وعاشوا فيها كل المناسبة [١] ويعتبر جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية فقد ولد عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م [٢] على الشاطئ الأيمن لنهر الأونون فى مقاطعة بن دولون بلداق الواقعة فى روسيا الحالية وهو جنكيز خان بن بيسوكى بن بهادر بن تومان بن تومنيل خان ابن توعية بن باد سنفر بن تيداون ديوم بن بغابن بودنجة بن ألان قوا [٣] ، وقيل إنه اتخذ اسم تموجين نسبة إلى أمير هزمه والده يسوكاى بهادر [٤] وكان تموجين فى الثانية عشرة من عمره لما توفى والده يسوكاى ٥٦٣هـ / ١١٦٧ فاستغلت قبيلته صغر سنه وخرجت عن طاعته وأعلنت التمرد والعصيان عليه وانحل اتحاد القبائل الذى كان أيام أبيه وتفرق عنه أنصاره وبقى وحيداً مع أمه وإخوانه ، فاضطرت هذه الأسرة الفقيرة أن تعيش حياة قاسية على صيد القليل من السمك وبعض الحيوانات إلى أن تطورت حياة جنكيزخان وبلغ السابعة عشرة من عمره ، فاستطاع بذكائه وشجاعته وحسن تدبيره أن يجتذب إليه الشخصيات الكبيرة فى قبيلته ، ثم أخضع المناوئين له فى هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة التامة عليها [٥] ، وعاش جنكيزخان فترة من الزمن تحت حماية قبيلة كرايت

---

(١) المغول فى التاريخ ص ٦ – ٧ تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧ .Genghiz Khan, p. 33

(٢) ذكر أنه ولد على شاطئ نهر أوذون عام ١١٦٢م . .Ganghiz Khan, p. 33

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

(٤) ذكر أنه بيسوكى : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٥) المغول فى التاريخ ص ١٧ – ١٨ ، .Genghiz Khan, P. 33-34

فى عهد رئيسها أونك خان[١] ، الذى كان يدين بالمسيحية[٢] وكان يرتبط مع والد جنكيزخان بعلاقات صداقة قوية ، ولذلك فإنه غمر جنكيزخان بعطفه ورعايته حتى صار جنكيزخان يناديه « أبى » ورفض التعرض له فى شىء ، وبالرغم من ذلك فإن هذه العلاقة الطيبة لم تدم ولم تستمر طويلا إلى مالا نهاية إذ أدرك أونك خان أن تموجين يزداد قوة يوماً بعد يوم فأوجس منه خيفة وخشى من طغيانه عليه ، ولذلك فكر فى الخلاص منه قبل أن يستفحل خطره، ولكن تموجين علم بما دبره له أونك خان فتركه تموجين «وكان جنكيزخان قد لف لفيفاً عظيماً فجمع لفيفة من قبائل التتر وقصد ذلك الملك[٣] وتحارب أونك خان مع جنكيزخان وانتصر تموجين على أونك خان وقتله[٤] ، وارتفع نجم تموجين بعد هذا الانتصار وزادت مكانته ومهابته وارتفع قدره فأسرعت القبائل التى كانت مترددة إلى الدخول فى طاعته ، وبعد أن تغلب جنكيزخان على قبيلة كرايت عرف تايانك خان رئيس قبيلة النايمان أن جنكيزخان سوف يهاجمه ويقضى عليه كما فعل بأونك خان فاستعد لمحاربته فى سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣ م ولكن تموجين تغلب عليه وتوفى متأثراً بجراحه ، وبذلك سيطر تموجين على تلك القبيلة ، ثم أخذ تموجين يؤلب القبائل بعضها على بعض ليضعف من كيانها فيما بينها ثم ليسهل عليه التغلب عليها فى النهاية ، ثم تحالف مع القبائل القوية ضد الضعيفة أى أنه اتبع سياسة : « فرق تسد » حتى استطاع أن يتغلب على أقوام المغول الذين ينزلون فى منطقة التبت وشرقى تركستان وعرف منذ عام ٦٠٠ / ط ١٢٠٣ م ، كسيد وملك للقبائل الواقعة فى منتصف منغوليا الشرقى ، ثم أخضع نصف منغوليا الغربى عام ٦٠٣هـ /١٢٠٦م ، ويمكن القول إن التتار لما كانوا أقوياء ولهم السيطرة على غيرهم قد عم اسم التتار على من خضع لهم ، ولما وجد المغول أن التتار من أخطر منافسيهم وقع القتال والصدام بين قبائل التتار وقبائل المغول وانتهى ذلك الصراع بانتصار المغول على التتار فغلب اسم المغول عليهم فاختلط الأمر فأصبح يطلق على المغول

---

(١) كان يدعى أزبك خان اورد فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦ .

(٢) Genghiz Khan, p. 34.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

اسم التتار ويطلق اسم المغول على التتار أحياناً ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية ضمت عناصر تتارية وأخرى مغولية وقبائل أخرى ، ولكن أهم العناصر كانت شعوب التتار والمغول ، ولقد اندمجت الفئتان فى إمبراطورية واحدة ، ثم أعقب تلك الانتصارات التى حققها جنكيزخان أن أجمعت القبائل على انتخابه إمبراطوراً عليها وسمى باسم جنكيزخان بدلا من تموجين ، ومعناه أعظم الحكام أو إمبراطور البشر ، وكان ذلك عام ٦٠٣ هـ ١٢٠٦ م ، [١] واتخذ مدينة قراقوم قاعدة للإمبراطورية المغولية [٢] ، ثم أخذ جنكيزخان يرسم فى سياسته العدوانية التوسعية نحو الجنوب بقصد الاستيلاء على ما يمكن من البلاد الصينية ثم التوسع ناحية الغرب بقصد إخضاع بعض القبائل التى فرت من وجهه وأهمها قبائل الخطا ، ثم وضع لشعبه ولإمبراطوريته دستوراً قبل أن يشرع فى تحقيق أغراضه وأهدافه ، واشتمل ذلك القانون على أحكام حربية وأخرى اجتماعية ومدنية وأحكام هذا القانون هو ما عرف باسم « إلياسه » أو « إليساق » وهو قانون مختصر بسيط [٣] ولكنه حازم صارم قوامه احترام المجتمع المغولى واحترام الصغير للكبير ثم تضمن هذا القانون نظام المغول العسكرى والحربى وجملته الطاعة العمياء واحترام الرتبة لمن يعلوه رتبه عسكرية ، هذا بالإضافة إلى العقوبات الشديدة الصارمة لمن يخرج عن أحكام إليساق أو هذا القانون ومن يقصر فى أداء واجباته من الضباط والجنود يعرض نفسه للعقوبات الشديدة ، وبهذا القانون والنظام المحكم استطاع جنكيزخان أن يوسع أملاكه فأخضع بعض الأقاليم الشمالية من بلاد الصين ، وعندما سار نحو الغرب للانتقام من أعدائه الذين فروا أمامه ورفضوا طاعته مثل الخطا الذين اعتصموا بالأقاليم الغربية اصطدم جنكيزخان بالقوى الإسلامية الموجودة فى الغرب ومن بينها الدولة الخوارزمية التى بلغت أقصى اتساعها أيام علاء الدين محمد خوارزمشاه [٤] .

---

(١) محنة الإسلام الكبرى ص ٧٨ ، المغول فى التاريخ ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) قراقوم وهى مدينة وقاعدة التاروهى قرية جنكيزخان الذى أخرجته ونشأ بها : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٨٠ — ٤٨١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٠ — ٣١٢ .

(٤) القلقشندى : ج ٤ ص ٣١٢ .

وفاة جنكيزخان وتقسيم الإمبراطورية :

توفى جنكيزخان فى ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧[١] ، بعد أن حكم مدة بلغت خمساً وعشرين سنة فترك إمبراطوريته لأولاده من بعده ، وكان له أربعة أولاد من الذكور وهم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم[٢] وهم دوشى خان أو جوجى ، وثانيهم جغطاى ، وثالثهم أوكداى ، والرابع طولى أو تولى . والأولاد الثلاثة الأول من أم واحدة هى أبوبولى بنت تيكى من كبار المغول[٣] .

ومات أكبر أولاده المدعو طوشى « جوجى أودوشى » وكان جعل له المسئولية عن أمور الصيد والقنص[٤] وكان الابن الأكبر المتوفى قد خلف من الأولاد جماعة من بينهم بركة وداورده وطوفل وتولى[٥] ، أما أبناء جنكيزخان الآخرين وهم جغطاى أو « كداى » وأوكوداى وطولى فقد أعطاهم نصيبهم ووزع عليهم واجباتهم وجعل لابنه الأصغر أوكداى عرش الخانية الأعظم على المغول ، وجعل لولده الآخر كداى بلاد ما وراء النهر ولابنه جوجى بلاد القفجاق وأضاف إليه إيران وتبريز وهمذان ومراغة ، أما طولى فلم يحصل على شىء[٦] وأوصاهم قبل وفاته بالاتفاق وعدم الافتراق .

الجيش المغولى :

عاش المغول حياة قبلية ورجال القبيلة جميعاً جنود يدافعون عن قبيلتهم إذا ما دعاهم الواجب ، وعلى ذلك كان كل مغولى جندياً مستعداً لخدمة القبيلة وكان على أتم استعداد لحمل السلاح والانضواء تحت راية قبيلته وزعيمه إذا هدد بلاده عدو أجنبى أو إذا هاجمت قبائل المغول إقليماً من الأقاليم ، ومن صفاتهم :

---

(١) Genghiz Khan, p. 170.

(٢) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٣) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٣٠٨ ، العبرج ٥ ص ٥٢٧ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) ذكر باتوا أو باطوواو رده و بركة وتولى وحمتى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٦) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

الطاعة التامة فى السلم والحرب [1] أما تدريب الجيش المغولى فكان طبيعياً فكل جندى يقوم بتدريب نفسه فى وقت السلم على ما سيقوم به فى ميدان القتال ويعد الآلات والأسلحة اللازمة لذلك ويتدرب على استعمالها بذاته وذلك أثناء عمليات صيد الحيوانات والطيور والأسماك ، تاركاً شئونه المنزلية لزوجاته ، هذا ويختلف نظام تدريب الجندى المغولى عن نظام الجندى المملوكى من حيث التربية والإشراف والرواتب ؛ ولأمراء المغول مرتبات معروفة كل حسب رتبته ودرجته ، ولكل طائفة من التتار قطعة من الأرض يتوارثها الخلف عن السلف منذ عهد هولاكو يقيمون بها منازلهم ويعيشون عليها ، والمغولى راع فى وقت السلم وجندى فى وقت الحرب [2] وامتاز المغول بارتكاب الجرائم وكل أصناف القسوة والتعذيب والتخريب والتدمير حتى ساد الناس اعتقاد وهو أن المغول قوم لا يهزمون ، فقال ابن الأثير : من حدثكم أن التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه وإذا حدثكم أنهم قتلوا فصدقوه [3] .

ومن طباعهم الغدر ونكث العهد ومن طغيانهم ما كانوا يرتكبونه من فظائع وجرائم فى المدنيين من سكان المدن والولايات فلم يكونوا يستثنون امرأة أو طفلا ولا يعطفون على مريض ولم يقدروا عالماً واستهتارهم بأرواح البشر من المميزات الرئيسية فيهم وذكر أن أحدهم دخل شارعاً فقتل فيه أربعين طفلا دون شفقة أو رحمة [4] .

فرق الجيش المغولى :

كان الجيش المغولى منظماً تنظيماً دقيقاً وقسمه جنكيزخان إلى فرق كبيرة وتتكون كل منها من عشرة آلاف رجل وتسمى تومان وأول فرق الجيش المغولى تتكون من مائة ألف جندى يسمونها التوك ، تليها فرق العشرة آلاف التى تسمى تومان ، وهذه الفرقة بدورها تنقسم إلى فرق أصغر منها تتألف كل فرقة من

---

(١) Genghiz Khan P. 19

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٥ — ٤٢٦

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٣٣٩ .

(٤) محنة الإسلام الكبرى ص ١٤٢ .

ألف رجل يسمونها منجان ثم فرقاً من مائة رجل يسمونها دن وفرقاً من عشرة رجال يسمونها أريان ، ويوجد لكل فرقة قائد يتصرف فيها حسب ما يراه ملائماً إلا أن جميع القادة كانوا يرجعون إلى الخان الأعظم رئيس الإمبراطورية ، وكان جنكيزخان يختار قادة يعرفهم ولهم خبرة ومهارة فى قيادة الجيش ، وكان العقاب يحل على كل مخالف ومهمل لواجبه سواء كان من القادة أو الجنود ، وجعل الترقيات والمراتب لكل من يستحق ذلك عن طريق الكفاءة[1] وكان كل جندى منهم مسجل فى ديوانه التابع له « وعلى كل طائفة منهم عليهم فى الديوان فارس معين ، » وأما عن الأمراء فكانت طبقتهم تأتى فى المقدمة دون سواهم ، ويقال لهم نوين أو نويان وهم أربع طبقات ، الأولى أمير عشرة آلاف ويعبر عنه بأمير تومان ، ثم أمير ألف ثم أمير مائة ثم أمير عشرة وعلى رأس هؤلاء الأمراء أمير الأمراء أو قائد الجيش ويسمى بكلارى بك أو كبير الأمراء[2] وكان الأمراء الأربعة هؤلاء لا يتم إبرام أمر من الأمور إلا بعد عرضه عليهم وأخذ موافقتهم ، ومن تغيب منهم قام مقامه نائبه وهم بدورهم لا يبرمون أمراً إلا بمعرفة الوزير واستشارته فهو يمثل السلطات المدنية فى الدولة[3] ، والوزير لا يشاور السلطان إلا فيما جل من المهمات وما قل من الأمور وهو السلطان حقيقة وصاحب البلاد معنى وإليه ترجع الأمور كلها ، وإليه عقدها وحلها .

خطط المغول فى غزو البلاد الأجنبية :

كان المغول يضعون خطة لحملاتهم الحربية فيجتمع مجلس الكورلتاى أو المجلس العام برئاسة الخان الأعظم والقادة والأمراء والضباط عدا من يكون من الضباط فى مهام خاصة بالدولة ، ثم يعرض عليهم المشروع وبعد البحث والنقاش توضع خطة الغزو ، وبعد ذلك تنطلق فرق الكشافة أو الجواسيس للحصول على معلومات عن العدو ومواقعه وعدده ويختبرون البلاد والقلاع والحصون والمدن ،

---

(١) الدولة الخوارزمية ص ٢١٤ — ٢١٥ ، الشرق الإسلامى ص ١٤٣ ، المغول فى التاريخ ص ٢٥٨ .

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، المغول فى التاريخ ص ٢٥٧ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٣ ، نفس المصدر ج ٧ ص ٢٦٧ .

ويعرفون أحوالها ثم يعودون إلى بلادهم ويطلعون قادة الجيش على معلوماتهم التى تساعد الجيش فى قتاله للعدد وكانوا يستخدمون الأعلام والرايات للدلالة على قواتهم ، وكانوا يستخدمونها فى ميدان القتال ، وكانوا يهتمون بوسائل المواصلات وطرقها.[1] وكان من عاداتهم الكر والفر و الالتفاف للانتقام من عدوهم ، وكانوا إذا هاجموا عدوهم نادوا بأعلى أصواتهم لإيقاع الرعب فى قلوب خصومهم ، وكانوا يلجأون إلى سياسة « فرق تسد » مثال ذلك مافعلوه من تفرقة بين خوارزم شاه ووالدته تركان خاتون[2] ، حيث استغلوا الخلافات الحادثة بين علاء الدين الخوارزمى شاه ووالدته لإضعاف قوته والانتصار عليه ، وبالرغم من طغيانهم وخداعهم إلا أنهم كانوا ينذرون الإقليم قبل الهجوم عليه ويهددون بالتدمير أو بالاستسلام . أما عن ترتيب الجيش المغولى فى الميدان فيقسمون قواتهم العسكرية إلى فرق وهى الوسط والجناحان الأيمن والأيسر ، وعند بدء القتال فإن هذه القوات تتحرك وتحيط بقوات العدو ، أما قوات الوسط فتتكون من فرقتين أمامية وثانية خلفية بمعنى مقدمة ومؤخرة ، أما الفرق الأمامية فتتسلح بدروع كاملة ويحملون السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها ، أما أسلحة الفرق الخلفية فهى خفيفة مثل القوس والنشاب وهى فرق سريعة الحركة يمكنها إنجاد الجانب الذى يتعرض للهزيمة فالقوات الأمامية ثقيلة تشبه سلاح الدبابات (الفرسان) والخلفية خفيفة تشبه فرق المشاة التى تتعقب العدو وتقوم بعمليات تطهير من وراء القوات الثقيلة .

معاملة المغول للأسرى :

كان المغول إذا ما فتحوا مدينة أو بلداً بالقوة فإنهم يقتلون أهله بدون تفرقة إلا أنهم كانوا يختارون أفضل الرجال وأقدرهم وأرباب الحرف والصناعات ويستفيدون منهم فى الأعمال الحربية المقبلة ومن عادة المغول أن يجمعوا كتائب من الأسرى ويضعونهم فى مقدمة الصفوف ، ثم تبقى القوات المغولية فى الخلف ، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة بالرغم عن إرادتهم وإكراهاً ، ويتعرضون

---

(١) Genghiz Khan P. 27

(٢) الدولة الخوارزمية ص ٢١٧ .

للقتل دون أن يجدوا طريقاً إلى الفرار ، لأن أعين المغول ساهرة عليهم ، فإذا ما أنهك الأسرى قوى أعدائهم يأتى المغول بعد ذلك فيقضون على عدوهم فى بساطة ، ويقول المؤرخ المعاصر ابن الأثير فى هذا الشأن : « وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرهاً ، وهم المساكين كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر ، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل فى المسلمين الأسرى وهم بنجوة منه » وكانوا يستخدمون الأسرى فى أعمال الحفر وتركيب أدوات الحصار والأعمال الشاقة .

الفصل الثانى

علاقة المماليك بالمغول حتى نهاية عهد السلطان قطز

موقف بلاد الشام من التتار :

كان من الطبيعى بعد سقوط بغداد فى يد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام وكان صاحب الشام فى ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف [1] وكان معادياً للمماليك فى مصر فلم يجد بداً من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك فى مصر فأرسل الناصر صلاح الدين يوسف ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من هولاكو مساعدة الملك الناصر ضد المماليك فى مصر ، الذين انتزعوا السلطنة من الأيوبيين ، ونرى أن الملك الناصر قد جانبه الصواب حينما استعان بأعداء الإسلام والمسلمين فى الوقت الذى يتحتم عليه أن يقف إلى جانب سلاطين المماليك لقتال هذا العدو وطرده عن البلاد الإسلامية ، أضف إلى هذا أنه وجد نفسه بين عدوين المماليك والمغول وكان من صالحه القضاء على إحدى القوتين أو إضعافهما ، فكلا القوتين كانتا تشكلان خطراً عليه حيث إن المغول كانوا فى طريقهم لتدمير بلاده والاستيلاء عليها ، وكذلك المماليك كانوا يطمعون أن يعيدوا حكم الشام إلى مصر ، ومن ثم نرى أن الناصر صلاح الدين أحب أن يكون على علاقة طيبة بهولاكو ولذا أراد أن يبدو فى صورة المستسلم للتتار حتى يصرفهم عن احتلال بلاده ، فبدأ بمراسلتهم ومفاوضتهم قبل أن يصلوا إليه .

ولقد كان فى هذا الاستنجاد فرصة سانحة لهولاكو فأسرع إلى انتهازها ،

---

(١) هو صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان ورث الحكم فى حلب عن أبيه عام ١٢٣٦ ميلادية وكان عمره ست سنوات يوم ذاك وأخذ دمشق عام ١٢٥٠ ميلادية . . السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٦ .Howorth, Part 3, p. 142

ومن ثم أمر بتوجه فرقة تتألف من عشرين ألف فارس لنجدة الملك الناصر صاحب الشام ، فلما علم من كان بدمشق من المماليك البحرية بما حدث ، غضبوا ورحلوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر أيضاً فاستجاب المغيث لطلبهم ، ولكن انتهى هذا الأمر بعودة المماليك البحرية إلى مصر وخاصة الظاهر بيبرس ودخلوا فى طاعة السلطان المظفر قطز ، فلما علم الملك المظفر قطز بمسير نجدة التتار إلى الناصر خشى المظفر من استفحال الأمر فبعث رسالة إلى الملك الناصر صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه ، وأضاف أنه — المظفر — ماهو إلا نائب للملك الناصر بمصر وأنه متى قدم الناصر إلى مصر أقعده قطز على كرسى السلطنة وكتب المظفر قطز فى رسالته إلى الملك الناصر يقول : « وإن اخترتنى خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره [1] » ، ولقد كان لخطاب المظفر قطز الذى وصل إلى الناصر أبلغ الأثر فى نفسه إذ بعث فى نفسه الطمأنينة والأمان ، وكذلك يظهر واضحاً إلى أى مدى كان قطز حريصاً على سلامة العالم الإسلامى ووحدته مضحياً فى سبيل ذلك بمصلحته وأطماعه الشخصية .

حدث هذا فى الوقت الذى عاد فيه الملك العزيز الذى كان رسولا من قبل والده إلى هولاكو لمفاوضته على مد يد العون ضد المماليك ، وكان يحمل رسالة من هولاكو جاء فى نصها : « الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز قال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة . فجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نمى ذكره ، وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تم أمر دنا نقصه ... توق زوالا إذا قيل تم

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٨ .

إذا كنت فى نعمة فارعها   فإن المعاصى تزيل النعم
وكم من فتى بات فى نعمة   فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين[١] ، تأمن شره وتنل خيره كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى .) ، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان[٢] سراى ، فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الثرى والماء ، ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت فى قبضتى الأمراء والوزراء » ويبدو من هذا الإنذار أن هولاكو لم يكن يريد نجدة الملك الناصر وإنما يريد احتلال بلاد الشام ، ولهذا فإنه ينذر ويتوعد ويأمر بالطاعة والاستسلام ولذا أصبح موقف الملك الناصر صلاح الدين يوسف حرجاً فهو لايقوى بمفرده على قتال التتار ونتيجة لهذا الإنذار شرع الناس فى دمشق فى الرحيل إلى مصر وسيّر الناصر حريمه إلى الكرك وكان قد أشيع أن هولاكو عبر نهر الفرات إلى الشام ، فأرسل الملك الناصر الصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر لطلب النجدة من الملك المظفر قطز .

سلطنة المظفر قطز وعزل الملك المنصور على :

تطورت الأحوال فى مصر فى هذه الظروف بسرعة وكانت البلاد فى تلك الآونة تحت حكم الملك المنصور على ابن المعز أيبك التركمانى ، وكان صغير السن ضعيف الشخصية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه سيف الدين قطز نائباً ، له مكانة كبرى وبلغ شأواً عظيماً وصار الشخصية البارزة فى البلاد ،

---

(١) روى زمين معناها ملك الملوك على وجه الأرض : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٦ حاشية ١ .

(٢) كروان سراى معناها محط الرجال أو فندق المسافرين غير أنه يوجد هذا اللفظ بمعنى مصر ويفهم من هذا أن مصر كانت تعرف فى بلاد التتار باسم كروان سراى وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب للعصور الوسطى: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٦ حاشية ٣ .Howorth Part 3, 143-145 .

نتيجة صغر سن السلطان الملك المنصور على من ناحية ولكثرة أنصاره وأتباع قطز من ناحية أخرى ثم حدثت ظروف الغزو المغولى للعراق ، وسقوط بغداد فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، ثم الإنذار المرسل من هولاكو إلى الملك الناصر صلاح الدين ، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام » هذا بالإضافة إلى وصول رسول الملك الناصر صاحب الشام بطلب النجدة من مصر ووصل الرسول إلى مصر فى حين كان قطز يريد الخروج للجهاد والذب عن المسلمين وقتال التتار ، فرأى أن ذلك لا يتسنى له والأحوال فى مصر على حالها حيث يحكم البلاد سلطان صغير لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو ومن ثم جمع قطز الأمراء والأعيان بالديار المصرية وذوى الرأى والمشورة كما حضر هذا الاجتماع كمال الدين بن العديم سفير الملك الناصر وأخبرهم قطز : أن الملك المنصور هذا صبى لا يحسن التدبير فى مثل هذا الوقت الصعب ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل فرد ويستطيع التصدى ضد التتار وينتصب للجهاد، فأجابه الجميع : ليس لها غيرك ومن ثم يتضح لنا أن قطز نجح فى إقناعهم وجمع صفهم والقضاء على روح الفرقة ، ثم قام بالقبض على الملك المنصور على وخلعه من السلطنة ، ثم بعد ذلك اعتقل بالدور السلطانية فى قلعة الجبل أما بالنسبة لقطز فقد بويع سلطاناً على البلاد ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز وبذلك استقر الأمر له وأقسم الناس يمين الإخلاص والولاء للسلطان الجديد . وكان ذلك يوم السبت السابع عشر من شهر ذى القعدة سنه ٦٥٧هـ / نوفمبر ١٢٥٩م ، فلما استتب الأمر للسلطان قطز شرع فى الاستعداد لقتال التتار ، وأجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته ، وعاد ابن العديم بذلك وسار معه برهان الدين الخضر حاملا جواب الملك المظفر قطز إلى الناصر ولقد واجهت المظفر قطز صعوبات قبل الخروج إلى الجهاد منها حاجته إلى الأموال اللازمة لإعداد الجيش ، ومنها موقف بعض الأمراء ومعارضتهم الخروج للقتال وقعودهم عن الجهاد .

أما المشكلة الأولى وهى قلة المال ، فإن قطز جمع الفقهاء والقضاة والأعوان لمشاورتهم فيمن يعتمد عليه فى مواجهة التتار وطلب منهم أن يفرض على

الناس ما يستعان به على جهاد العدو ، فلما قدموا إلى قلعة الجبل عند السلطان ، وكان من بينهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر الدين السنجارى قاضى الديار المصرية وغيرهما من العلماء والفقهاء ، تشاوروا فى موضوع الجهاد وجمع المال ، وكان الاعتماد على ما يقوله الشيخ عز الدين بن عبد السلام وخلاصة ما قال : « إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويستاواهم العامة ، أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا .

أما المشكلة الثانية وهى عدم رغبة بعض الأمراء فى الخروج إلى الجهاد ، فقد استطاع قطز بسياسته الحكيمة أن يجذبهم إلى الجهاد ، فخرجوا جميعاً لقتال التتار إذ اتبع قطز سياسة الإقناع والترغيب للأمراء حتى أطاعوه ونراه يناقش سياسة بلاده فى اجتماع عام يضم العلماء والفقهاء والأعيان وذوى الرأى والمشورة فى دولته ليأخذ برأيهم ويطلعهم على الأحوال الداخلية ، وخطورة الغزو المغولى مما كان له أكبر الأثر فى انتقال السلطة إليه وخلع الملك المنصور على ، هذا بالإضافة إلى مسايرته للناصر صلاح الدين صاحب الشام وعرضه عليه المساعدة وتوحيد الصف للوقوف فى وجه التتار .

زحف التتار نحو الشام :

فى أواخر عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، زحف هولاكو بجيشه من بغداد وقد انضمت إليه قوات صليبية من جيش هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وبوهمينوند السادس أمير أنطاكية المسيحية [١] وكان طبيعياً أن يتعاون الصليبيون مع التتار إذ كان المماليك يمثلون القوة الإسلامية المعادية للمغول والصليبيين ، ولهذا رأى الطرفان ضرورة التحالف والتعاون فيما بينهم للوقوف فى وجه المماليك . وسار هولاكو

---

(١) Howorth, Part 3, p. 159

بقواته إلى حلب وأمر بإقامة ثلاثة جسور على نهر الفرات أحدها عند ملطية [١] ، والثانى عند البيرة [٢] . والثالث عند قلعة الروم [٣] ، وعبرت القوات المغولية نهر الفرات بواسطة هذه الجسور [٤] ، وفى الطريق قصد هولاكو ديار بكر ونزل على آمد [٥] . وأرسل إلى الملك السعيد نجم الدين أيلغازى صاحب ماردين [٦] يستدعيه إليه، ولكن الأخير أرسل ولده والملك المظفر قرا أرسلان وقاضى القضاة مهذب الدين محمد بن مجلى والأمير سابق الدين بلبان ، ومعهم هدية ورسالة منه تتضمن الاعتذار عن الحضور لمرضه، فلم يقبل هولاكو ذلك العذر وعلل تأخره بخوفه من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، ومن ثم جهز الرسل عنده وفيهم ولد صاحب ماردين، وأعاد القاضى بمفرده ليخبر الملك السعيد بما قاله هولاكو، فندم الملك على إرسال ولده إلى هولاكو وأخذ فى الاستعداد لقتاله، وأرسل الملك الناصر يستحثه على الزحف إلى حلب ، وأخبره الملك السعيد أنه سيتقدم بقواته لينضم إليه لمواجهة العدو المشترك . ثم حاصر التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئاً فتركوها ، وساروا إلى ميافارقين [٧] ، وحاصروا أهلها « حتى أكلوا من عدم وجود الأقوات جلود النعال التى تلبس فى الرجلين » وتولى حصار المدينة يشموط بن هولاكو وكان صاحبها الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، ولقد صابر التتار واستمر على المقاومة سنتين حتى نفذت الأقوات وانتشر بين أهل ميافارقين الوباء والقتل مما يسر على التتار الاستيلاء على المدينة وقتلوا الملك الكامل ، وتبع ذلك استيلاؤهم على حران وبلاد الجزيرة ، ثم أمر هولاكو ولده

---

(١) مدينة شمال حلب من ناحية الشرق وهى قاعدة بلاد الثغور : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣١ .

(٢) قلعة شرقى نهر الفرات : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٣) قلعة حصينة غربى شط الفرات مقابل البيرة وتعرف باسم قلعة المسلمين : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١١٨ .

(٤) الحوادث الجامعة ص ٣٤٠ : وذكر أن هذه القناطر أربعة وهى ملطية والبيرة وقلعة الروم وقرقيسيا . Howorth, Part 3, p. 146.

(٥) وهى مدينة فى ديار بكر واقعة على نهر دجلة : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣٣.

(٦) وهى قلعة بديار ربيعة من الجزيرة الفراتية وهى معقل أمراء بنى حمدان : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٥ — ١٢٦ ، مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢١٩ .

(٧) وهى قاعدة ديار بكر واقعة بين الجزيرة الفراتية وبين أرمينية : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٠ .

يشموط بالزحف بمقدمة الجيش المغولى وعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشام بعد أن زوده بجيش كثير العدد فوصل إلى نهر الجوز[1] ووصل تل باشر[2]، ووصل الخبر بذلك إلى حلب من البيرة ، وكان يحكم حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف ، وجفل الناس من حلب إلى جهة دمشق ، واستعدت حلب بأسوارها المحكمة البناء ، فقصدها التتار فى العشر الأخيرة من ذى الحجة عام ٦٥٧هـ / نوفمبر ١٢٥٩م ، وأرسل هولاكو إنذاراً إلى صاحبها وجاء فيه : « إنكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه نحن إلى العسكر ، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين ، إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتموهما ، فلم يجب المعظم توران شاه إلى ذلك ، وعاد رسول هولاكو بالجواب إلى التتار فتقدمت الجيوش المغولية ونزلوا على قرية يقال لها سلمية[3] ، وامتدوا إلى جيلان وهى من قرى حلب وسارت فرقة من جيش التتار إلى مدينة حلب نفسها حتى إذا أشرفوا عليها خرج أهلها فى جمع كبير من العسكر والعامة ، فلما رأوا التتار وهم فى جمع كثير كروا راجعين إلى المدينة ، فقرر الملك المعظم توران شاه بعد ذلك ألا يخرج أحد من المدينة[4] .

وفى اليوم التالى تحركت قوات التتار إلى حلب فى حين اجتمع جيش المسلمين بحلب وتشاوروا فى الأمر وفيما يفعلون ، فأشار الملك المعظم عليهم بألا يخرجوا لقتال العدو لكثرة عدده وقوته ولعجز المسلمين عن لقائهم ، فلم يوافقه على ذلك جماعة من العسكر ، وأصروا على الخروج للقتال حتى لا يطمع العدو فيهم ، فخرجوا إلى ظاهر حلب ومعهم عامة الناس ، واجتمعوا على جبل بانقوسا بجوار حلب فتقدمت

---

(١) ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التى على الفرات وهى قرية من عمل البيرة مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٥٧ .

(٢) تل باشر قلعة حصينة واسعة فى شمال حلب بينها وبين حلب يوما : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماه بينها مسيرة يومين : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧٣١ .

(٤) Howorth, Part 3. p 147.

جموع التتار فى إثرهم ، فلما حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقية جيش المسلمين والعوام اندفعوا جميعاً إلى ناحية حلب والعدو يطاردهم فقتل من المسلمين عدد كبير ، ثم رحل التتار بعد ذلك إلى عزاز [١] ، فتسلموها بالأمان [٢] وبعد ذلك عاد التتار إلى حلب وحاصروها حتى استولوا عليها وكان ذلك فى التاسع من صفر ٦٥٨هـ / يناير ١٢٦٠م [٣] ، إلا أنهم بعد أن ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا ونهبوا وسبوا وأسروا النساء والذرية ، واستباحوا المدينة مدة خمسة أيام ، حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى والدماء قيل إنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان . ومن هذا يظهر جلياً مدى القسوة التى اتبعها المغول فى غزوهم لتلك البلاد أما بالنسبة للمعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين بن أيوب خان فخرج لقتال هولاكو إلا أنه مات بعد أيام قليلة ودام حصار التتار لقلعة حلب ثم سلمت بالأمان يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ / فبراير ١٢٦٠م [٤] .

دخول التتار دمشق :

وردت الأخبار إلى الملك الناصر يوسف بوقوع حلب فى يد التتار ولقد كان لذلك أسوأ الأثر على نفسه ، ومن ثم خرج هو وأصحابه إلى ناحية القبلة ، هذا فى الوقت الذى كان فيه رسل التتار بقرية حرستا [٥] ، ودخلوا دمشق ليلة الاثنين السابع عشر من صفر ٦٥٨هـ/فبراير ١٢٦٠م ، وهم يحملون فرماناً من هولاكو بتأمين المدينة وأهلها وما حولها ، وقرئ هذا المرسوم بعد صلاة الظهر ، ثم وصلت جموع

---

(١) هى بليدة فيها قلعة شمالى حلب بينها وبين حلب يوم : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٥ – ٧٦ المختصر ٣ ص ٢٠٠ تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) Howorth, Part 3, P. 147. وذكر أن التتار أخذوا حلب فى الخامس من صفر ٦٥٨ هـ وكانوا نصبوا عليها عشرين منجنيقاً ونقبوا الأسوار ودخلوها بالأمان : الحوادث الجامعة ص ٣٤٢ مرآة الجنان ج ٤ ص ١٤٨ .

(٤) تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٤ ، العبر ج ٥ ص ٣١٦ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ المختصر ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٥) قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٩٢ .

المغول بقيادة كتبغا إلى دمشق فى السابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٦٥٨هـ / مارس ١٢٦٠م ، وكان وجوه دمشق قد تشاوروا فى أمرهم، واتفقوا على ذهاب وفد من أعيان البلد للقاء التتار فخرجوا والتقوا بهم « وقرئ ما معهم من الفرمان المتضمن الأمان . وبينما هم فى طريقهم من جهة الغوطة مارين من وراء الضياع إلى جهة الكسوة [١] ، وهناك اجتمع نفر من المسلمين واشتبكوا معهم فأهلكهم التتار ، ثم وصل فى السادس والعشرين من ربيع الأول عام ٦٥٨هـ / مارس ١٢٦٠م ، منشور من هولاكو متضمناً تولية القاضى كمال الدين بن عمر بن بندار التفليسى قاضياً للقضاة ببلاد الشام والموصل وميافارقين وماردين والأكراد والأوقاف [٢]

أما بالنسبة لقلعة دمشق فقد قاومت بشدة ، فنصب التتار عليهم المجانيق ثم تسلموها بالأمان فى منتصف جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ / أبريل ١٢٦٠م ، ونهبوا ما فيها وخربوا سورها وأحرقوا آلاتها ثم هاجموا بعلبك وأخذوها وهدموا قلعتها ثم ساروا إلى الصبية فأخذوها بالأمان .

أما حماة ، فلما علم أهلها بسقوط حلب ، خرج أعيانها وسلموا مفاتيح المدينة إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم وولى على حماة رجلا أعجمياً يدعى خسرو شاه ، أما الملك الناصر يوسف فقد اضطر بت أحواله وعزم على لقاء هولاكو فجمع حوالى مائة ألف رجل ، وخيم عند برزة [٣] ، شمالى دمشق ثم أرسل إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطالب منهم العون لصد هجوم التتار ، إلا أن قوته ضعفت وانهارت وأصبح فى وضع لا يسمح بالوقوف أو الصمود فى انتظار المدد الذى قد يأتى من مصر أو من الكرك وأدرك قرب زوال ملكه واشتد الاضطراب بالشام نتيجة لاعتقادهم بأن التتار قوم لا يهزمون فلما أشار الأمير زين الدين الحافظى بمداراة التتار والدخول فى طاعة هولاكو ،

---

(١) الكسوة أول قرية تنزلها القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر ، النجوم ج ٧ ص ٧٦ حاشية ٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٦ ، ٧٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٩ ، الذيل ج ١ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ تراجم رجال القرنين ص ٢٠٤ . Babars, P. 39, Howorth Part 3, P. 149,

(٣) وهى قرية فى غوطة دمشق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٨٣ .

صاح به بيبرس البندقدارى وسبه وضربه وقال : « أنتم سبب هلاك المسلمين » .
وحاول بعض المماليك قتل الناصر صلاح الدين وتولية آخر يستطيع القيام بالجهاد ،
إلا أنه هرب ولجأ إلى القلعة بدمشق ثم سعى إليه الأكابر والأمراء وأشاروا عليه
بالخروج إلى المخيم فخرج وفى هذا الوقت الذى ترك فيه بيبرس دمشق وتخلى عن
الناصر وتقدم إلى غزة ثم إلى مصر ودخل فى طاعة الملك المظفر قطز ومعه جماعة
من المماليك البحرية الذى رحب بهم وأكرمهم ، وتألم الملك الناصر حينما لمس
تخاذل عساكره ، وخشى من كثرة التتار فسار نحو الديار المصرية ونزل العريش
ثم قطيا[1] ، وذلك بعد أن تفرق عنه جنده وسبقوه إلى مصر ومعهم الأثقال ،
إلا أن الملك الناصر لما وصل إلى قطيا تراجع وعاد خوفاً من الملك المظفر قطز
صاحب مصر ، ونزل بوادى موسى[1] . ثم نزل فى مكان يسمى بركة زيزاء
فأدركه التتار بها وهو فى نفر قليل من أصحابه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام
وبقى عندهم « فى ذل وهوان إلى أن قتل » ، وكان الناصر حينما مر بحلب وهو فى
طريقه ورأى ما حل بها من خراب وما لحق بها من هوان فأنشد قائلا :

يعز علينا أن نرى ربعكم يبلى   وكان آيات حسنكم تتلى

ثم وصل إلى هولاكو الذى أحسن استقباله ووعده برده إلى مملكته ، وأقام
الناصر وولده العزيز عند التتار على أمل أن يعيدهم هولاكو إلى ملكهم مرة أخرى ،
إلا أن هزيمة التتار وانكسارهم وقتل كتبغا فى موقعة عين جالوت تلك الهزيمة التى
قضت على كل أحلام هولاكو ودفعه إلى قتل الملك الناصر وأخيه ومن معه ولم ينج
من ذلك إلا ابنه وذلك فى ذى القعدة عام ٦٥٩هـ / أكتوبر ١٢٦٠م .

والخلاصة أن المغول استطاعوا أن يسيطروا على معظم بلاد الشام بعد أن ألحقوا
بها الخراب والتدمير والقتل والسلب والنهب ، ووصلت عساكر التتار فى غاراتها
إلى بيت جبريل والخليل وبركة زيناء والصلت ، فقتلوا خلقاً كثيراً وأخذوا
ما صادفوه فى طريقهم حتى وصلوا إلى غزة وهى باب مصر ، وفى هذه الظروف

---

(١) وهى قرية بين القنطرة والعريش فى صحراء سيناء : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١١١ .

(٢) نسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام وهو واد فى جنوب بيت المقدس مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤١٨ .

وبعد أن اطمأن هولاكو على فتحه بلاد الشام والسيطرة عليها قرر لظروف تتعلق بالملك العودة إلى عاصمة بلاده فى الشرق ، وبعد أن ولى النواب على المدن الشامية وترك القيادة لقائده كتبغا ومعه عشرة آلاف فارس من عساكر التتار ، ثم عاد هولاكو إلى الشرق . إذ علم بوفاة أخيه منكوخان ، الخان الأعظم على جميع التتار سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م وكان هولاكو يطمع فى أن يقع عليه اختيار المغول فيكون خاناً أعظم ، وكان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاى وكان والياً على بلاد الصين من قبل أخيه ، وقد خلف منكوخان على جميع بلاد التتار ، بعد أن تغلب على الخصوم والطامعين فى العرش من أبناء بيت جنكيز خان سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م[1] .

أما عن أحوال مصر الداخلية فى ذلك الحين فإن الملك المظفر قطز كما بينا استطاع أن يصل إلى السلطنة بموافقة الأمراء والأعيان فى البلاد وذلك لصغر سن السلطان المنصور على بن المعز أيبك ، بالإضافة إلى تلك الظروف الحاسمة التى كانت تمر بها البلاد والتى كانت تتطلب وجود شخصية قوية تتولى الجهاد ضد العدو ، الذى أصبحت جحافله على مقربة من الديار المصرية ، وهنا لم يكن أمام دولة المماليك الناشئة إلا أحد أمرين : إما الخروج للجهاد ودحر العدو ، وهذا لن يكون إلا إذا كان هناك قوة تستطيع الصمود أمام هذه الجحافل المدمرة وهذا لن يتأتى إلا إذا كان هناك وحدة فى الصف الداخلى أو الانتظار فى مصر والدفاع عنها إذا ما هاجمها التتار .

إنذار التتار للمماليك فى مصر :

وتتابعت الأحداث وأرسل هولاكو إلى مصر إنذاراً جاء فيه : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ، باسم اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ ، Babars, P. 39 & Howorth, Part 3, P. 151
وقد حكم قوبيلاى حتى سنة ٦٩٣هـ — ١٢٩٤م ، واستولى فى أثناء ذلك على البقية الباقية من بلاد الصين ونقل عاصمة التتار من قراقوروم الى (خان بالق) وهى (بكين) الحالية وأصبحت الصبغة الصينية تميز دولة قوبيلاى منذ ذلك الوقت من دون سائر دول التتار وعرفت الأسرة الحاكمة باسم ين.دناستى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ حاشية ٢ .

قطز الذى، هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه : بعد ذلك يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، إنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من : بكى ولا نرق لمن شكى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص : فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعائكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ولا تقفون عند كلام وخنتم العهود والأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المتعددة والأحكام المدبرة فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تعتزم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حوازاً وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام عليكم وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاوون قد أتى ... بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابر [1]

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ ، صبح الأعشى فى صنع الإنشاج ٨ ص ٦٣ - ٦٤ .

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الإنذار عقد اجتماعاً للأمراء وأعطاهم الرأى والمشورة فقال لهم : « لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ولم يكن لأى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نبى أخيه لحق مصر بالبلاد الأخرى، ومع هذا فقد ترك فى هذه النواحى كبتوبوفانوبان الذى هو كالأسد الهصور والتنين القوى فى الكمين وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته — فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة، » فقال الأمير ناصر الدين القيصرى : « إن هولاكوخان فضلا عن أنه حفيد جنكيزخان وابن تولوى وأخو منكوفا آن ، فإن شهرته وهيبته فى غنى عن الشرح والبيان وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن . وقد اختص بالتأييد السماوى ، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل ، إنه ليس بالإنسان الذى يطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس ، وهو لا يفى بعهده وميثاقه فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب أربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرنا إليه فيكون مصيرنا هذا السبيل » .

فقال قطز : « والحالة هذه فإن كافة البلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأرواح والأبقار والبذور ، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تامًّا كغيرها من البلاد ، وينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن ، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرًّا إلا المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة » ، فأجاب ناصر الدين القيصرى : « وليس هناك مصلحة أيضاً فى مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » وقال أيضاً بقية الأمراء: « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك

= الظاهر بيبرس حضارة مصر فى عصره ص ٤٨ — ٤٩ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٣ ،
Howor h, P. 165 & Babars, P. 39.

« عندئذ قال قطز إن الرأى عندى هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق . واتفق رأى الأمراء على القتال ثم اختلى قطز مع بيبرس البندقدارى الذى كان أميراً للأمراء وشاوره فى الأمر فقال بيبرس : « إنى أرى أن نقتل الرسل ونقصد كبتوبونتا متضامنين ، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتا الحالتين معذورين » .

وتم الاتفاق على قتل الرسل ، ثم خروج الجيش الإسلامى إلى الصالحية ثم شرع المظفر قطز فى الحصول على قسم الأمراء الذين اختارهم للمسير بالجيش للجهاد ، هذا فى حين كان الأمراء غير راضين عن الخروج للقتال إذ كان الاضطراب والخوف يملأ القلوب التى كانت قد « أيست من النصرة على التتار » .

ورأى معظم الأمراء الدفاع عن مصر — بينما أبدى البعض خوفهم من التتار ، وقالوا إنهم ما قصدوا بلداً إلا أخذوه ولم يبق خارجاً عن حكم التتار فى الجانب الشرقى إلا الديار المصرية والحجاز واليمن ، ونتيجة لضعف النفوس والمعنويات هرب بعض المغاربة من مصر إلى المغرب ، وهربت جماعة أخرى من الناس إلى اليمن والحجاز .

وفى هذه الظروف صمم الملك المظفر قطز على قتال العدو والخروج لمواجهته ، فأصدر الأوامر بجمع الجيش وحث الناس على الخروج للجهاد فى سبيل الله ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطالب الولاة « بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع » .

فلما اجتمع لدى المظفر قطز الجيش والأمراء ، سار بجيش مصر ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل قاصداً الصالحية وذلك فى يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان ٦٥٨ هـ / يولية ١٢٦٠ م[1] .

فلما وصل المظفر قطز إلى الصالحية طلب الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم فى المسير لقتال العدو ، فأبى بعضهم وامتنعوا عن الرحيل فقال لهم : « يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد

---

(١) جامع التواريخ ج ١ م ٢ ص ٣١١ — ٣١٣ .Howorh, Part 3, P. 166

يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » فتكلم الأمراء الذين اختارهم المظفر وحلفهم فى موافقته والخروج معه فلم يسع البقية المعارضة إلا الموافقة وانفض الجمع ، وكان الملك المظفر قطز لما تأكد من إجماع الآراء على قتال التتار أحضر الرسل الذين حملوا إليه كتاب هولاكو وكانوا أربعة : فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط آخر بظاهر زويلة ووسط الثالث بظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية وعلقت رؤوسهم جميعاً على باب زويلة ، وأبقى المظفر قطز على صبى من الرسل جعله من جملة مماليكه ، فلما استكمل قطز استعداداته ركب فى الليل « وحرك كوساته »[1] ، وقال : « أنا ألقى التتار بنفسى » فلما رأى الأمراء المعارضون للخروج ذلك الموقف الباسل من قطز وأتباعه انصاعوا له وساروا معه ، وسار الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بمقدمة الجيش للاستطلاع وكشف أخبار العدو حتى وصل إلى غزة ، وكانت مقدمة الجيش المغولى عند غزة بقيادة بيدار ، فلما رأى طليعة المسلمين أرسل إلى كتبغا فى بعلبك يخبره بتحركات المماليك ويطلب منه النجدة . فأرسل كتبغا إليه قائلا « قف مكانك وانتظر » إلا أن الظاهر بيبرس لم يمهله حتى تصل إليه النجدة ، فهاجمه وانكسر التتار وطاردهم حتى نهر العاصى وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين بهذا الانتصار ، ثم وصل السلطان المظفر بالجيش إلى غزة وأقام بها يوماً ثم سار بحذاء الساحل حيث توجد إمارات الصليبيين فلما سمعوا بقدومه خرجوا إليه، وقدموا إليه الهدايا وعرضوا عليه المسير معه ومساعدته فشكرهم وأخذ عليهم العهود والمواثيق « أن يكونوا لا له ولا عليه » وأقسم لهم « أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى بعسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار » ورافق الملك المظفر قطز إلى الشام صاحب حماة الملك المنصور وأخوه الأفضل » .

أما بالنسبة للتتار فإن هولاكوخان عاد إلى بلاد الشرق بسبب وفاة الخان الأعظم منكو خان فعاد هولاكو إلى قراقورم آملا اختياره خاناً أعظم على المغول وترك قيادة الجيش فى الشام للقائد كتبغا ، وكان كتبغا مقدم جيش التتار فى البقاع

---

(١) الكوسات وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويع ذلك طبول وشبابه وهى تدق فى أوقات خاصة : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ .

عندما علم بمسير السلطان المظفر قطز لقتاله ، فاستدعى إليه الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص وقاضى القضاة محيي الدين محمد بن يحيى المعروف بابن الزكى والملك السعيد صاحب الصبيت ابن العزيز بن العادل واستشارهم كتبغا فى الأمر ، فأشار بعضهم عليه بالانتظار حتى تصله إمدادات هولاكو ليقوى بها على لقاء المسلمين ، وأشار آخرون عليه بغير ذلك . واختلفت الآراء حتى استقر رأى كتبغا على القتال ، فجمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا فى بلاد الشام وزاد عددهم عن ثلاثين ألف مقاتل وقصد محاربة المسلمين ، وبصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ، وعرض كتبغا على الصليبيين فى إمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين ولكن قطز قطع عليه الطريق عندما عرج أثناء مسيره لقتال التتار على الصليبيين وهددهم وضمن حياد عكا الصليبية .

موقعة عين جالوت ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م :

كان المظفر قطز قد تقدم بقواته حتى وصل الغور الذى به عين جالوت تلك البلدة الصغيرة الواقعة بين بيسان ونابلس من أرض فلسطين ، وكان التتار قد اجتمعوا فى ذلك المكان ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ / أوائل سبتمبر ١٢٦٠ م ، فأمر السلطان المظفر بجمع الأمراء وقادة الجيش وحضهم على القتال ورغبهم فيه ، وذكرهم بما لحق الأقاليم الإسلامية التى اجتاحها المغول من القتل والسلب والنهب ، والدمار والحريق ، ودعاهم إلى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله دفاعاً عن المسلمين وحرماتهم ، وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم ، فتأثروا لقوله « فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم عن البلاد [1] » . ثم تقدم بيبرس البندقدارى بفرقة الكشافة لاستطلاع أخبار العدو ومناوشته حتى يصل السلطان ببقية الجيش ، ويبدو أن الهدف من تقدم بيبرس كان إيهام العدو بقلة عدد المسلمين ، ثم ليصل السلطان بالجيش الرئيسى فجأة فينهزم العدو ، وتقدم بيبرس حتى التقى بطلائع التتار ، وكتب إلى السلطان يخبره بذلك ، واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز عند عين جالوت

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

فاصطدمت طليعة المسلمين مع طليعة التتار ، واشتد القتال بينهما حتى انهزم العدو فى اللقاء الأول ، فلما حل يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ / هـ سبتمبر ١٢٦٠ م ، « التقى الجمعان وفى قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر [١] ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وكان الوادى قد امتلأ بالناس من سكان القرى والضياع المجاورة فكثر صياحهم ودعاؤهم بالنصر ، ودقت طبول الحرب واشتد أوار القتال بين الفريقين « وتقاتلا قتالا شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة » [٢] ، وانكسرت ميسرة المسلمين فالتف المظفر قطز بجماعته وأردف الميسرة » حتى تحابوا وتراجعوا » واشتد القتال والمظفر قطز يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ويكر بهم كرة بعد كرة ، ورأى المظفر ضعف جبهته فألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه : فاشتدت عزائم المسلمين وحملوا على العدو حملة صادقة فاشتد القتال مما حدا بكتبغا ليقاتل بنفسه ، وكان بيبرس قد نصب كميناً للتتر فى المنطقة وعند لقاء العدو بطليعة المسلمين انكسرت هذه الطليعة وانسحبت فتشجع المغول وتعقبوا المسلمين وقتلوا بعضهم ، ولكن عندما وصلوا إلى الكمين الذى كان أعده لهم بيبرس انقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسلت القوات الإسلامية فى قتال العدو ، وقاتلوهم قتالا مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار ، ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر [٣] ، وانهزم المغول شر هزيمة وولوا الأدبار وقتل مقدمهم كتبغا بيد الأمير جمال الدين آقوش الشمسى ، وقبض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الدين ابن الملك العادل ومثل بين يدى الملك المظفر قطز بعد انتهاء الجولة الأولى وانكسار التتار ، وكان الملك السعيد معتقلا بقلعة البيرة فلما ملكها التتار وأطلقوا سراحه وأعطوه بانباس وقلعة الصبيبة ، وقاتل المسلمين قتالا شديداً يوم المصاف فى عين جالوت فأمر قطز بضرب عنقه صبراً [٤] ، انسحب التتار بعد هزيمتهم الأولى إلى الجبل المجاور فتبعهم عسكر المسلمين وأحدقوا بهم فقتلوا معظمهم وأسر أهل البلاد بقيتهم حتى

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣١٤، Howorth, Part 3, P. 168_169.

(٤) الذيل ج ١ ص ٣٦١ .

أفنوهم قتلا وأسراً [١] ، تعقبت العساكر الإسلامية فلول العدو المنهزمة حتى قرب بيسان فانسحب التتار واحتشدوا من جديد « وتصافوا مصافاً أعظم من الأول [٢] » ، واشتد القتال بين الطرفين فصاح المظفر قطز « واإسلاماه : ثلاث مرات » « يالله » انصر عبدك قطز على التتار » فقويت عزائم المسلمين على عدوهم وقتل معظم قادة المغول ونزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب جواده ثانية ، واستمرت بعض الفرق الإسلامية تتبع المنهزمين من التتار حتى حمص فألقوا متاعهم ومعداتهم وأطلقوا الأسرى وتخطفهم المسلمون وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر ، وأقبلت جموع العساكر الإسلامية وقد امتلأت أيديهم بأسلاب وغنائم العدو ، وتتبع الأمير بيبرس البندقدارى فلول التتار حتى حدود الفرات [٣] ، أما الصبى الذى أبقاه السلطان من رسل التتار وأضافه إلى مماليكه وكان يوم عين جالوت حاضراً الواقعة ، وكان وراء السلطان وقت القتال ، فلما اشتد القتال بين الطرفين صوب هذا الصبى سهمه نحو السلطان فرآه من كان حوله فقبض عليه وقتل مكانه ، وهناك رواية أخرى تقول إنه رمى السلطان بسهم فأصاب فرسه وصرعه وترجل المظفر حتى جلبوا له فرساً آخر [٤] ، ثم وصلت الأخبار إلى دمشق بانهزام التتار ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، فهرب نواب التتار من دمشق وكان نائبها إيل سبان [٥] ، وتبعهم أصحابهم وكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام [٦] .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص: ١٢٢ و ٢٢١ ، الذيل ج ١ ص ٣٦١ ، تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٧ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٤ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٤٩ . The Mamouk Sult ans, P. 74.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ – ٤٣٤ ، جامع التواريخ م٢ ج ١ ص ٣١٦ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ ، المختصر ج ٣ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، الروض الزاهر ١٣ – ١٥ أخبار الأول ص ١٢٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ .

(٥) تراجم رجال القرنين ص ٢٠٧ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٢ ، الذيل ج ١ ص ٣٦١ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٧ .

ولقد كان لهذا النصر أبلغ الأثر على المسلمين مما حدا بالظاهر بيبرس عندما آلت إليه السلطنة إقامة نصب تذكارى تخليداً لذكرى انتصار المسلمين على التتار وسماه (مشهد النصر)[1] .

ثار موقعة عين جالوت فى دمشق :

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ هـ / سبتمبر، ١٢٦٠ م وصل السلطان المظفر قطز إلى طبرية، وكتب إلى أهالى دمشق أول كتاب منه يبشرهم بنصر الله وهزيمة العدو ، فسر الناس لذلك سروراً عظيماً وظهرت أمارات فرحهم التى اتضحت فى استقبالهم للمظفر قطز وانعكست آثار هزيمة التتار على النصارى وأهل الذمة فى الشام ، إذ كان النصارى قد استطالوا على المسلمين بدمشق واستصدروا فرماناً من هولاكو بمنحهم كثيراً من الامتيازات ، وساءت العلاقات بين المسلمين والنصارى فى دمشق نتيجة إيقاع المغول بين الفريقين ، واجتمع قضاة المدينة المسلمون والشهود والفقهاء فى القلعة وشكوا « هذا الحال إلى متسلمها إيل سبان فأهينوا وطردوا »[2] ، ومما تجدر الإشارة إليه أن قبيلة كتبغا مقدم جيش المغول فى الشام كانت قد اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون [3] ، مما أثر على الموقف إذ اعتز النصارى على المسلمين [4] وتعاون المغول مع الصليبيين فى بعض الأحيان لمحاربة المسلمين والإيقاع بهم ويصور لنا ما أصاب المسلمين من النصارى الذين حرضهم المغول ما رواه ابن الجزرى فى تاريخه عن والده إبراهيم بن أبى بكر الجزرى رحمه الله قال : « خرجت من جامع دمشق بعد صلاة الجمعة وهى ثانى جمعة مرت من شهر رمضان من تحت الساعات ودخلت فى الخضراء إلى نحو دكانى بسوق الرماحين فوجدت جميع دكاكين الخضراء فيها الخمور والنصارى فيها يبيعون الخمر على من عبر عليهم من المصلين وغيرهم »[5].

---

(١) الظاهر بيبرس ص ٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٣ ص٢١٩ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨١ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٨ ، The Mamluk Sultans, P. 745, Howorth, Part, 3, P. 150 & Babars, P. 41.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، حاشية ٥ The Mamluk Sultans, P. 745 .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ج ٧ص ٨٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) الذيل ج ص ١ ٣٦٣ — ٣٦٥ .

دخول المظفر قطز دمشق :

وفى صبيحة اليوم التاسع والعشرين من رمضان ٦٥٨ ﻫ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، وصل الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم السلطان المظفر قطز فنزل بدار السعادة « وأمن الناس ووطنهم » ثم وصل المظفر قطز فى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان ٦٥٨ ﻫ / سبتمبر ١٢٦٠ م ومعه العساكر إلى ظاهر دمشق وعسكر بهم حتى ثانى أيام شوال ثم دخل دمشق ونزل بالقلعة واستولى المظفر قطز على بلاد الشام من الفرات إلى مصر ماعدا الكرك الذى كان فى يد الملك المغيث ، ثم أخذ يرتب أمور الشام ويضع عليها النواب ، وأقطع الأمراء الإقطاعات واستناب الأمير علاء الدين سنجر الحلبى فى دمشق ومعه الأمير مجير الدين أبو الهنجاء بن عيسى أبو خشتر الأزكشى الكردى ، ثم أرسل الملك الأشرف موسى صاحب حمص ونائب هولاكو ببلاد الشام إلى المظفر قطز يطلب الأمان فأمنه ، ثم جعل علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائباً على حلب ، وأقر الملك المنصور على حماه وبارين والمعرة ، وأعطى سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، وجعل الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميراً على بلاد الساحل وغزة ، ثم أمر الملك المظفر بشنق حسين الكردى الطبردار لأنه دل على الملك الناصر يوسف كما بينا[١].

ثم أمر السلطان بأن يدفع النصارى مائة وخمسين ألف درهم فجمعوها وتسلمها الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر وسلمها للسلطان .

نتائج موقعة عين جالوت :

ولقد كان لهذه الموقعة الكبرى والحاسمة فى تاريخ الإسلام نتائج عديدة منها : أنها ثبتت دعائم دولة المماليك فى مصر أولا ثم فى الشام ثانياً وأصبح قطز « سيد سوريا[٢] » حيث زالت المعارضة ولم تستطع بقايا البيت الأيوبى فى بلاد الشام

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٣ تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٧ – ٢٠٩ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢١ ، المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٥ – ٢٠٧ ، العبر ج ٥ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ والروض الزاهر ص ١٥ ، Howorth, Part 3, P. 172.

(٢–٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٣ Howorth, Part 3, P. 172.

معارضته أو مقاومته ، وفى الوقت نفسه كانت نهاية الدولة الأيوبية ، هذا بالإضافة إلى أنها أنقذت بلاد الشام من الاحتلال المغولى وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم وسحق قوى العدو ومطاردة فلولهم ، كما قضت هذه الانتصارات على الاعتقاد السائد بأن التتار قوم لا يغلبون ، ومن نتائجها أيضاً أن أنقذت مصر بل المغرب الإسلامى كله من الوقوع تحت سيطرة المغول ، إذ لو حقق للمغول الانتصار فى موقعة عين جالوت لتابعوا زحفهم إلى مصر فيسهل عليهم امتلاكها بعد تحطيم القوة الرئيسية فى الشام ، هذا ولقد ثبت حكم المماليك فى مصر واعتبروا أنفسهم حماة الإسلام والمسلمين ، فارتفع شأنهم فى نظر الناس ، كما أن انتصارات المماليك أضعفت أمل الصليبيين فى التعاون مع المغول ضد القوة الإسلامية بسبب ظهور قوة دولة المماليك وانتصاراتهم التى انتهت بطرد الصليبيين من بلاد الشام نهائياً ، وإبعاد الخطر المغولى إلى حدود العراق ، بل حاول المماليك غزو العراق واستخلاصها من يد المغول ، وقال بعض الشعراء مادحاً المظفر قطز عند انتصار المسلمين على التتار فى عين جالوت :

هلك الكفر فى الشام جميعا ... واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الاروع ... سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم فاعتززنا ... بسمـــرة ببيضـــه
أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائمـــا مثل واجبات فروضه

وقال أبو شامة فى هذه المناسبة : « ومن العجائب أن التتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقال فى ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركى يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شىء آفة من جنسه

أما عن آثار هذه الموقعة بالنسبة للتتار فقد تحطمت قواتهم بعد هذه الهزيمة التى لم يقع لهم مثلها من قبل ، فانحطت معنوياتهم حتى إن بقية بلاد الشام ما إن سمع نوابها وما بها من عساكر التتار بهزيمة المغول فى عين جالوت حتى ولوا الأدبار لا يلوون على شىء ، وكان المظفر قطز قد أرسل إلى الملك الأشرف موسى صاحب حمص وإلى الملك السعيد صاحب الصبية بتسليمها إليه فأجابه الأشرف موسى

بأنه سيكون معه وينهزم يوم اللقاء في الميدان ، وأما السعيد بن العزيز فأساء الرد على رسوله وأوقع به ، ومن ثم قتل الملك السعيد صاحب الصبية لأنه اشترك مع التتار فى القتال ، ثم قتل كتبغا مقدم التتار وأرسلت رأسه إلى القاهرة ، وكان قد أسر ومثل أمام المظفر قطز فأمر بضرب عنقه وأسر أيضاً بنه مما أثار الألم والحزن فى نفس هولاكو.

وكان كتبغا يوم عين جالوت عرض عليه جماعة من اتباعه الهرب ولكنه أبى أن يستمع لهم وقال : « لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع العزاة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان » ، وظل يقاتل هذا بالرغم من انهزام المغول وتفرق جيش كتبغا عنه ومقتل معظم عساكره إلا أنه بقى صامداً فى الميدان ، فقد ظل يكافح ألف رجل إلى أن كبابه جواده فى نهاية الأمر فأسر « وكانت تجاور ميدان المعركة مزرعة كبيرة للقصب فهرب إليها كثير من عساكر التتار وفرسانهم فأمر المظفر جنوده بإشعال النار فيها وأحرقوهم جميعاً ، ثم أسر كتبغا وأحضر إلى السلطان مكبلا فقال المظفر قطز له : « أيها الرجل الناكث العهد .. ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة وهدمت البيوتات العريقة — بالأقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً فى الشوك « وعندما سمع كتبغا كلامه وهو مكبل اليدين انتفض وقال : « أيها الفخور المغتر لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قتلت على يدك فإنى أعلم أن ذلك من الله لا منك ، فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو خان نبأ وفاتى سوف يغلى بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر وستحمل رمال مصر فى مخالى خيولهم إلى هناك ، إن لهولاكو خان ثلثمائة ألف فارس مثل كتبغا فافرض أنه نقص واحد منهم فقال له قطز : « لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة مثل رستم داستان . فرد عليه كتبغا : « إننى كنت عبداً للملك ما حييت ، ولست مثلك ماكراً وغادراً وقاتلا لمولاه .. [1] ثم قال « بادر بالقضاء على بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك « فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده[2] ، وكان كتبغا وهو أمير عشرة آلاف جندى قد فتح بلاداً كثيرة وكان كلما دخل بلداً أخذ أهله وساقهم إلى

---

(١) يقصد بذلك ما فعله قطز بالملك المنصور على عندما خلعه من السلطنة واعتقله فى قلعة الجبل .

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣١٥ — ٣١٦ .

البلد الآخر الذى يليه ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤووا هؤلاء إليهم فإن فعلوا ذلك « حصل مقصوده فى تضييق الأطعمة والأشربة عليهم فتقصر مدة الحصار عليه[1] » أعنى أنه كان يستخدم الضغط الاقتصادى لإجبار البلدان على الاستسلام والخضوع لجبروته ، فإذا امتنع أهل البلد عن إيواء القادمين إليهم قاتلهم بهم ونتيجة ذلك إما أن يتم فتح المدينة دون إيراق دم مغولى فيها وإنما نتيجة تناحر الفريقين وبذلك تصبح المدينة الجديدة لقمة سائغة فى يد المغول ، إذ يقاتلهم بجنده بعد أن يكونوا ضعفوا وأرهقوا وأنهارت قواهم ببنى جنسهم ، وكان كتبغا يبعث إلى الحصن أو المدينة يقول لأهله : « إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم نسبى نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم فافتحوا صلحاً قبل أن تأخذكم قسراً » فإذا أجاب أهل المدينة بأن الماء بعينه ، فإذا ما دخل أحد المغول لرؤية الماء فإنه منهم أن يوسل من أن يرسل لمحن عنده من يرى الماء بعينه فإذا ما دخل أحد المغول لرؤية الماء فإنه يضع السم فيه بطريقة خفية ، فإذا شرب الناس منه ماتوا .

وهناك روايات تذكر أن كتبغا قتل فى المعركة ولم يمثل أسيراً أمام المظفر قطز ، وإنما وقع ابنه أسيراً ووجد كتبغا قتيلا بين القتلى فى ساحة المعركة ، ومن المرجح أنه قبض عليه ثم قتل بعد ذلك ، ولقد كان لمقتل كتبغا وهزيمة جيشه فى إثارة غضب هولاكو وأسف عليه أسفاً عظيماً ، « وقال حين علم بما دار بين كتبغا والمظفر قطز من حديث « أين أجد خادماً آخر مثله بيدى مثل هذه النوايا الطيبة ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه » .

أما بقية أمراء المغول الذين نجو فقد شملهم بعطفه وأعزهم وأكرمهم ، ولقد كان لرغبة هولاكو فى الثأر من هذه الهزيمة التى وقعت بجيوشه وأودت بحياة قائده العظيم كتبغا الدافع الأول لتفكيره فى العودة لغزو الشام ومصر إلا أن الظروف لم تكن مواتية بسبب وفاة منكوخان الأعظم وبسبب الخلاف الذى ظهر بين هولاكو وأقاربه ، ولهذا عدل عن فكرة غزو الشام ولو إلى حين » وقال أبو شامة مصوراً حالة التتار واضطرابهم عندما سمعوا بهزيمة جيشهم فى عين جالوت : « وجاءنا

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٦ .

الخبر بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطالب من المسلمين بأرض حمص ونحوها فسيبوا ما كان معهم من أسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا ما معهم حتى إنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم وعرجوا عن طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس وأسر جمع والطلب خلفهم ليستأصلوهم إن شاء الله » .

أما بالنسبة للملك الناصر صلاح الدين يوسف فإن هولاكو قبل علمه بما حدث لكتبغا وهزيمة جيشه فى عين جالوت ، كان قد أحاط الملك الناصر برعايته وفوض إليه حكومة دمشق وسيره إليها ومعه ثلثمائة فارس شامى ، ولكن بعد أن علم هولاكو بمقتل صهره كتبغا قال له رجل شامى : « إن الملك الناصر ليس مخلصاً لك ، وقد أراد أن يفر إلى الشام لإمداد قطز الذى هزم كبتوبوقا (كتبغا) بتدبيره « فأرسل هولاكو على الفور ثلثمائة فارس مغولى فى إثر الملك الناصر فقتلوه ، وكان ذلك يوم الأربعاء السابع عشر من صفر ٦٥٩ / يناير ١٢٦١ م .

مقتل المظفر قطز :

ذكرنا أن الملك المظفر قطز تقدم حتى وصل دمشق ورتب أمور بلاد الشام وأقر الولاة والنواب على البلاد ، وعادت بلاد الشام إلى حكم الإسلام ، وبالتالى دخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين « والملك المظفر قطز هو أول من ملك البلاد الشامية واستتاب بها من ملوك الترك ، وأعاد المظفر الطمأنينة للبلاد والعباد ، ثم شرع فى العودة إلى الديار المصرية وغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال ٦٥٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ م فى طريقه إلى مصر ، وكان قد عزم على السير إلى حلب ولكنه عدل عن ذلك لما بلغه من تنكر الأمير بيبرس البندقدارى وتغيره عليه لعدم حصوله على حلب ، فخاف السلطان قطز منه « وأضمر له السوء » ، وسار إلى مصر بدلاً من قصد حلب ، وعلم بيبرس بما فى نفس قطز نحوه فأخذ كل منهما حذره من الآخر والكل يريد هلاك الآخر ، ولما وصل المظفر إلى القصير ، ولم يبق بينه وبين الصالحية إلا مسافة قصيرة فتقدمت العساكر السلطانية إلى الصالحية وبقى المظفر فى جماعة قليلة من خواصه وأمرائه ثم خرج لصيد أرنب فى الصحراء فتبعه

الظاهر بيبرس وجماعة من أصحابه المتآمرين على قتله ، فقبض بيبرس على يد السلطان وحمل الأمراء على السلطان قطز ورموه عن فرسه وضربوه بسيوفهم ورشقوه بالسهام حتى قتلوه وتركوه فى العراء وكان ذلك فى السابع عشر من ذى القعدة عام ٦٥٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ م [١].

ثم عاد بيبرس وأصحابه إلى معسكر السلطان وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى المعسكر السلطانى بالصالحية فنزلوا ودخلوا وكان الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب واقفاً على باب الدهليز فأخبروه بما كان من أمر الساطان وقتله فقال المستعرب . . من قتله منكم؟ ، فقال بيبرس : أنا فقال : اجلس على مرتبة السلطان .

أما الشهيد قطز فإنه دفن فى القصير ثم نقل إلى القاهرة ويقال إن اسمه محمود ابن ممدود وإن أمه أخت السلطان جلال الدين الخوارزمى ، وإنما استرق عندما أنتصر التتار وباعوه فى دمشق ، ثم انتقل إلى القاهرة وبقى بها حتى تولى السلطنة [٢] .

أما عن الأسباب التى أدت إلى قتل المظفر قطز على هذا النحو قبل أن يصل إلى القاهرة التى أخذت زخرفها لاستقبال البطل المنتصر فى عين جالوت ، ويمكن تفسيرها كما ذكرت المصادر بأن الملك المظفر قطز كان وعد الأمير بيبرس بولاية حلب وأعمالها ، فلما انتصر قطز على التتار نقض عهده وولى علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مما أدى إلى إيجاد أسباب الوحشة بين المظفر قطز وبيبرس .

وقال ابن كثير: « فلم يف له لما رآه من المصلحة فوقعت الوحشة بسبب ذلك [٣] ويمكن تعليل ذلك أيضاً بأن بيبرس كانت له اليد الطولى فى الجهاد وأبلى بلاء حسناً يوم موقعة عين جالوت ، وطارد التتار حتى الفرات واستعاد حلب منهم ، كما انتصر

---

(١) المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ ، الروض الزاهر ص ١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية م ٤ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٢ – ٢٢٧ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٢ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٥ مرآة الجنان : ج ٤ ص ١٤٥ Howorth part 3 : 173

على بيدرا قائد التتار فى غزة فى اللقاء الأول .. ولعل هذه الأعمال الجليلة قد أثارت فى نفس بيبرس الطمع فى الاستيلاء على السلطنة ، وكان الشخصية الثانية بعد قطز ولم ينتظر حتى يصل قطز إلى القاهرة ليشهد الاحتفاء بقدومه ويفرح بثمرة انتصاره على التتار حتى لا ترتفع مكانته ولا تزداد سلطنته ثباتاً مما يؤثر على مستقبل بيبرس إذا ما حاول الثورة على قطز ولذلك عاجله قبل أن يثبت نفسه فى الحكم وقبل أن تزداد محبته فى القلوب ، فتآمر مع جماعة من أمراء المماليك كانوا يؤيدونه وربما كانوا السبب فى تشجيع بيبرس على قتل قطز ، ومن هؤلاء الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير بيدغان الركنى والأمير سيف الدين بهادر المعزى والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزى والأمير بدر الدين أنص الأصبهانى ، وعلم الدين صنغلى وسيف الدين بلبان الهارونى[1] . ويمكن القول أن المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس دبروا هذه المؤامرة لشىء كان فى نفوسهم منذ أن هربوا إلى الشام أيام المعز أيبك ، وقتل الأمير فارس الدين أقطاى ، وكان قطز هو الذى قتل فارس الدين أقطاى خشداشهم ، ولذلك فإنهم كانوا يتحينون الفرصة المواتية للوثوب على قطز وقتله ، ولما عادوا إلى مصر إبان الغزو المغولى قبل قطز معاونتهم له لأنه كان فى حاجة إليهم للدفاع عن الإسلام وأهله ، وأبلوا جميعاً يوم عين جالوت بلاء حسناً وخاصة بيبرس، فلما انتهت الموقعة وزال خطر العدوان المغولى لأنه من بلاد الشام «عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاى » ولعل ذلك كان من أهم الدوافع التى أودت بحياة الشهيد سيف الدين قطز بالإضافة إلى الأسباب الأخرى[2] وكان قبر قطز مزاراً للناس ، فلما علم بيبرس بذلك بعث من ينبشه وينقله إلى مكان آخر بحيث لا يعرفه أحد وعفى أثر قطز ولم يعف خبره .

ومن هذا يتضح لنا مدى الغيرة والحقد اللتين امتلأ بهما نفس بيبرس ضد قطز .

أما عن بيبرس وأصحابه فإنه بعد أن بايعه أصحابه والأمير أقطاى المستعرب الأتابك سار بالأمراء إلى القاهرة ودخل قلعة الجبل فى السابع عشر ذى القعدة ٦٥٨هـ/ أكتوبر ١٢٦٠م ، أى بعد قتل قطز بيوم واحد ، وكتب إلى النواب بالشام يعلمهم

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٥ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٦١ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٢٨٥ .

بسلطنته حتى يبايعوه[١] ، غير أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق رفض البيعة لبيبرس ، وأنكر عليه ما فعله ، ودعا الناس لنفسه وتسمى بالملك المجاهد ، إلا أنه استسلم وخطب للظاهر بيبرس فى دمشق يوم الجمعة السادس من ذى الحجة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م ، فدعى الخطيب للملك المجاهد أولاً ثم الظاهر ثانياً وضربت السكة باسميهما معاً ثم أسقط المجاهد نهائياً[٢] ، وكان ينتظر السلطان الظاهر أعمال جسام منها ما يتعلق بالأحوال الداخلية وأخرى تتعلق بالعلاقات الخارجية ، فقد كانت بلاد مصر محاطة بالأعداء من كل الجهات ففى الشمال يربض ملك أرمينية الصليبي ، وفى الغرب حيث توجد الإمارات الصليبية على طول ساحل الشام ، وفى الشرق كان المغول وتهديدهم للشام ومصر بالإضافة إلى النوبيين الذين لا يكفون عن إثارة القلاقل والاضطرابات ، أضف إلى ذلك توقع وصول حملات صليبية على بلاد الإسلام الشرقية من أوربا ، وكذلك الخوف من قيام أحد الأمراء الأيوبيين مطالباً بالعرش مدعياً أنه آخر أمراء الأيوبيين الشرعيين ، وقد ينجح لما للأيوبيين من احترام وتقدير عند المسلمين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي ، هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى تطمع فى العرش فبدأ الظاهر بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ليضفى على سلطنته الصفة الشرعية فيزداد ثباتاً فى الداخل ويقوى على أعدائه فى الخارج[٣].

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٦٢ ، تتمة المختصر ج ٢ ص ٢١٠ ، العبر ص ٥ ج ٣٨١ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٣ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ ، تراجم رجال القرنين ص ٢١٠ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية م ٤ ص ٣٦٤ .

الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والمغول

دولة السلطان الظاهر بيبرس :

ذكرنا أن بيبرس تآمر مع جماعة من المماليك البحرية على اغتيال السلطان المظفر قطز ، وأخذاً بثأر فارس الدين أقطاى أحد قادة وأمراء المماليك البحرية الذى كان قد قتله قطز [1] ، وجلس بيبرس على كرسى السلطنة وبايعه الأمراء ولقب نفسه بالملك الناصر ثم عاد وعدله إلى الملك الظاهر بإشارة من صاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم قال الأمير أقطاى الأتابك لبيبرس : « لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل » فركب وسار معه الأمير أقطاى وقلاوون الألفى والأمير بيسرى والأمير بليان والأمير ببليك ومماليكه ، ومن ثم توجه إلى قلعة الجبل فقابله الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر وكان قد خرج لاستقبال المظفر قطز فأخبره بيبرس بما حدث واضطر الحلى أمام هذا الأمر أن يقسم له يمين الولاء ، ومهد له الطريق حيث أقنع الأمراء بالولاء لبيبرس عن طريق الوعود البراقة « فلم يخالف منهم أحد » ودخل بيبرس والأمراء قلعة الجبل ليلا وكان ذلك فى ليلة الاثنين تاسع عشر ذى القعدة ٦٥٨ هـ/ أكتوبر ١٢٦٥م . ومن ثم يمكن القول أن مقتل قطز كان فى السادس عشر من ذى القعدة وبيعة بيبرس فى المعسكر السلطانى بالصالحية تمت فى السابع عشر ودخوله القلعة وجلوسه على كرسى السلطنة فى التاسع عشر من ذى القعدة .

فلما طلع النهار نادى المنادى فى الناس « ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم ركن الدين بيبرس » ثم أمر فى آخر النهار بالدعاء للملك الظاهر » « فغم الناس ذلك وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية وسوء مملكتهم وجورهم » وكان الناس قد خرجوا لاستقبال قطز الذى كان من مماليك المعز أيبك التركمانى ولم يكن من

المماليك البحرية أى مماليك الملك الصالح أيوب [١] .

وفى صبيحة يوم الاثنين عقد بيبرس مجلساً لأخذ البيعة ، فجلس بالإيوان بالقلعة حيث أقسم الجند على الطاعة والولاء واستتاب الأمراء فجعل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائباً واستقر الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكاً والأمير جمال الدين أقوش النجيبي الصالحى استادارا [٢] ، والأمير عز الدين بن ايبك الأفرم الصالحى أمير جاندار [٣] والأمير صبام الدين لاجين الدرفيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دواداريه [٤] ، والأمير بهاء الدين أمير آخور [٥] . والصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير وزيراً والأمير ركن الدين أباجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين [٦] ، ثم ركب الظاهر بيبرس بشعار السلطنة فى اليوم السابع من صفر ٦٥٩ هـ / يناير ١٢٦١ م ، وسار من قلعة الجبل بشعار السلطنة إلى خارج القاهرة ودخل من باب النصر إلى باب زويلة ثم عاد إلى قلعة الجبل ، ثم أمر الظاهر باستدعاء المماليك البحرية من الأطراف وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة ، وعامل بيبرس الأمراء والشعب معاملة حسنة وخفف عنهم الضرائب فاستجابوا له وطالت أيامه . ومع ذلك فإن نائب دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى « امتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس ، وجمع الأمراء الذين رتبهم قطز معه ليقسموا له على الطاعة » فأجابه بعض الأمراء ظاهراً ووافقه الباقون « وتلقب بالملك المجاهد ، وفى سادس ذى الحجة ٦٥٨هـ / نوفمبر ١٢٦٠م خطب على منابر دمشق للظاهر بيبرس أولا ثم

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٧ ، الذيل ج ١ ص ٣٧٢

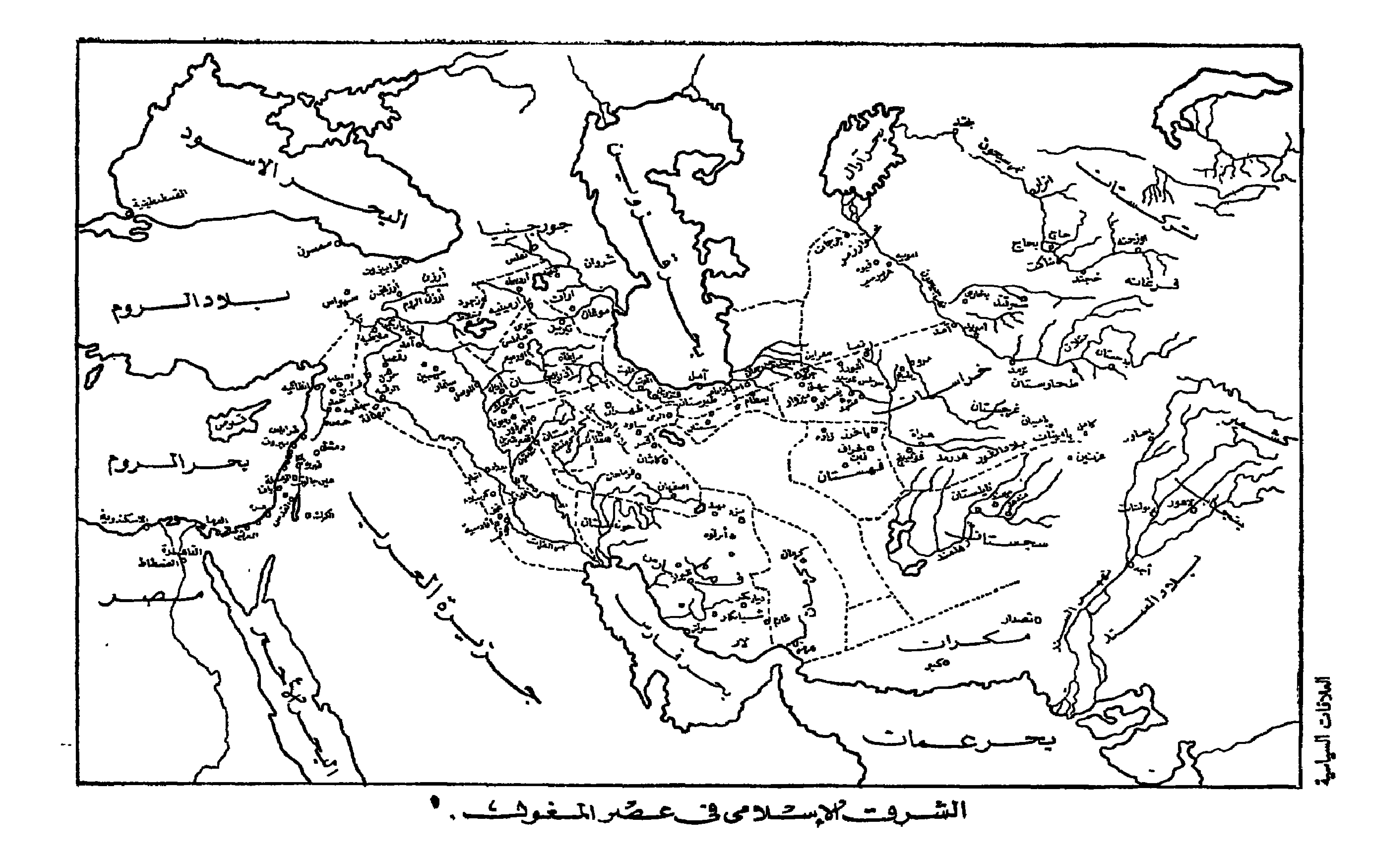
(٢) هو المشرف على المطابخ السلطانية ويشرف على الأطعمة والشراب وتنظيم الموائد صبح الأعشى : ج ٤ ص ٢٠ .

(٣) ويقوم صاحب هذه الوظيفة بإدخال الناس على السلطان وهو جالس بالأبواب بقلعة الجبل : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

(٤) ويقوم بتقديم كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية فى المناشير والتواقيع والكتب : الخطط ج ٣ ص ٣٦١ ، صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٩ .

(٥) وهو كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٨ .

(٦) الحاجب وينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك . صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٩ .



الشرق الإسلامي في عصر المغول.

للمجاهد ثانياً وضربت الدراهم باسميهما ، ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس عساكره بقيادة علاء الدين البندقدارى لقتال سنجر الحلبى بدمشق فهزموه ، وهرب إلى القلعة ثم تركها فى الليل ، وسار إلى بعلبك واتبعوه وقبضوا عليه وبعثوا به إلى الظاهر فاعتقله ثم أطلقه وأقطعه وأكرمه .

هجوم التتار على الشام :

لما علم التتار بقتل الملك المظفر قطز اعتقدوا أن فى هذا فرصة سانحة للأخذ بثأر الهزيمة الكبرى التى لحقت بهم فى عين جالوت ، حيث توقعوا قيام خلافات بين أمراء المماليك وبالتالى انقسام لوحدة الصف الإسلامى وضعفه ، ومن ثم تجمع التتار بقيادة بيدارا بالجزيرة وحران [1] ، ومن انضم إليهم بعد هزيمة عين جالوت من المنهزمين ، وكانت الأحوال الاقتصادية فى حران سيئة مما اضطرهم للإغارة على حلب ، فسارت القوات المغولية حتى وصلت البيره فطلب إليهم النجدة من الملك السعيد صاحب حلب ، وكانت البيرة مكشوفة إذ كان التتار قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها ، فأرسل الملك السعيد إليهم نجدة بقيادة الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصرى [2] ، إلا أن هذه النجدة كانت من القلعة بحيث لم تحقق الغرض المنشود الذى أرسلت من أجله ، مما أدى إلى اعتراض الأمراء على الملك السعيد . وقالوا له إن قلة الجند قد تكون سبباً فى الهزيمة وضياع مدينة حلب إذا ما انتصر التتار على هذه النجدة المجردة إلى البيرة من حلب ، فلما اقتربوا منها صادفوا التتار بجموعهم فاشتبك الطرفان ولكن سابق الدين لم يكن فى استطاعته خوض المعركة لقلة جنده كما أشرنا ، فسار إلى البيرة فطارده التتار وقتلوا معظم أصحابه . ووصل الخبر بذلك إلى حلب فاضربت المدينة وجفل الناس ، نحو الجنوب . وندم الملك السعيد لمخالفته الأمراء فيما أشاروا عليه ثم وصلت

---

(١) جزيرة ابن عمر وهى مدينة من الجزيرة غربى نهر دجلة وقيل إنها شمالى الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلال : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٢ ، بلدان الخلافة الشرقية ١٢٣ ، أما حران فيقال إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وبها حصن من حجارة حسن البناء وكانت مدينة الصابئين وهم على دين إبراهيم عليه السلام — بلدان الخلافة الشرقية ص ١٣٤ .

(٢) وظيفة يقوم صاحبها بحراسة السلطان فى مجلسه ويتحدث على الأطباء والكحالين ولا يكون إلا واحداً : صبح الأعشى ج٤ ص ١٨ .

رسالة من البيرة تذكر أن طائفة من العدو اتجهت نحو منبج [1] ، ويؤيدون ، مهاجمة حلب ، وكان الأمراء قد عزموا على القبض على الملك السعيد علاء الدين نائب حلب لفساده وظلمه ، فأجلوا الخلاص منه حتى ينجلي الموقف ويواجهوا التتار وحتى لا يطمع فيهم العدو إذا ما علم بخلافهم ، وأشار الأمراء على الملك السعيد بالخروج إلى التتر ، خارج حلب وأشاروا عليه بجمع الجيش والأعراب والتركمان والاستعداد للقاء العدو ، فأجابهم إلى ذلك وأرسل الأمير عصبة إلى منبج لكشف أخبار العدو إلا أنه وقع فى يدهم وقتلوه فلما علم الملك السعيد بذلك اشتد خوفه ثم قدم فى هذه الآونة الأمير بدر الدين ازدمر الدوادار العزيزى نائب اللاذقية وجبله ، من قبل المظفر قطز وأخبر خشداشيته بمقتل قطز وأشار عليهم بالقبض على السعيد وإقامة أحدهم ملكاً على حلب وبلادها ، فأجابوه إلى ذلك وتوجه الأمراء إلى الملك السعيد وقبضوا عليه بعد أن أمنوه على حياته بشرط أن يسلم كل الأموال ، وهى أكثر من أربعين ألف دينار ، ووزعت الأموال على الجند ثم أرسل الملك السعيد إلى الشغرويكاس [2] ، معتقلا وبقى بها إلى أن أفرج عنه [3] ، حدثت هذه التغيرات فى حلب فى الوقت نفسه الذى تقدمت فيه الجيوش المغولية إلى حلب فى يوم الخميس السادس والعشرين من ذى الحجة ، عام ٦٥٨هـ/ نوفمبر ١٢٦٠ م بقيادة بيدرا فانسحب الأمير حسام الدين الجوكندار [4] وأصحابه والعساكر إلى دمشق فتقدمت القوات المغولية ودخلوا حلب وأخرجوا من فيها من الخلق إلى قرية قرنيبا شرقى حلب ، وهذه كانت سياسة التتار فى غزو البلاد وأعملوا السيف فى بعضهم فأبادوهم وأطلقوا الباقين « فدخلوا حلب فى أسوأ حال » ، وبعد امتلاكهم حلب تقدمت قواتهم إلى حماة وكان نائبها الملك المنصور

---

(١) بلد قديم كبير واسع بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ - مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٣١٦ .

(٢) الشغر ويكاس قلعتان حصينتان قريبتان من النواحى الغربية من حلب والشغر قلعة صغيرة قريبة من كاس يعبر من إحديهما إلى الأخرى بجسر : مراصد الاطلاع ج ١ص ٢١٣ .

(٣) السلوك ج ١ق٢ص ٤٤٠ .

(٤) الجوكندار هو الرجل الذى يحمل الجوكان للسلطان اثناء لعبة الكرة وهو المحجن الذى ضرب به الكرة : السلوك ج ١ق٢ ص٤٣٥ حاشية ١ .

فنزلوا بمشارفها من ناحية الجنوب ، وكان الأمير حسام الدين الجوكندار وعساكره قد وصلوا إلى حماة منسحبين من حلب ، فلما أدركه التتار فى حماة سار ، الجوكندار والملك المنصور صاحب حماة إلى حمص ، ثم وصلت القوات المغولية إلى حماة فأغلقت أبوابها وقدم أهل حماة شيئاً من المؤمن والطعام إلى التتار مدارة لهم فتركوا المدينة وطاردوا الجيش الإسلامى المنسحب بقيادة الجوكندار والملك المنصور محمد ، هذا فى الوقت الذى هرب فيه بعض الناس خوفاً من ، التتار إلى دمشق .

موقعة حمص الأولى ٦٥٩ هـ – ١٢٦٠ م :

ذكرنا أن الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار مقدم عسكر حلب والملك المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل على والأمير مبارز الدين قد ساروا من حماة بعد أن علموا من اقتراب التتار منها و وصلوا جميعاً إلى حمص حيث اجتمعوا مع صاحبها الملك الأشرف ، هذا فى الوقت الذى عزم فيه عسكر حلب على المسير إلى دمشق ، وفى الوقت نفسه كان العدو قريباً من حمص ويتهددها ، فلام الملك الأشرف « الجوكندار» على تخاذله على القتال وقال له : « ما يقلل عنا فى البلاد وبأى وجبة نلتى صاحب مصر » وأخذ فى حثه هو وصاحب حماة على لقاء العدو ، وتقرر الوقوف فى وجه العدو وقتاله ، فوصلت كتائب التتار يوم الجمعة الخامس من المحرم ٦٥٩ هـ / ديسمبر ١٢٦٠ م ، والتقى الجمعان واشتد وطيس القتال عند مكان بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن ، وبرغم أن كفة العدو كانت الراجحة من حيث العُدد والعَدد إذ أن جند العدو كانوا حوالى ستة آلاف فارس ، فى الوقت الذى كان جند المسلمين نحو ألف وأربعمائة فارس ، إلا أن النصر كان حليف المسلمين « ورزقهم الله النصر عليهم » فبدد شمل عدوهم وحقق لهم النصر المبين ، ولقد كان لهذا النصر أبلغ الأثر فى نفوس المسلمين ، فتتبعوا فلول عدوهم حتى أفنوا معظمهم ، وفى هذه المناسبة يقول صاحب دولة الإسلام : فحمل المسلمون حملة صادقة ، فكان النصر ووضعوا السيف فى الكفرة حتى حصدوا أكثرهم ، وانهزم مقدمهم بيدرا بأسوأ حال ، والعجيب أنه ما قتل

من المسلمين سوى رجل واحد « وكان لهذا النصر أثر كبير فى رفع الروح المعنوية للمسلمين وقضت على فكرة أن المغول قوم لا ينهزمون ويظهر هذا واضحاً ، إذ أن أهل حماة لما علموا بهزيمة التتار عند حمص بدءوا فى عقاب جماعة من المنافقين فى المدينة ، كانوا يميلون إلى مد يد العون إلى التتار ، وأرادوا معاً معاونتهم وذلك عن طريق ثقب جزء من السور ليدخل منه التتار إلى المدينة، ثم وصل الملك المنصور إلى حماة فرجع التتار المنهزمون ونازلوا المدينة يوماً ولكن قوتهم كانت ضعفت وانهارت فتركوا المدينة وساروا إلى أفامية ، أما الملك المنصور وأخوه الأفضل فقد قررا المسير إلى دمشق ، ولكن العامة فى حماة منعوهما من ذلك حتى استوثقوا منهما بأنه يعود إليهم عن قرب فمكنوه من السفر ومعه جماعة قليلة من خواصه ومماليكه . وقال لهم إنه يريد أن يأخذ معه عسكراً ليكون له النصر بهم على التتار ، فسار وترك عندهم الطواشى شجاع الدين مرشداً والعسكر ، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق إلى الملك المجاهد علم الدين سنجر الذى زين دمشق ابتهاجاً بالانتصار على التتار فى حمص ، أما حسام الدين الجوكندار فإنه لم يدخل دمشق بل أخذ طريقه إلى مصر ولم يقبل الدخول ، فى طاعة الملك المجاهد ، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق فى دورهما ، ولم يدخلا فى طاعة الملك المجاهد لضعفه وعادا إلى بلادهما [1] ، أما بالنسبة للتتار فساروا عن حماة إلى أفامية ، وكان سيف الدين الديبلى الأشرفى قد وصل إلى أفامية وأقام فى قلعتها وأخذ يهاجم التتار حتى اضطرهم إلى ترك أفامية وساروا إلى حلب ، وحاصروها أربعة أشهر وأخرجوا من فيها من الرجال ، ثم بعث السلطان الظاهر جيشاً إلى حلب ليطرد التتار منها بقيادة الأمير فخر الدين الحمصى ، والأمير حسام الدين لاجين الجوكندار ، والأمير حسان الدين العينتابى ، فلما وصل هذا الجيش إلى غزة ، أرسل الفرنج يخبرون التتار يحذرونهم ، فرحلوا عن حلب بسرعة ودخل الجيش الإسلامى إلى حلب .

وقال الشيخ شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ يمدح ملك حماة بمناسبة موقعة حمص قائلا :

لك فى الندى وردى ذوى الأشراك   شيم تفوق بها على الأملاك

---

(١) العبر ج ٥ ص ٣٨١ .

لما شكادين الهدى اشتكيته   بشديد بأسك والسلاح الشاكى [1]
دعت المعالى يا أباها دعوة   لامت عليك فقلت لبى فالك

وزود السلطان الظاهر الخليفة بعشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد مقر، الخلافة العباسية وأنفق فى سبيل ذلك أكثر من مليون دينار[2]، ولكن أشار أحدهم على السلطان ألا يفعل ذلك وقال: « فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر فعدل الظاهر عن المشروع ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس وجرد السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير شمس الدين سنقر الرومى إلى حلب وأمرهما بالمسير إلى نهر الفرات وأمرهما أيضاً إذا وصل إليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه. ثم ودع السلطان الخليفة وسافر المستنصر بالله ومعه فرسانه ورجاله وذلك فى الثالث عشر من ذى القعدة ٦٥٩ هـ / أكتوبر ١٢٦١ م، وكان معه أولاد صاحب الموصل (أولاد الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ وهم الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد سيف الدين والملك السعيد علاء الدين[3]).

وكان أحدهم هو الذى أشار على الظاهر بعدم تزويد الخليفة بجيش كبير فساروا إلى بلادهم وتركوا الخليفة واستمال المستنصر بالله من مماليكهم نحو الستين مملوكا ووصل الخليفة إلى الرحبة بشاطىء الفرات، فوصل إليه الأمير يزيد ابن على بن حذيفة من آل فضل وأخاه الأخرس ومعه أربعمائة فارس من العرب ولحق بالخليفة من حماة الأمير عز الدين بن بركة ومعه ثلاثون فارساً، ثم تقدم الخليفة من الرحبة إلى مشهد على ثم إلى قائم عنقه بجانب الفرات ثم سار إلى عانه[4] حيث كان هناك أمير ادعى أنه من الأسرة العباسية فأرسل الخليفة المستنصر بالله إلى من كان مع الأمير من الفرسان التركمان واستمالهم إليه ففارقوا الأمير العباسى وقدموا على المستنصر فأرسل الخليفة إلى الأمير العباسى يستدعيه

---

(١) الذيل ج ٢ ص ١١٥.

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٣ – ٢٣٥، المختصر ٢ ص ٢١٣، تتمة المختصر ج ٢ ص ٢١٣ العبر ج ٥ ص ٢٨٢.

(٣) Howorth, part 3, p: 178.

(٤) بلدة مشهورة بين الرحبة وهيت وبها قلعة حصينة: مراصد الاطلاع ج ٢ = ص ٩١٢.

إليه وأمنه على نفسه ورغبه فى اجتماع الكلمة على إقامة الدولة والخلافة العباسية وتودد له فى الخطاب حتى أجاب ، وقدم إليه واحترمه وصار المستنصر بالله إلى عانة كما ذكرنا ، وكان الأمير العباسى الحاكم بأمر الله لما نزل على عانة رفض أهلها تسليمها إليه وقالوا :

« قد بايع الملك الظاهر خليفة وهو واصل فى نسلمها إلا إليه »

فلما وصل المستنصر بالله إليها نزل واليها وكريم الدين ناظرها وسلماها إليه فاقطعها للأمير اغليش أخ الأمير علم الدين سنجر الحلبى .

ثم سار إلى الحديث [1] وأرسل كتاباً إلى السلطان الظاهر يخبره بتحركاته وأحواله — ثم فتح أهل الحديثة المدينة للخليفة فدخلها وجعلها خاصة به ، ثم رحل عنها إلى هبت [2] ، علم فلما قرابغا مقدم جيش التتار بالعراق وبهادر على الخوارزمى شحنة بغداد بتحركات الخليفة ، خرج قرابغا بخمسة آلاف فارس [3] . وسار إلى الأنبار [4] فدخلها قرابغا بقواته بعد آن هاجمها فجأة وقتل جميع من فيها ثم لحق بقرابغا بهادر على بمن بقى فى بغداد من جيش المغول ، وكان المستنصر فى ذلك الوقت قد وصل إلى هيت وحاصرها لأن أهلها أغلقوا الأبواب دونه وبقى محاصراً لها حتى فتحها ودخلها فى التاسع والعشروين من ذى القعدة ٦٥٩هـ / أكتوبر [5] ١٢٦١ م ثم رحل عنها إلى الدور ثم سير مقدمة عسكره تجاه الأنبار — فلما رأى قرابغا مقدم التتار — مقدمة جيش الخليفة أمر من معه من العساكر بالعبور إليها فى المخائض والمراكب ليلا ،

---

(١) وهى على بعد خمسة وثلاثين ميلا أسفل من عانه وعرفت بحديثه النوره تمييزاً لها عن حديثه وجلة وفيها قلعة حصينة فى وسط الفرات والماء يحيط بها ، أنشئت فى أيام عمر بن الخطاب : بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٩ .

(٢) بلدة على الفرات فوق الأنبار غربى الفرات : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٦٨ .

(٣) Howorth, part 3, p : 178.

(٤) وهى من نواحى بغداد على شاطىء الفرات وقيل إنها تبعد عشرة فراسخ عن بغداد بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧ .

(٥) وهى سبعة مواضع من أرض العراق من نواحى بغداد: مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٣٩، ٥٥٠.

ولحقت الهزيمة بالخليفة ووقع معظم عساكره في نهر الفرات ثم خرج كمين من التتار فلما رآه العسكر التركماني والأعراب هربوا وانهزموا أحاط الكمين بعسكر المستنصر بالله واشتد القتال بين الطرفين واستبسل المسلمون ولكن لحقت بهم الهزيمة ، أما الخليفة فلم يعثر له على خبر فقيل إنه قتل في الواقعة وعفى ، وقيل إنه نجا بعد إصابته بجراح بالغة وحملته جماعة من العرب فمات عندهم ، وقيل سام وأضمرته البلاد وحضر في نصف رجب ٦٦٠ هـ / يونية ١٢٦٢ م جماعة من مماليك الخليفة كانوا تأخروا في بغداد بعد قتل الخليفة المعتصم فأحسن إليهم السلطان(١) .

عودة السلطان الظاهر إلى مصر :

رتب السلطان أمور الشام وأحضر الأمراء من الأعراب ومنحهم الإقطاعات وألزمهم بحفظ الطرقات والمسالك إلى حدود العراق ، وجعل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أميراً على جميع العربان وفوض نيابة دمشق إلى الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وجعل قضاء الشام للقاضى شمس الدين أبي العباس أحمد ابن محمد إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان فجعله قاضياً من بلاد العريش إلى الفرات ، ثم خرج السلطان من دمشق ومعه الأمراء والعساكر والقاضى نجم الدين ابن سنى الدولة وساروا إلى مصر(٢) .

وكان السلطان الظاهر قد جعل الأمير سنجر الحلبي نائباً على حلب بعد أن عفى عنه لثورته بدمشق إبان سلطنة الظاهر بيبرس وسير معه جماعة من الأمراء وحدد اختصاصاتهم(٣) ولكن سنجر الحلبي ترك نيابة حلب وسار إلى دمشق فاستولى الأمير شمس الدين أقوش البرلى على حلب بعد خروج الحلبي منها إلى دمشق وبعث بالطاعة للسلطان الظاهر إلا أن الأخير طلب من البرلى الحضور إليه أولا فلم يفعل وأعلى عصيانه ، وكان يؤيد البرلى المماليك العزيزية والناصرية فأرسل السلطان الظاهر

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٩ . Howorth p 3, p 176 — 179

(٢) السلوك ج ١ ق٢ ص ٤٦٥ والذيل ج ١ ص ٤٦٠ .

(٣) السلوك ج ١ ق٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

العساكر لقتال البرلى بقيادة سيف الدين الرشيدى والأمير سنقر الرومى فرحل البرلى عن حلب بعد أن أقام بها حوالى أربعة أشهر ، ثم سار إلى البيرة وأخذها وسار إلى حران وأقام بها « وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفاً من السلطان »[١] .

وولى السلطان على حلب بعد عودة الرشيدى وسنقر الرومى منها ولى عليها الأمير علاء الدين بندقدار وأقام بها حتى تركها لغلاء الأسعار وقلة الأقوات[٢] .

هجوم التتار على الموصل :

ولقد كان للاضطرابات التى تموج بها الموصل والانقسامات التى تعانيها فرصة سانحة للمغول لمحاولة الاستيلاء عليها ومن ثم سار صندغون بعشرة آلاف فارس[٣] ، من جيش التتار إلى الموصل وحاصرها ، ولقد كان السبب فى ذلك أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ سار إلى مصر قبل ذلك مما أغضب أهل الموصل والحاكم المغولى المقيم بالموصل ، وكان ممن خرج لوداع الملك الصالح وقتذاك أحد قادته واسمه علم الدين سنجر ، فلما رجع الأخير بعد وداعه للملك الصالح ، منعه حاكم التتار من دخول الموصل لأن البلاد كانت تحت سيطرة المغول — إلا أن علم الدين سنجر استطاع أن يدخل المدينة مع رجاله سراً ، فاضطر الحاكم المغولى أن يلجأ إلى القلعة بالمدينة هذا فى الوقت الذى قام فيه علاء الدين سنجر بالتنكيل بالمسيحيين وهدم كنائسهم ، ، هذا فى الوقت الذى كان الملك الصالح غائباً عن البلاد فى مصر ووردت الأخبار أنه فى طريق العودة ، فما علم التتار بعودته إلى بلاده حتى رفعوا الحصار عن الموصل ، واختفوا فى مكان مجاور حتى دخل الملك الصالح إسماعيل الموصل فأعاد المغول الحصار للمدينة من جديد وحصروا بها الصالح إسماعيل ونصبوا عليها ثلاثين منجنيقاً ترمى ليلا ونهاراً[٤] ، وبدأ القتال من الداخل والخارج « فضايقوها أشد مضايقة ولم

---

(١) السلوك ج١ ق ٢ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق٢ ص ٤٦٣ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٤ .

(٣) Howorth part, 3, p, 181.

(٤) من حوادث الجامعة ص ٣٤٦ وذكر أن عدد المجانيق خمسة وعشرون :
Howorth, part B, p : 181.

يكن فيها سلاح يقاتلون به ولا قوت يمسك رمق من فيها [١] » فاستنجد الملك الصالح بالأمير شمس الدين أقوش البرلى فى حلب فى الوقت الذى سير فيه أخويه إلى الملك الظاهر بيبرس ليسألاه نجدة أخيهما واستجاب الظاهر لمطلبهم فسير جيشاً من مصر بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومى ، وكان ذلك فى رابع جمادى الأولى ٦٦٠ هـ/ مارس ١٢٦٢ م ، وفى الوقت نفسه كتب الظاهر لصاحب دمشق ، بخروج جيشها لنجدة الصالح بقيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس [٢] ، كذلك خرج شمس الدين البرلى متملك حلب على رأس قواته لإنجاد الملك الصالح إسماعيل حتى وصل إلى سنجار ، فلما علم التتار بقرب وصول النجدات للملك الصالح عزموا على ترك الحصار والهرب لولا وصول الزين الحافظى موفداً من هولاكو وتشجيعه لهم على استمرار الحصار وعرفهم أن عساكر البرلى قليلة وقال ، للتتار « والمصلحة أن تلاقوهم لئلا توصفوا بالعجز فيطمع فيكم » ، فسار صندغون ومعه العساكر لمقاتلة البرلى وقصد سنجار حيث يوجد البرلى « ومعه سبعمائة فارس غزاً وأربعمائة من التركمان ومائة من العرب ، فالتقى الجمعان يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة ٦٦٠ هـ/ مايو ١٢٦٢ م فانهزم البرلى وقتل معظم أصحابه ونجا البرلى فى جماعة يسيرة من أصحابه من المماليك العزيزية والناصرية ، فوصلوا إلى البيرة حيث فارقه أكثرهم وساروا إلى مصر ، وما إن دخل البرلى البيرة حتى وصلت إليه رسل هولاكو ومن بينهم ابن خال شمس الدين البرلى وزين الدين فزاجا الناصرى الجدار وكان آخذاً سيراً من حلب — وطلبوا من البرلى المسير إلى هولاكو ولكنه لم يفعل بل طلب الإذن من السلطان الظاهر بدخول الشام فأذن له وسار من البيرة فى التاسع عشر من رمضان ٦٦٠ هـ / أغسطس ١٢٦٢م ودخل مصر فى أول ذى القعدة ٦٦٠هـ / سبتمبر ١٢٦٢م فأنعم عليه الظاهر بيبرس وأكرمه بالمال والخلع .

أما عن صندغون بعد انتصاره على البرلى فعاد إلى الموصل ومعه الأسرى ، فأدخلهم من النقوب إلى داخل المدينة ليخبروا الملك الصالح بهزيمة البرلى الذى

(١) الذيل ج ١ ص ٤٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٨ .

فأرسل قائد التتار صندغون إلى الملك الصالح بعده ، بالوعود الحسنة فاستجاب لذلك « وبطل القتال وقعدوا قعوداً ، إلا أن صندغون نكث بوعوده ، وهى عادة جاء لنجدته ، فى الوقت نفسه شدد الحصار على المدينة حتى قلت الأقوات بها التتار فبعد أن فتحت أبواب المدينة فى السادس والعشرين من شعبان ٦٦٠ هـ / يوليو ١٢٦٢ م . أى بعد تسعة أشهر[١] من الحصار دخل التتار المدينة وسبوا ونهبوا أهلها واستباحوا المدينة أكثر من أسبوع[٢] .

وفى أواخر شوال عام ٦٦٠ هـ / سبتمبر ١٢٦٢ م عاد المغول إلى بلادهم ، وصحبتهم الملك الصالح الذى قتل فى الطريق قبل أن يصل إلى هولاكو كما ذكر المقريزى فى كتابه .

علاقة السلطان الظاهر مع بركة خان :

وكان إسلام بركة خان ملك المغول الذين يعيشون حول نهر الفولجا والذين عرفوا باسم مغول العراق أو القبيلة الذهبية ، ووقوع العداوة والحرب بين بركة وبين هولاكو — فرصة مناسبة للظاهر بيبرس رأى استغلالها لأجل مصلحة البلاد ومن ثم دارت مكاتبات بينه وبين بركة خان حول إقامة تحالف فيما بينهما . فيضعف قوة المغول ويزداد قوة بمحالفته للملك بركة خان ملك مغول القبيلة الذهبية . أما عن أسباب الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولاكو فكثيرة منها اعتناق بركة خان للإسلام منذ حداثته ، أما هولاكوا فبقى على دين التتار ، وقد استاء هولاكو من تدخل بركة خان وتحكمه فى شئون الملك ، وكان هولاكو يكن فى قلبه حقداً وكراهية شديدة لبركة خان ، ولكنه أظهر ذلك العداء فجأة وقال هولاكو معبراً عن ذلك : « ولو أنه — بركة — كبير الأسرة وسيدها إلا أنه لا يرعى الحياء والخجل ويخاطبنى بتهديد وعنف وإنى لن أحابيه بعد هذا »[٣] . فلما علم بركة خان بغضب هولاكو قال هو الآخر : إنه قد دمر جميع مدن المسلمين

---

(١) ذكر أن مدة الحصار اثنا عشر شهراً : الحوادث الجامعة ص ٣٤٥ وذكر أيضاً أنها ستة أشهر . Howorth, part 3, p : 181.

(٢) دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٨ ، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٢ . (٤) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٢ .

وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ولم يميز بين الصديق والعدو وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة ، فلو أمدنى الله تعالى لطالبته بدماء الأبرياء » ، وجرى بين الطرفين قتال شديد.[1] يضاف إلى ما تقدم سبب جوهرى هو مطالبة بركة خان بنصيبيه مما نفحه هولاكو من البلاد وأخذه من الأموال وذلك على ما جرت عليه عادة ملوك التتار ، إلا أن هولاكو قتل رسل بركة خان فاشتد غضب الملك بركة خان فكاتب السلطان الظاهر بيبرس « ليتفقا على هولاكو [2]» ، ومن العوامل التى وسعت هوة الخلاف بين بركة خان وهولاكو ، أن بركة لم يرض بما فعله هولاكو ببلاد المسلمين وعنفه لقتل الخليفة المستعصم ، ومنها أيضاً أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يعجب بركة خان ولا سيما بعد إدماج بلاد أران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوشى والد بركة خان حسب وصيته جنكيزخان ، ولعل من أسباب نشأة العداوة بينهما أيضاً ما قاله ابن أبى الفضائل : إن عدم مظاهرة بركة خان للخان الأعظم قوبيلاى وانتصاره لأخ صغير اسمه أريقابوقا ، واعترف بركة بهذا الأخ الصغير خاناً أعظم على جميع بلاد التتار ، مما أغضب قوبيلاى وهولاكو ويضيف ابن أبى الفضائل سبباً آخر للعداوة بينهما هو أن هولاكو كان منذ أن أصبح بركة خان ملكاً على مغول القفجاق (القبشاق) قد منع من ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحروب فقد ورد من عند بركة خان رسولان إلى هولاكو وذلك فى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م أحدهما يسمى بلاغيا ولآخر ططر شاه ومعها رسالة ضمنها ما جرت به العادة من إعطاء بيت باتوخان نصيبهم من فتوح البلاد وغنائم الحرب ، وكانت العادة أن يجمع التتار الغنائم التى يملكونها فى البلاد المفتوحة ابتداء من نهر جيحون فى الشرق إلى ما تصل إليه فتوحاتهم ناحية الغرب ، فكانت تقسم خمسة أقسام قسمان للقان الأكبر ، وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتوخان الذى يعتبر بركة خان وريثه ، فلما مات باتوخان وجلس بركة خان على تخت مغول الشال (القفجاق) منع هولاكو نصيبه ، ثم وقع الصدام المسلح بينهما ودارت معارك دامية بين جيوشهم ، والسبب

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٢٣ - ٣٣٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٤ .

فى ذلك أن الملك التتار منكوقا أن ترفى فخلفه فى الملك أخوه الأصغر أريقابوقا ، وكان الأخ قوبيلاى غائبا بالهند فأنف من ذلك وجمع عساكره وسار إلى أخيه وتقاتلا فمد بركة خان يد العون للأخ الأصغر كما أشرنا . وكسروا عسكر قوبيلاى وكان ذلك فى عام ٦٥٨هـ ١٢٦٠م ، واستمرت المعارك بينهما لمدة طويلة ، وكانت تلك الحروب سبباً فى عودة هولاكو خان إلى الشرق وترك قيادة الجيش المغولى للمقدم كتبغا ، وكان قصد هولاكو من ذلك تأييد قوبيلاى ضد بركة خان وأريقابوقا ، ومما لا شك فيه أن هولاكو كانت تحدوه أطماع كبيرة وهى الاستيلاء على كرسى العرش المغولى ، ومن ثم جمع قواته وسار لمحاربة بركة خان والتقى الفريقان فى ناحية شروان ، فقتل من الفريقين خلق عظيم وانكسر هولاكو هرب إلى قلعة تلا [1] فى وسط بحيرة أذ ربيجان فدخلها وقطع الطريق إليها فبقى « كالمحبوس وقتل ابن هولاكو فى هذه الحرب ، وكان لاختلاف التتار ظاهرتان أولاهما التنافس الشديد بين مغول القبيلة الذهبية — القفجاق — ومغول فارس وثانيهما تهديد مغول المسلمين فى الشام ومصر بعد أن أخذوا العراق ، وكان من نتائج هذا التنافس بين دولتى المغول أن تقارب مغول القفجاق مع سلاطين المماليك فى مصر والشام للوقوف فى وجه العدو المشترك — مغول فارس — وكان من ثمار هذه الحرب أن اضطربت بلاد التتار وأحوالهم ، وانشغلوا بأنفسهم وهرب كثير منهم إلى بلاد الإسلام مستأمنين ، وكانت قد خرجت الكشافة الإسلامية لاستطلاع أخبار العدو ، فعثروا على جماعة من المستأمنين ، فلما علم الظاهر بهم كتب إلى النواب ببلاد الشام بإكرام الوافدين والإحسان إليهم وتقديم المساعدات لهم وكل ما يحتاجون إليه » وسيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه وساروا إلى مصر فخرج الظاهر لاستقبالهم فى السادس والعشرين من ذى الحجة ٦٦٠هـ نوفمبر ١٢٦٢م ولم يتأخر أحد من مشاهدتهم فتلفهم وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق ، وأكرم وفادتهم وقدم إليهم الخيول والأموال والخلع وأمر السلطان أكابرهم ونزل باقيهم فى جملة المماليك البحرية » وكانوا مائتى فارس بأهاليهم فحسنت حالهم ودخلوا فى الإسلام ويصف المقريزى حال هؤلاء التتار فى مصر واهتمام السلطان بهم قائلا : « فأعطى

---

(١) وهى بحيرة أرمية وفيها قلعة حصينة على جبل وبها مدافن هولاكو وغيره من أمراء المغول ، بلدان الخلافة الشرقية : ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

السلطان كبراءهم أمريات فمنهم من عمله أمير مائة ونهمدون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وقدم عليه منهم جماعة وهو يقاسهلم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله وفى سادس من ذى الحجة سنة ٦٦١ هـ / أكتوبر ١٢٦٣ م قدم من التتار زيادة على ألف وثلثمائة فارس فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم وجهز السلطان الظاهر وفداً إلى بركة خان بضم الفقيه مجد الدين الزوراوى والأمير سيف الدين كش تلك ، ومعهما من التتار كانوا وصلوا من بلاد بركة خان وكتب معهما رسالة إلى بركة خان تتضمن أحوال الإسلام ومبايعة الخليفة العباسى بالقاهرة وإحياء الخلافة ثم استمالة بركة خان وحثه على الجهاد ثم وصفاً لعساكر المسلمين وكثرة عددهم وتعدد أجناسهم وما فيها من عشائر وتركمان وأكراد ومن وافقها وهاداها وأنها كلها سامعة مطيعة لإشارته إلى غير ذلك من الإغراء بقتال هولاكو والتقليل من شأنه ومكانته وتقبيح فعله فى بلاد المسلمين ، وجهز الظاهر معهما نسخة الخليفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « وأذهبت وكتب فيها الأسجال بثبوتها » ، ثم جمع الظاهر الأمراء ورجال دولته وقرئت عليهم الكتب المرسلة إلى بركة ثم سلمت للرسل وسير معهما اثنان من التتار أصحاب الملك بركة ليعرفاهما على الطريق ، وتوجهوا إلى بلاد بركة فى المحرم « ٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢م ، فساروا بالبحر من بلاد بيزنطة فقام بخدمتهم صاحب البلاد وحدث أن صادف وصول رسل بركة خان إلى إمبراطور بيزنطة وهم الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين على ، فسار رسل الظاهر مع هؤلاء الرسل إلى بلاد بركة خان وعاد الفقيه مجد الدين لمرض أصابه ومعه كتاب من إمبراطور بيزنطة يتضمن مسير الأمير سيف الدين وأصحابه إلى بلاد بركة خان .

اضطراب بلاد الشام :

أشرنا إلى أن المغول هاجموا الموصل وحاصروها تسعة أشهر وفتحوها بخدعة عسكرية ثم قتلوا أهل المدينة بعد أن استباحوها أسبوعاً كاملا ، وقتلوا صاحبها الملك

الصالح إسماعيل وولده ، هذا بالإضافة إلى تحركات القوات المغولية فى الشرق ومسيرها من مكان لآخر ، مما أدى إلى اضطراب بلاد الشام لكثرة ما سمع الناس عن التتار وتحركاتهم ، لوصل الكثير من الوافدين منهم إلى ديار الإسلام ، لعل هذه الأحداث هى سبب اضطراب بلاد الشام وتوقع الناس لوصول العدو فعم الخوف والقلق البلاد فكتب السلطان الظاهر بأمر أهل الشام بالرحيل إلى مصر مع إعفائهم من الضرائب والزكاة وأمر ألا يتعرض لما معهم من متاجر ومتاع وذلك حفظاً على الأمن وحياة الناس ، ثم أرسل الظاهر إلى حلب يأمر بحرق الأعشاب فى جهة الشرق وحلب التى سيهاجمها العدو ، فسارت جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقوا الأعشاب التى كانت بالمروج « فعمت النار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها رماداً » ، ثم امتد الحريق حتى وصل إلى بلاد خلاط ، وقطعت السنابل قبل نضوجها لئلا يستفيد منها العدو ، وهذه خطة عسكرية يقصد بها إضعاف العدو وعدم إتاحة الفرصة له بالتزود بالأغذية والأعلاف من بلاد الإسلام ، وما إن انتصف شهر رمضان ٦٦٠ هـ / أغسطس ١٢٦٢ م ، حتى اضطربت دمشق خوفاً من التتار وشرع الناس فى الرحيل إلى مصر « وباع الأمراء حواصلهم حتى حواصل القلعة وتهيئوا للهرب » وارتفعت أجور دواب الانتقال » وكان البدوى يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشترى به الغلة الرخيصة ، لأن الناس بين خائف يبيع حاصلة ليتجهز به » ، هذا فى حين أن الحاج علاء الدين طيبرس نائب دمشق قد ألزم أهل دمشق بالرحيل إلى مصر وأمر أكابر البلد بترحيل عائلاتهم وأولادهم وأنفسهم إلى مصر ، ولكن ما لبثت بلاد الشام أن هدأت وزال خوف الناس حيث وردت الأخبار بوقوع الخلاف بين المغول أنفسهم وهزيمة هولاكو فى حربه مع ابن عمه بركة خان فهدأت الأحوال ووصلت إلى الشام فرقة من الجيش المصرى بقيادة الأمير عز الدين الدمياطى ، فاطمأنت النفوس ، وألقى القبض على علاء الدين طيبرس نائب دمشق لإيذائه للناس وإكراههم على الرحيل من دمشق إلى مصر .

اتفاق السلطان الظاهر مع صاحب بلاد الروم :

قدم الأمير شرف الدين الجاكى والشريف عماد الدين الهاشمى من بلاد الروم ومعهم رسل سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، أما الرسل فهم الأمير

ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الأخلاطي ويحملون كتاباً منه إلى السلطان الظاهر متضمناً أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان وسير دروجا[1] ، بما يقطع فى البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمره « وطلب من السلطان الظاهر أن يكتب له منشوراً فأكرم الظاهر هؤلاء الرسل وشرع فى تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم ، وأمر بكتابة المناشير ، وعين السلطان الظاهر الأمير ناصر الدين أغلمش السلاح دار ، الصالحي مقدماً لثلثمائة فارس وأقطعه إقطاعاً ببلاد الروم منه آمد وبلادها ، ثم لم يلبث السلطان الظاهر حتى وصله كتاب من سلطان الروم بأن هولاكو لما علم باتفاق الروم مع السلطان الظاهر « خاف من هيبته وولى هارباً » . .

اعتقال الملك المغيث عمر صاحب الكرك :

خرج السلطان الظاهر من القاهرة وتوجه إلى الشام ووصل إلى غزة ، فوصلت إليه والدة الملك المغيث صاحب الكرك تشفع لولدها عند الظاهر فأقبل عليها السلطان وأكرمها وطمأنها على ولدها وأذن لها فى العودة إلى ولدها فعادت ثم أرسل الظاهر الرسل إلى المغيث يطلب قدومه عليه وكان المغيث يسوف فى الأمر خوفاً من الظاهر وانتهى به الحال أن مثل بين يدى السلطان الظاهر ، فاستقبله الظاهر فى السادس والعشرين من جمادى الأولى ٦٦١هـ / أبريل ١٢٦٣ م ، ثم أفرد فى خيمة خاصة وقبض عليه وبعث به إلى قلعة القاهرة صحبة الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلحدار فوصلها ليلة الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / أبريل ١٢٦٣ م فكان آخر العهد بالملك المغيث[2] ولاحظ الظاهر استياء بعض الأمراء بسبب القبض على المغيث ، فجمع الأمراء وأظهر لهم وسائل الملك المغيث إلى التتار يحرضهم فيها على قصد البلاد ، وأطلعهم على كتب التتار إليه التى حوت شكر هولاكو له وبذل الوعود فقال له « قد أقطعتك من بصرى[3] إلى

---

(١) جمع درج وهو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو عبارة عن عشرين ورقة متلاصقة : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٤٧٠ حاشية ٢ .

(٢) Howorth part 3 : p 201.

(٣) وهما موضعان إحداهما بالشام وهى التى وصل إليها النبى صلى الله عليه وسلم للتجارة وهى فى كورة حوران ، والأخرى من قرى بغداد : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٠١ .

غزة وقد عرفت ما أشرت إليه من طلب عشرين ألف فارس تسيرها تفتح بها مصر ، ووعده هولاكو بإرسال هذه القوات إليه ويوصيه بعدة أمور ، ثم أخرج الظاهر فتاوى الفقهاء بخيانة الملك المغيث ووجوب معاقبته وأحضر الرسل الذين كانوا يحملون الرسائل إليه ومنه إلى التتار ، واعترفوا بذلك ، وتسلم السلطان الظاهر الكرك يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م ، ثم سار إلى مصر ومعه أولاد وحريم الملك المغيث ، فلما وصل مصر أمر ولد الملك المغيث على مائة فارس (وهو العزيز عثمان بن الملك المغيث عمر) ، وكان وصول الظاهر إلى مصر فى السادس عشر من رجب ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م .

تحالف الظاهر مع بركة خان :

وفى الحادى عشر من رجب سنة ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م وصل إلى القاهرة رسولان أوفدهما الملك بركة خان أحدهما جلال الدين قاضى دوقات والآخر الشيخ على التركمانى [1] وكان وصولهما إلى الإسكندرية بطريق البحر بعد أن مر ببلاد الدولة البيزنطية ، وكان مضمون هذه الرسالة : «أنت تعلم أنى محب لهذا الدين وأن هذا العدو يعنى هولاكو قد تعدى على المسلمين واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده من جهتك وأقصده من جهتى ونصدمة صدمه واحدة فنقتله أو نطرده عن البلاد ومتى كانت واحدة من هاتين أعطيتك ما كان فى يده من البلاد التى استولى عليها [2] ، وذكر بركة خان فى رسالته أنه قام وإخوته الأربعة بمحاربة هولاكو من جميع الجهات لإقامة شريعة الإسلام ، وأنه أخذ بثأر الأئمة والأمة ، وأنه أقام الأذان والصلاة والقراءة فى بلاده [3] ، فاستجاب الظاهر لطلبات بركة خان وأخذ فى تجهيز الرسل إليه فصاروا من القاهرة فى شهر رمضان ٦٦١ هـ / يوليو ١٢٦٣م ، وبعث معهم الظاهر عماد الدين عبد الرحيم الهاشمى العباسى والأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعهم هدايا ثمينة [4] ، وتضمنت رسالة السلطان الظاهر أيضاً

---

(١) ورد اسمه فى الروض الزاهر ص ٨١ على النحو الآتى : الشيخ نور الدين على .

(٢) الروض الزاهر ص ٨١ الذيل ج ١ ص ٥٨٤ ، النبل ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥وتلفيق الأخبار ص ٤٣٥ .

(٣) الروض الزاهر ص ٨١ ، تلفيق الأخبار ص ٤٢٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧ حاشية ٣ ، الذيل ج ٢ص ١٩٧ .

الدخول فى الطاعة وطلب المعاضدة على هولاكو على أن يكون للظاهر من البلاد التى تنتزع من هولاكو مما يلى الشام ، فلما وصل هؤلاء الرسل إلى القسطنطينية وجدوا صاحبها « الباسلوس كرميخائيل غائباً فى حرب مع الفرنج ، فلما علم بقدومهم أحضرهم إليه « فصاروا إليه عشرين يوماً فى عمارة متصلة » واجتمعوا به فى قلعة أكشاتا فأحسن استقبالهم ووعدهم بالمساعدة ، ووجدوا عنده رسلا من هولاكو فاعتذر صاحب القسطنطينية للرسل عن تأخيرهم خوفاً من إطلاع هولاكو على ما وصلوا من أجله ، ثم أمرهم بالعودة إلى القسطنطينية والمقام بها حتى يعود ويجهزهم إلى الملك بركة خان ، ولكنه استمر يسوف لهم « ولم يزل يمطلهم سنة وثلاثة أشهر[1] « فبعثوا إليه » إن لم يمكنك المساعدة على توجهنا فلتأذن فى الرجوع » فأذن للسيد عماد الدين بمفرده واعتذر لهم عن تأخيرهم لكونه بعيداً عن بلاده ويخشى من مهاجمة هولاكو لبلاده ، ويبدو أن صاحب القسطنطينية كان يخشى هولاكو وانتقاض الصلح معه فيهاجم بلاده إذا ما علم بمساعدته أرسل صاحب مصر وبركة خان اللذان هما فى حالة حرب وعداء شديد معه ، وعاد عماد الدين وتأخر الأمير فارس الدين أقوش المسعودى مدة سنتين[2] ، ونتيجة لتأخير الرسل فى بيزنطة سارت جيوش الملك بركة خان ، وهاجمت أطراف بيزنطة وهرب الباسلوس من القلعة التى كان بها إلى القسطنطينية وأرسل الأمير فارس الدين إلى مقدم جيش بركة خان ليخبره أن البلاد البيزنطية فى عهد الملك الظاهر وصلحه ، وأن بركة فى صلح من صالحه وعهد من عاهده ، فطلب مقدم جيش بركة من الباسلوس أن يكتب له مرسوماً بذلك فكتب أيضاً أنه لن يقوم بتأخير الرسل فرحل عسكر بركة بعد أن أخذوا معهم السلطان عز الدين كيكاوس وكان محبوساً فى قلعة من قلاع القسطنطينية فأخرجوه منها ثم بعث الباسلوس الأمير فارس الدين إلى بركة بعد أن جهزه وبعث معه رسولا من جهته برسالة ضمنها أن يقرر على نفسه ما يحمله كل سنة ثلثمائة ثوب أطلس على أن يكون معاهداً ومصالحاً له مدافعاً عن بلاده ، فسار فارس الدين إلى بركة ، فلما وصل إليه سأله بركة عن سبب تأخره وهلاك معظم ما معه ، فاعتذر عن ذلك بسبب منع

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧ حاشية ٤ والروض الزاهر ص ٨٣ والذيل ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) الذيل ج ١ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ والذيل ج ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

صاحب القسطنطينية له وأخرج خطاباً بما كتبه الباسلوس لمقدم عسكر بركة خان ثم قال بركة إلى فارس الدين : أنا ما أؤاخذك لأجل الملك الظاهر وهو أول من يؤاخذك على كذبك وإفساد ما بعثه معك « وكتب السلطان عز الدين كيكاوس رسالة إلى الملك الظاهر يخبره بإهمال فارس الدين وتقصيره ولأنه كان سبباً فى رحيل عسكر بركة خان عن بلاد صاحب القسطنطينية لما أوهمه من أن البلاد فى عهد السلطان بيبرس ، وكان جيش بركة قادراً على أن يأخذ منه فى مقابل عودته عنه قيمة ما فسد من الهدية ، فلما عاد فارس الدين واجتمع به الظاهر ، نقم عليه وأخذ ما معه من البضائع ما قيمته أربعون ألف دينار وقبض عليه ، وكان وصوله فى جمادى الآخرة عام ٦٦٥ هـ / مارس ١٢٦٧ م .

وصول جماعات من التتار إلى بلاد الإسلام :

كان من نتيجة اختلاف التتار وقتال بركة خان لابن عمه هولاكو، أن اضطربت بلادهم وكثر هروب جماعات المغول إلى بلاد الشام المجاورة لهم بحثاً عن النجاة وذلك راجع إلى ما سمعوه عن معاملة السلطان الظاهر لهؤلاء الوافدين من استقبال وإكرام وإنعام مما جذب الوافدين وزاد عددهم ، فوصلت طائفة من التتار مستأمنين فى شهر ذى القعدة ٦٦١ هـ / سبتمبر ١٢٦٣ م عدتها فوق الألف وثلثمائة فارس من المغول ، فلما علم السلطان بهم كتب إلى نوابه بحسن استقبالهم والإحسان إليهم، ووصلت هذه الطائفة إلى مصر فى شهر ذى الحجة ٦٦١ هـ / أكتوبر ١٢٦٣ م فركب السلطان الظاهر واستقبلهم ، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم وقبلوا الأرض بين يديه فأكرمهم وعادوا إلى القلعة ثم خلع عليهم ، ثم جاءت طائفة أخرى من المغول فاحتفل بهم السلطان واستقبلهم وجاءت طائفة ثالثة فأكرم وفادتهم « وأمر أكابرهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم .

تحالف ملك الأرمن مع التتار :

يقصد ببلاد الأرمن أرمينيا الصغرى وكان ملكها هيثوم قد انضم إلى هولاكو رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال وحماية لها من دولة المماليك من الجنوب ، وصارت تلك المملكة الأرمنية تابعة للتتار بحكم هذه المحالفة ، ففى شهر ربيع الآخر ٦٦٢ هـ / فبراير ١٢٦٤ م وردت الأخبار بأن

هيثوم ملك الأرمن قد جمع جيشاً وسار إلى هرقلة [١] ونزل على قلعة صرفند [٢]
فأرسل السلطان الظاهر البريد إلى حماة وحمص بخروج عساكرهم إلى حلب
فساروا إليها وأغاروا على عسكر الأرمن وقتلوا ثلاثين نفراً وأسروا جماعة فانهزم
الأرمن وطلبوا النجدة من حلفائهم التتار فتقدم من كان من التتار ببلاد الروم وهم
سبعمائة فارس ، وطلب ملك الأرمن نجدة من أنطاكية الصليبية فساعدوه بمائة
وخمسين فارساً ولبس الجميع ملابساً تشبه ملابس التتار واجتمع هؤلاء والتتار
وساروا لمحاربة المسلمين ، فلما وصلوا إلى حارم عاقهم الثلج والبرد عن التقدم فهلك
كثير منهم وعادوا من حيث جاءوا ، وبدأت الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأرمن
والتتار في جمادى الأولى ٦٦٢ هـ / مارس ١٢٦٤م ، ذلك أن ملك الأرمن
هيثوم جمع جيشه مرة ثانية وألبسهم ملابس الجند المغول ليوهم المسلمين أن نجدة
التتار قد وصلت إليه ، ولهذا كانت القوات الإسلامية اجتمعت فسارت من مصر
إلى الشام بقيادة الأمير سيف الدين بلبان الزيني وذلك للقيام بتجهيز القلاع
واستعراض جيش حماه وحلب ورجال الثغور ، ثم إلزام الأمراء « بتكميل العدد
والعدة وإزاحة الأعذار بسبب الجهاد » .

ولما كانت البيرة من الحصون الأمامية وتعتبر خط دفاع أول للمسلمين ،
رأى الظاهر أنه لا بد من تقوية أسوارها وتدعيمها بالمجانيق في حالة تسمح لها
بالصمود لحصار طويل ، هذا في الوقت الذى كان فيه الأعراب من عرب
خفاجة قد أغاروا على التتار حتى وصلت غاراتهم إلى أبواب بغداد [٣] وفي شهر
جمادى الآخرة ألقى القبض على جاسوسين من التتار وفي تلك الآونة كان
هيثوم ملك الأرمن ينظم أموره وعمد إلى خدعة بقصد إيهام المسلمين بأن هناك
قوة آتية لنجدة التتار وعلى هذا أعد ألف قباء تترى وألف سراقوج [٤] وذلك
لتنفيذ خدعته ، فلما علم السلطان الناصر بذلك أمر بخروج الجيش من دمشق إلى

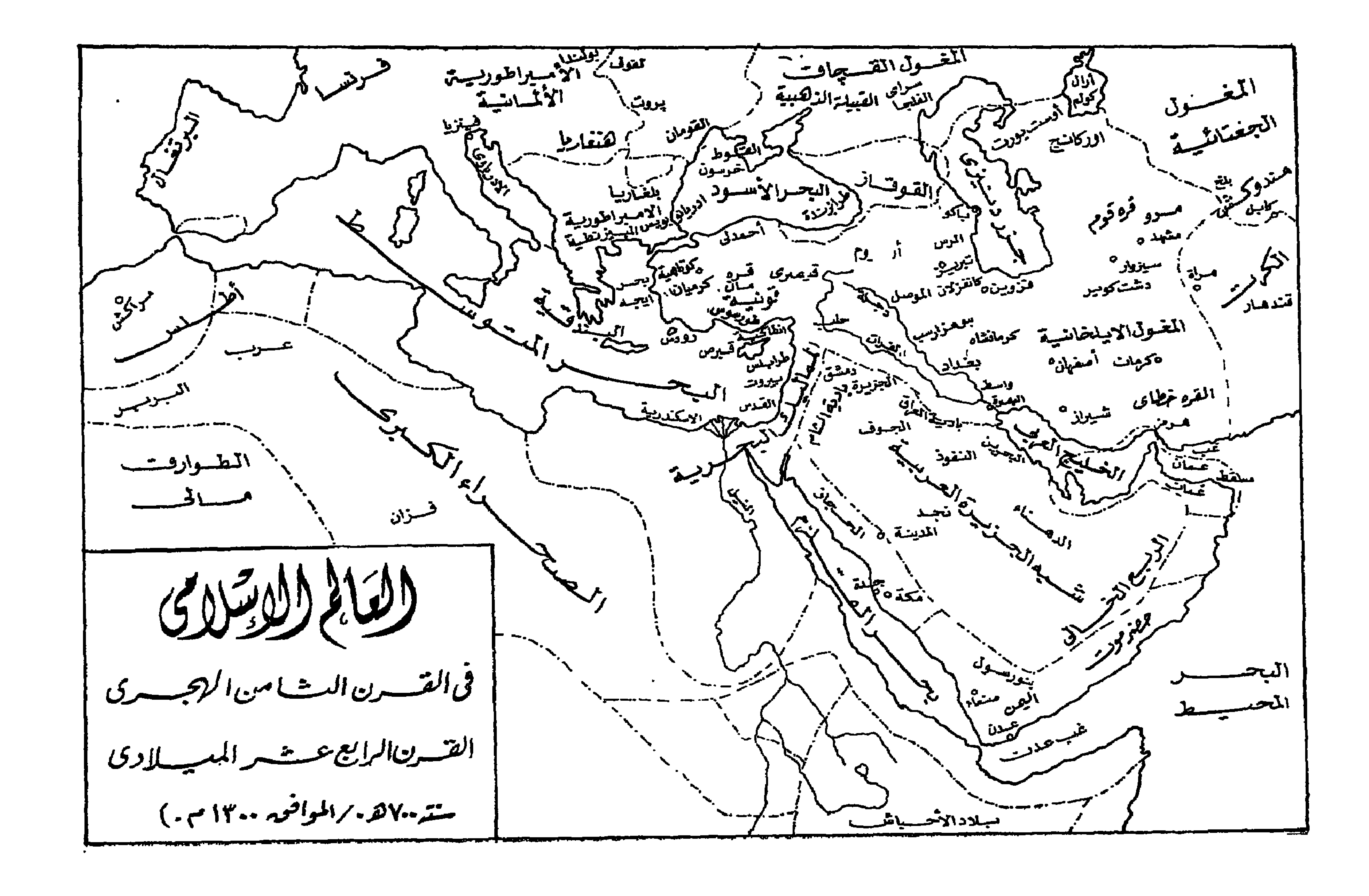
---

(١) هرقلة : مدينة ببلاد الروم فتحها الرشيد وهى حصن غربي الفرات : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١٤٥٦ . . .

(٢) صرفند : قرية من قرى صور بساحل الشام : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٣٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١١ .

(٤) وهى قلنسوة تترية وجمعها سراقوجات : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١١ حاشية ٣ .


العالم الإسلامي
في القرن الثامن الهجري
القرن الرابع عشر الميلادي
سنة ٧٠٠هـ / الموافق ١٣٠٠م.
فرنسا
البرتغال
الإمبراطورية الألمانية
بولندا
بروت
هنغاريا
بلغاريا
فينزيا
القومان
المغول القبجاق
سراي القبيلة الذهبية
المغول الجغتائية
الوركانج
البحر الأسود
القوقاز
الإمبراطورية البيزنطية
أحمدلى
قيصرى
قونية
كوتاهية
أرزروم
تبريز
الموصل
بغداد
البصرة
واسط
حلب
دمشق
القدس
بيروت
طرابلس
قبرص
رودس
الإسكندرية
البحر المتوسط
المماليك
الجزيرة
النيل
مصر
برقة
فزان
الصحراء الكبرى
عرب
البربر
مراكش
أطلس
الطوارق
مالي
الحجاز
المدينة
مكة
جدة
البحر الأحمر
شبه الجزيرة العربية
نجد
النفود
الجوف
الدهناء
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
صنعاء
عدن
خليج عدن
عمان
مسقط
الخليج العربي
هرمز
شيراز
أصفهان
كرمان
المغول الإيلخانية
القره خطاي
بحر قزوين
باكو
قزوين
مرو
قره قوم
مشهد
سبزوار
دشت كوير
هراة
قندهار
كابل
بلخ
هندوكوش
الأفغان
البحر المحيط
بلاد الأحباش

حمص وكذلك عسكر حماه وعربان الشام وتحركت كل هذه القوات وأغارت على الأرمن من كل جهة فشتتت شملهم وولوا الأدبار لا يلوون على شيء هذا فى الوقت الذى واصل فيه المسلمون غاراتهم إلى أنطاكية ، ثم أغاروا بعد ذلك على بلاد الساحل التى كانت فى يد الفرنج حتى وصلوا إلى أبواب عكا .

سياسة الظاهر مع الوافدين من بلاد التتار :

ولما كان الجيش وقوته هما الدعامة الأساسية للحفاظ على الدولة الإسلامية والذود عن حياضها ، فإن الظاهر أبدى اهتماماً كبيراً بشئون الجيش والاستعداد للجهاد واليقظة التامة الدائمة ، وإعلان حالة الطوارىء وذلك لعلمه بوجود عدوين يريدان تحطيم دولة المماليك والإسلام والمسلمين وهما الفرنجة والمغول ، وفى شهر شعبان ٦٦٢ هـ / يونية ١٢٦٤ م أمر السلطان الظاهر الأمراء والعساكر جميعاً بالتسلح وشراء الأسلحة وصنع المعدات اللازمة للقتال ، ومن ثم ازدحمت الأسواق الخاصة بالأسلحة بالجند وبالتالى ارتفعت أسعار الحديد لكثرة الطلب وأيضا زاد أجر الحدادين وصناع آلات السلاح « ولم يبق لأحد شغل إلا ذلك حتى صار العسكر لاينفق متحصله فى شىء سوى السلاح » ، وأخذوا فى التدريب على فنون القتال والفروسية[1] » .

وفى هذه الآونة علم السلطان الظاهر بقدوم جماعة من التتار والأتراك والبغاددة مستأمنين إلا أن الشك ساور الظاهر تجاههم نتيجة لازدياد تدفق الوافدين منهم ، وظن أنها سياسة مرسومة من العدو ولا بد له من أن يأخذ حذره ومن ثم جمع الظاهر الأمراء وأهل الرأى والمشورة وأخبرهم برأيهم وقال : « أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه والرأى أن نخرج إليهم ، فإن كانوا طائعين عاملناهم بما ينبغى وإلا فنكون على أهبة ، ومن احتاج من العسكر إلى شىء أعطيته ، وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم يجاهد فى سبيل الله » ، فاستقر رأى الأمراء على الخروج للقائهم ولكنهم فى الوقت نفسه أشاروا على الظاهر بيبرس أن يوصى بسلطنة ولده الملك

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٢ .

السعيد وجعله ولياً للعهد لينوب عن والده أثناء غيابه للجهاد خارج مصر ، ووافق الملك الظاهر على هذا الرأى ، وفى يوم الخميس الثالث عشر من شوال ٦٦٢ هـ / أغسطس ١٢٦٤ [١] ، ألبس الملك السعيد شعار السلطنة وركب فى موكب عظيم وزينت القاهرة أحسن زينة وسار حتى مر بباب النصر ثم عاد إلى إلى القلعة وكتب تقليداً للملك السعيد بتفويض عهد السلطنة له . [٢] أما السلطان الظاهر فما زال يتأهب ويستعرض العساكر والأسلحة وآلات الحرب ، وقدمت أيضاً طائفة أخرى من جهة التتار مستأمنة ، فأرسل الظاهر إلى عرب خفاجة فى الشرق بخدمتهم والإحسان إليهم ، حتى يضمن عونهم ويكونوا له عيوناً على التتار وتحركاتهم .

مهاجمة التتار للبيرة :

ولقد صدق حدس الظاهر فى شكه فى أن التتار يضمرون شراً من وراء تحركاتهم تلك ، إذا وصل إلى علم السلطان الظاهر بنزول التتار على البيرة ومحاصرتهم لها ومن ثم أرسل الأمير بدر الدين الخازندار على الفور إلى بلاد الشام ليخرج بأربعة آلاف فارس لقتال العدو ، وعين الأمير عز الدين ايسغان المعروف باسم سم الموت مقدماً على الجيش ومعه الأمراء فخر الدين الحمصى والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى وعدة من الأمراء مع أربعة آلاف فارس ، وخرجوا من القاهرة فى الرابع من شهر ربيع الأول ٦٦٣هـ / ديسمبر ١٢٦٤م ، ثم سارت فرقة ثانية عدتها أربعة آلاف فارس أخرى بقيادة الأمير جمال الدين المحمدى والأمير جمال الدين ايدغدى الحاجبى ، وكان مسيرهم فى اليوم التالى لخروج الفرقة الأولى ، واجتمعوا خارج القاهرة ثم ساروا إلى الشام فى العاشر من ربيع الأول ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م [٣] ، ثم طلب الظاهر من صاحبى حماة وحلب التحرك بقواتهما ، فسارت جميع هذه القوات

---

(١) الروض الزاهر ص ١٠٥ – ١٠٦ ، ولكن ذكر فى الذيل على مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٢٢ أن ذلك فى ثانى عشر شوال ٦٦٣ هـ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٥ – ٥١٦ ، الروض الزاهر ص ١٠٦ – ١٠٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق٢ ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ، الروض الزاهر ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وعبرت نهر الفرات وكان السلطان الظاهر قد أمر عيسى بن مهنا بعد أن أرسل إليه عسكراً أن يسير بهم عبر الصحراء إلى حران والإغارة عليها ، أما السلطان الظاهر فإنه استعد هو الآخر وخرج من القاهرة على رأس القوات السلطانية ، وكان ذلك فى الخامس من شهر ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م، إلا أن هذه القوات تعرضت أثناء مسيرها إلى الشام لفناء أدى إلى هلاك معظم الدواب التى تحمل المهمات والأسلحة الخاصة بالجيش « وصارت الأموال مطروحة إلا أن السلطان برغم ذلك قرر الاستمرار فى المسير « فلما اشتكى إليه بعض الأمراء من سوء الحال « وقلة الظهر » قال السلطان « ما أنا فى قيد الجمال ، أنا فى قيد نصرة الإسلام »، ووصل الظاهر بجيشه إلى غزة فى العشرين من ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / من فبراير ١٢٦٥ م فعلم وهو بها أن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً فكتم ذلك النبأ حتى لا يتراجع العسكر ومحافظة منه على ارتفاع الروح المعنوية عند الجند، وكتب الظاهر كتاباً إلى الأمير عز الدين إيغان مقدم الجيش يقول له : « متى لم تدركوا قلعة البيرة ؟ وإلا سقت إليها بنفسى تجريدة » ، وكان ذلك من قبيل بث روح التشجيع للأمير إيغان على سرعة المسير لإنقاذ المدينة من الوقوع فى قبضة العدو ، فأسرع الأمير إيغان بقواته ، هذا فى الوقت الذى تقدم فيه السلطان من غزة ، ونزل قريباً من صيدا ، ثم سار إلى يبنى[1] فى السادس والعشرين من ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / فبراير ١٢٦٥ م ، فورد كتاب على السلطان من دمشق ، جاء فيه أن الملك المنصور صاحب حماة يقول إنه وعساكره والأمير عز الدين إيغان وجماعة من الأمراء وصلوا إلى البيرة بالعساكر ، فلما شاهدهم العدو هرب ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم ، وتوالت كتب الأمراء بالبشائر تحمل نفس الأنباء وكتب السلطان بإعادة إصلاح ما تهدم من البيرة وحمل آلات القتال إليها والأسلحة من مصر والشام كما أمر أيضاً « أن يعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين » ، وأمر كذلك الأمراء وصاحب حماة بالإقامة على البيرة وعدم مغادرتها حتى ينظف الخندق من الحجارة التى ردمها العدو فيه ، فأخذ الأمراء فى نقل الحجارة على أكتافهم فكتبوا إلى السطان يخبرونه

---

(١) يبنى بلد قرب الرملة بفلسطين ، مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٧٣ .

بعملهم هذا فى الوقت الذى كان هو يحاصر قيسارية [١] ويعمل فى هدم أسوارها بنفسه فكتب السلطان الظاهر جوابه للأمراء فى البيرة قائلا : « أنا عبد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة ، ماهنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا فى هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور » ، وأراد الظاهر أن يسترضى الأمراء ويرفع من قدرهم ويشعرهم باهتمامه بهم وتقديره لمجهودهم ، فأرسل كتاباً إلى القاهرة يطلب مائتى ألف درهم ومائتى تشريف وكذلك أرسل إلى دمشق يطلب مائة ألف درهم ومائة تشريف ، فلما تجمعت لديه هذه الأموال والتشاريف أرسلها إلى البيرة ، وكتب إلى الأمير عز الدين إيغان « بأن يحضر أهل قلعة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجندى وعامى وينفق فيهم المال حتى الحراس وأرباب الضوء [٢] ، ونفذ ذلك كله ، وبعد أن هدم الظاهر أسوار قيسارية وأرسوف [٣] وفتحها وأخضعها عاد إلى مصر ، ووصلها فى يوم الخميس الحادى عشر من شعبان ٦٦٣ هـ ط ١٢٦٥ م والأسرى بين يديه وكان فى استقباله الملك السعيد والأتابك عز الدين الحلبى نائب السلطنة [٤] ، ثم عادت العساكر والأمراء من البيرة مع الأمير عز الدين إيغان والأمير جمال الدين المحمدى ، وقدمت معهم هدية ملك الكرج [٥] ثم استولى الأمير عز الدين

---

(١) بلدة على ساحل الشام بفلسطين ، وقيسارية مدينة كبيرة فى بلاد الروم .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ ، أما أرباب الضوء فهم المشاعلية المكلفون بأعمال الإنارة ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ حاشية ٢ .

(٣) مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٥٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٤ .

(٥) « كانت مملكة الكرج قد انضوت تحت حكم المغول منذ سنة ٦٣٤ هـ /١٢٣٦ م وكان ملكها صاحب الهدية الواصلة إلى القاهرة هذه السنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م هو داود أولو David Ulu أى داود الفخم وقد أشترك داود هذا وجنوده الكرجية فى هجوم هولاكو على بغداد ، وفى موقعة عين جالوت ثم حدث أن ثار داود ضد الحكم التتارى سنة ٦٥٩ هـ — ١٢٦٠ م فتخلى عنه معظم أمرائه وصالحوا التتار ثم هرب بعد هزيمته إلى بلدة كوتياس حيث كان ابن عمه داود نارين أى داود الماهر ، وفى هذا الوقت نشبت الحرب بين هولاكو وبركه خان فرأى هولاكو ترضية داود الفخم وإعادته إلى مملكته مع تبعيته للمغول ، وقد ظل داود حتى وفاته سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م راضياً بتلك التبعية فى الظاهر غير أنه كان فى الوقت نفسه يكيد لهولاكو عند كل من الملك بركة خان والسلطان بيبرس » — السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٧ حاشية ١ .

السكندرى نائب الرحبة على قرقيسياء[١] وقتلوا من كان بها من التتار والكرج وأسروا ما يزيد على ثمانين رجلا وذلك فى منتصف شهر رمضان سنة ٦٦٣ هـ / يولية ١٢٦٥م[٢] .

وفاة هولاكو خان ملك التتار :

وفى التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م وردت الأخبار بوفاة هولاكو بن طولو خان بعلة الصرع ، وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغة[٣] ودفن فى قلعة تلا ، وكان هولاكو قد تولى السلطنة مدة عشر سنوات على مملكة إيلخانات فارس واتسع ملكه ، وقال المقريزى عن ممالك هولاكو « كان بيد هولاكو إقليم خراسان وكرسيه نيسابور عراق العجم ويعرف ببلاد الجبل وكرسيه إصفهان ، وعراق العرب وكرسيه تستر ويسميها العامة شستر ، وفارس وكرسيه شيراز وديار بكر وكرسيها الموصل والروم وكرسيه قونية » .

وكان هولاكو لا يتقيد بدين من الأديان ، وكان هولاكو يلقب بالقان وهو لقب الخان الأعظم ببلاد التتار[٤] ، وتولى الملك بعده ابنه أباغا وجهز أبغا (أباغا) جيشاً قوياً لمحاربة الملك بركة خان فانهزم هزيمة منكرة ، وتحالف مع ميخائيل إمبراطور القسطنطينية وتزوج من ابنة ميخائيل المسيحية بتشجيع والدته التى كانت نصرانية تعتنق المذهب النسطورى ، حدث ذلك وما زال الظاهر بيبرس مستمراً فى إعداد قواته وتنظيم دولته .

غزو بلاد أرمينية الصغرى :

كان ملك الأرمن قد أمره هولاكو بالإغارة على بلاد الشام ، فسار عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ م وأمده صاحب بلاد الروم من عساكر التتر وسار معه بنو كلاب من

---

(١) مرتفع على ملتقى نهر الخابور بالفرات .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٧ .

(٣) بلدة مشهورة فى أذربيجان — مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥٠ .

(٤) لقب بهذا اللقب الخان الأعظم لبلاد التتار ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٤١ حاشية ٤ .

أعراب حلب ، فجهز السلطان الظاهر عساكر حماة وحمص وقابلوهم وهزموهم ورجعوا إلى بلادهم ، فلما كان الخامس من شهر ذى القعدة عام ٦٦٤ هـ / أغسطس ١٢٦٦ م سارت الجيوش الإسلامية من بلاد الشام بقيادة الملك المنصور صاحب حماة ، وفيهم الأمير عز الدين إيغان والأمير قلاوون وقصدوا بلاد سيس عاصمة أرمنية الصغرى [1] ولقد كان القصد من هذه الحملة هو تأديب بلاد سيس لموقفها من المسلمين زمن التتار عندما استولوا على حلب وبلاد الشام إذ أنهم أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقاً كثيراً ثم كانوا يغيرون بعد ذلك على بلاد المسلمين فى زمن هولاكو لأنه أمرهم بذلك كما مر بنا ، هذا بالإضافة إلى رغبة السلطان الظاهر فى الوصول إلى أسواق الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد ، أى فتح باب التجارة بين الشام وبلاد الأرمن ولكن صاحب سيس لم يستجب لهذه الرغبة خوفاً من هولاكو ، لهذا سارت القوات الإسلامية لغزو بلاد سيس ، وعندما التقى الفريقان انهزم الأرمن وأسر ليفون بن ملك سيس وقتل عمه ، وهرب عمه الآخر وقتل ابنه هيثوم الآخر وتمزق باقى جيشه وأصحابه « وقلت أبطالهم وجنودهم » . ثم دخلت القوات الإسلامية سيس نفسها « فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها » وفتحوا قلعة العمودين وقتلوا أهلها ووصلت البشائر بذلك إلى السلطان الظاهر بيبرس وهو بدمشق ، فأعطى المبشر ألف دينار ، وفى الثالث عشر من شهر ذى الحجة ٦٦٤ هـ / سبتمبر ١٢٦٦ م خرج الظاهر لاستقبال الجيش العائد من غزوة سيس بقيادة صاحب حماة الملك المنصور ومعهم ابن متملك سيس ليمون الثالث، ولم يزل ملك الأرمن هيثوم يسأل السلطان الظاهر فى إطلاق ولده ليفون (ليون)، وخاصة بعد استيلاء الظاهر على أنطاكية ، ويعرض فى فدائه الأموال والقلاع ، وكان التتار قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب عندما استولوا عليها أول مرة عام ١٢٦٠ م / ٢٥٨ هـ فاشترط السلطان الظاهر على ملك سيس شروطاً منها إحضار الأمير سنقر الأشقر عوضاً عن ولده ليفون ، ثم رد القلاع والبلاد التى أخذها ملك سيس من مملكة

---

(١) سيس عاصمة أرمينية الصغرى – قيليقية – وموقعها بين أنطاكية وطرسوس السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٤٩ حاشية ٢ .

حلب وهى بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد — اسم مدينة — فسأل هيثوم الظاهر أن يعطيه مهلة سنة للقيام بهذه المهمة ويبعث إلى الأردو [١] فذهب ملك سيس إلى ملك التتار « فتذلل له وتمسكن وخضع له حتى أطلقه له » فأرسل ملك سيس إلى الظاهر يخبره بأنه وجد سنقر الأشقر وأنه أطلق سراحه إلا أن هيثوم كان ينوى الخداع . ونقض عهده بتسليم القلاع فكتب إليه الظاهر محذراً إياه : « إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك ، فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ويكون الرجوع منك لامنى ونحن خلف كتابنا فمهما شئت افعل بسنقر الأشقر ، فلما وصلت رسائل السلطان الظاهر بما ذكرنا إلى هيثوم وكان السلطان الظاهر فى أنطاكية خاف وخشى من وقوع الخلاف بينه وبين الظاهر ومن ثم قرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا [٢] ودربساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد ، [٣] وكل ما أخذه من بلاد الإسلام ، وأن يرد الجميع بحواصلها كما تسلمها ويطلق سنقر الأشقر ، ويطلق السلطان الظاهر فى مقابل ذلك ابن ملك سيس ليفون وابن أخيه وغلمانهما ، » واشترط أيضاً أن يحضر ملك الأرمن رهينة حتى يتسلم السلطان القلاع المتفق عليها فى عقد المصالحة ، فكتب الهدنة بأنطاكية وسار الأمير بلبان الرومى الدوادار والصدر فتح الدين بن القيسرانى كاتب الدرج [٤] لاستحلاف ملك سيس وسار الأمير بدر الدين بجكا الرومى لإحضار الملك ليفون من مصر وذلك ليلة الثالث عشر من رمضان ٦٦٦ هـ / مايو ١٢٦٨ م فوصلها وعاد إلى دمشق ومعه ابن ملك الأرمن « بحرمة عظيمة وخيالة كثيرة ، وحلف التكفور ملك الأرمن فى السابع والعشرين من رمضان ٦٦٦ هـ / يونية ١٢٦٨ م فانتظم الصلح ثم سار السلطان من أنطاكية إلى شيزر ثم إلى حمص ثم سار من حمص

---

(١) لفظ مغولى معناه المعسكر أى معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس — السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦٩ حاشية ٢ .

(٢) بهسنا قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط وهى من عمل حلب ، ودربساك حصن قرب أنطاكية — مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٣٤ ، ج ٢ ص ٥٥٤ .

(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥

(٤) وهو الذى يوقع على جانب القضايا والأوراق الرسمية بعد أن يقوم بقراءة تلك الأوراق والقضايا السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٨٩ حاشية ٣ .

إلى دمشق فدخلها والأسرى بين يديه .وليفون ابن صاحب سيس فى خدمته فأحسن إليه ، ثم أقسم ليفون للسلطان على الصيغة التى أقسم عليها والده وهو قائم مكشوف الرأس ، وسار إلى بلاده فى شهر شوال ٦٦٦هـ / يونية ١٢٦٨ م بصحبة الأمير بدر الدين بجكا حتى وصل إلى مملكته ، ثم وصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم وما زالوا عند الظاهر حتى تسلم نواب السلطان القلاع من أهل سيس فأعيدت الرهائن لأهلها ، ولما وصل ليفون إلى سيس أطلق سراح سنقر الأشقر فقدم على الظاهر فأكرمه وأحسن إليه وبنى له داراً بقلعة الجبل وجعله من خاصته .

غارات التتار على بلاد الشام :

وفى السابع والعشرين من جمادى الآخر عام ٦٦٥ هـ / مارس ١٢٦٧ م تقدم السلطان الظاهر إلى الشام وبصحبته جماعة من الأمراء وترك معظم قواته بمصر . وبينما الظاهر فى صفد علم بغارة التتار على الرحبة ، وإن أهل الرحبة قتلوا وأسروا من العدو عدداً كبيراً فعادوا منهزمين إلى بلادهم .

وفى شهر صفر عام ٦٦٦ هـ / أكتوبر ١٢٦٧م علم السلطان الظاهر بمسير التتار إلى حلب فأمر بالاستعداد وأرسل على الفوز إلى الشام يأمر النواب بتجهيز القوات والاستعداد لمواجهة العدو ، وحاول الفرنجة مد يد العون مع المغول فى محاربة المسلمين ، فتقدم الفرنجة لمهاجمة وادى الأردن فى ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م ، ثم خرج السلطان الظاهر إلى الشام فى شهر جمادى الآخرة ٦٦٧ هـ / فبراير ١٢٦٩ م ومعه الأمراء والعساكر ، فلما وصل السلطان إلى دمشق قدم عايه خطاب من صاحب سيس يتضمن بأن رسول أبغا بن هولاكو وصل إليه ويريد الحضور إلى السلطان الظاهر ، فبعث الظاهر إليه الأمير ناصر الدين بن صيرم ليتسلمه من سيس ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدث مع أحد ، وكان معه جماعة من بلاد سيس ، فأنزلهم السلطان بقلعة دمشق وأحضرهم فى اليوم التالى وتسلم الكتاب منهم ومضمونه : « أن الملك أبغا بن هولاكو لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً وأنت مملوك أبعث فى سيواس فكيف

تشاقق ملوك الأرض » فأجاب السلطان الظاهر على ذلك الإنذار إجابة حاسمة ، ولم يلتفت إلى التهديد وقال للرسل : « أعلموه أنى من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنزع منه جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض » ولم يتمكن أيضاً من إنفاذ حملاته لغزو الشام فى هذه الفترة لوقوع الخلاف بينه وبين مملكة مغول القفجاق وانشغلوا بأنفسهم .

تحالف الفرنجة مع التتار :

علم السلطان الظاهر بحركة التتار واتفاقهم مع الصليبيين بالساحل وعلم أيضاً بغارة التتار على الساجور[1] بالقرب من حلب فجهز الظاهر العساكر وسيرهم إلى الشام بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار ، وأمره الظاهر بأن يرابط بقواته فى أطراف بلاد الشام على أهبة واستعداد ، ثم سار الظاهر من قلعة الجبل فى ربيع الأول ٦٦٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٩ م فى نفر يسير فوصل غزة ثم دمشق بعد أن صادفت العساكر أضراراً بالغة ومشقة عظيمة بسبب البرد القارس ، ولم تلبث الأخبار أن وصلت إلى السلطان بانهزام التتار عندما علموا بتحرك السلطان الظاهر « وكان الله فى أنفس الناس أن السلطان وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة فى هزيمة الأعداء وأن اسمه يرد الأعداء من كل جانب »[2] ، ولكن الظاهر علم بأن جماعة من الفرنج ساروا من بلاد الغرب وراسلوا أبغا بن هولاكو بأنهم قادمون من جهة سيس للاشتراك فى مهاجمة المسلمين ، ولكن الله أهلك هؤلاء الفرنجة قبل أن يصلوا إلى سيس إذ هبت على سفنهم ريح صرصر عاتية أتلفت سفنهم وأغرقتها ، ويمكن تفسير محاولات الفرنج هذه بأنهم نتيجة لمراسلات أبغا بن هولاكو مع ملوك أوربا والبابا كليمنت الرابع فى عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م إذ طلب أبغا من البابا إرسال جيش ليهاجم المسلمين فى الوقت نفسه الذى يتقدم فيه أبغا بقواته نحوهم فوعده البابا بذلك[3] ، أما من سلم من حملة الفرنج هذه التى حطمتها

---

(١) وهو نهر بجهات منبيج وتقع عليه عينتاب وتل باشر — السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٤ حاشية ٣.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) Babars, P. 57 & Howorth, Part 3, P. 279, 280 & 281.

العاصفة يبدو أنهم ساروا إلى عكا بدلا من سيس وتجمعوا هناك مع فرنجة عكا واغتروا بكثرة عددهم وبما قدم إليهم من فرنجة الغرب وسارت جماعة من هؤلاء لمهاجمة عساكر المسلمين فى جنين وعسكر صفد فخرج السلطان من دمشق إلى مرج برغوث [١] ، ثم أمر الظاهر عسكر صفد بالإغارة على الفرنج واشتد القتال بين الفريقين ، وانهزم الفرنج وانكسروا كسرة عظيمة وأسر السلطان أكابرهم ، فسارت البشائر إلى مختلف الجهات ثم أغار على حصن الأكراد وقتل جماعة من فرسان الفرنج واستخف بهم وقال :

« خلوا الفرنج يخرجوا فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض » ، فلم يظهر منهم أحد خوفاً منه ، وذلك نتيجة تآمرهم ومحاولتهم التعاون مع التتار .

غارة التتار على الشام :

أمر أبغا ملك التتار جيشه بالمسير إلى البلاد الشامية فساروا فى عشرة آلاف جندى بقيادة الأمير صمغراً (سماغور) والبرواناه [٢] ، وكان السلطان الظاهر موجوداً بالشام فى تلك الفترة ، فلما علم التتار بذلك أرسلوا ألفاً وخمسمائة فارس بقيادة آمال بن بوغاى ليغيروا على أطراف بلاد حلب ، وأرسل الظاهر إلى مصر يطلب مسير عساكرها إليه فحضرت العساكر الإسلامية من مصر بقيادة الأمير بيسرى وعدتهم ثلاثة آلاف فارس ، فوصلوا إلى السلطان فى الخامس من ربيع الآخر ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ ، وتقدم بهم نحو التتار فى السابع من ربيع الآخر فعلم العدو بمسيرة السلطان إليهم « فولوا على أعقابهم » وكان صاحب حماة الملك المنصور قد وافق الظاهر فنزل السلطان حلب يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الآخر ٦٧٠ هـ / نوفبر ١٢٧١ م وعسكر بقواته بالميدان الأخضر وسير الأمير شمس الدين بن سنقر الفارقانى — بعد حضوره من جنين — بجماعة من الأجناد

---

(١) مرج برغوث جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب .

(٢) لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب وقد أطلق فى دول السلاجقه بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر ، وهو سليمان بن على بن محمد بن حسن الصاحب معين الدين البرواناه توفى شهيداً فى أواخر ٦٧٦هـ فى واقعة التتار مع الملك الظاهر — النجوم ج ٧ ص ١٥٥ حاشية ٣ .

وأمره بتعقب العدو حتى أطراف البلاد فى الشمال وأمره ألا يتعرض لبلاد صاحب سيس ثم جهز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى فى عسكر وأمره بالمسير إلى حران ، أما الأمير شمس الدين الفارقانى فقد تتبع فلول التتار حتى وصل إلى مرعش[1] فلم يعثر على أحد منهم ، وعاد إلى حلب حيث يقيم الظاهر بيبرس فرحل عندئذ الظاهر نحو الديار المصرية فى الثامن والعشرين من ربيع الآخر ٦٧٠هـ / ديسمبر ١٢٧١ م ، ودخل مصر وكان الفرنج قد أغاروا على حصن قاقون[2] بفلسطين وذلك بالاتفاق مع التتار ، فسار السلطان من حلب سراً حتى يفاجىء الفرنجة ودخل دمشق وبين يديه عدة من أسرى التتار من حران فى الوقت الذى سار فيه الأمير أقوش الشمسى بعسكر عين جالوت ، فلما علم الفرنج بتحركات السلطان وعساكر الإسلام رحلوا عن حصن قاقون ولكن العساكر الإسلامية كانت تتبعهم حتى قتلوا جماعة كثيرة منهم ، وبلغت خسائر الفرنج من الدواب خمسمائة رأس[3] ، وسار من دمشق فى الثالث من جمادى الأولى ٦٧٠ هـ / ديسمبر ١٢٧١ م بقصد الإغارة على عكا إلا أنه عدل عن ذلك ولعل ذلك راجع إلى سوء الأحوال الجوية وشدة الأمطار ، ومن ثم رجع إلى مصر ووصل إلى إلى قلعة الجبل فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى ٦٧٠ / ديسمبر ١٢٧١م[4] أما الأمير علاء الدين طيبرس فسار بقواته نحو نهر الفرات فخاضوا النهر إلى الجانب الآخر وساروا إلى حران ، فلما اقتربوا منها خرج من بها من نواب التتار وألقوا أسلحتهم واستسلموا وقبض عليهم جميعاً ، ثم سار طيبرس إلى حران فأعلن أهلها ولاءهم للسلطان ، ثم عاد علاء الدين طيبرس ولم يدخل حران فعبر الفرات سباحة وعاد إلى مصر[5] ونتيجة لموقف حران من المسلمين وعدم مقاومة أهلها للأمير

---

(١) مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفى وسطها حصن عليه سور — النجوم ج ٧ ص ١٥٦ حاشية ٧ .

(٢) حصن بفلسطين قرب الرملة — مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٠٥٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ Howorth, Part 3, P. 243

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ ، المختصر ج ٢ ص ٢٢١، النجوم ج ٧ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦١ ، الذيل ج ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٩ .

(٥) الذيل ج ٢ ص ٤٦٩ .

علاء الدين طيبرس ، ثم نتيجة لاستسلام التتار الذين كانوا بها وصلت جماعة من المغول إلى حران فى الخامس والعشرين من رمضان ٦٧٠ هـ/ أبريل ١٢٧٢ م وأخربوا سورها وكثيراً من أسواقها ودورها وهدموا جامعها وأخذوا أخشاب سقفه وسبوا أهلها « واستصحبوا معهم من فيها فخربت ودثرت [١] » .

طلب التتار الصلح مع المماليك :

بينما السلطان الظاهر يتصيد بجهة الصالحية جاءه الخبر بأن العدو المغولى يقوم بتحركات نحو الشام ، فعاد الظاهر مسرعاً إلى قلعة الجبل وسار إلى الشام فى الثالث من شعبان ٦٧٠ / مارس ١٢٧٢ فقابله رسل الفرنج بعكا وهو بالسواد [٢] يطلبون الهدنة فأرسل إليهم الأمير فخر الدين إياز المقرى والصدر فتح الدين بن القيسرانى كاتب الدرج فعقدت الهدنة مع الفرنج لمدة عشر سنين وعشرة أشهر ابتداء من رمضان ٦٧٠هـ / أبريل ١٢٧٢م ، ثم سار الظاهر إلى دمشق ، فوصلت إليه رسل التتار فى شوال ٦٨٠ هـ / مايو ١٢٧٢ م يطلبون الصلح ، فأحسن السلطان الظاهر إلى هؤلاء الرسل وأكرمهم ثم بعث فخر الدين إياز المقرى والأمير مبارز الدين الطورى رسولين إلى أبغا وأرسل معهما هدية ، فلما وصلا قونية ببلاد الروم أديا الرسالة إلى صمغرا ومضمونها شكره ، ثم أخذهما البرواناه وسار بهما إلى أبغا ملك التتار ، فلما اجتمعا به قال لهما ما الذى جئتما فيه ؟ فقالا إن صمغرا بعث إلى السلطان الظاهر وأخبره أنك أحببت أن يأتى إليك من جهته رسول : فأرسلنا نقول لك ، « إن أردت أن أكون مطاوعاً لك فرد ما فى يدك من بلاد المسلمين » فقال أبغا : « هذا لا يمكن وأقرب ما فى هذا أن يبقى كل واحد منا على مافى يده ودارت بينهما مفاوضات أغلظ فيها أبغا لرسل الظاهر وعادا من عنده بدون اتفاق فوصلا دمشق فى الخامس عشر من صفر ٢٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م .

ويبدو أن التتار كانوا يطلبون الصلح لسببين أولهما اضطراب أحوالهم

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٠ ، الذيل ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) السواد هنا موضع بنواحى البقاء – السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٦٠١ حاشية ٤ .

السياسية فى داخل البـــلاد ، وثانيهما خداع المسلمين وهو الأسلوب الذى اتبعه الفرنجة فإنهم كانوا يسرعون بتقديم الولاء وطلب الصلح إذ كانت ظروفهم سيئة لا تساعدهم على القتال ، فإذا ما شعروا بقوتهم تعاونوا مع التتار لمحاربة المسلمين فى وقت واحد ، فكثيراً ما خرج السلطان لمحاربة التتار فيحارب الصليبيين أيضاً ذلك أن الطرفين — التتار والصليبيين — يهدفون إلى هدف واحد هو محاربة بلاد الإسلام واحتلالها ، وانتهت المراسلات والمفاوضات بين المغول والسلطان الظاهر بدون اتفاق [1] ، ولم يلبث أن قدم رسل التتار فى شهر صفر ٦٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م فطلبوا أن يقدم الأمير سنقر الأشقر إلى بلاد أبغا حتى يعقد الصلح ، فأمر الظاهر العساكر بارتداء معداتهم وأسلحتهم واستعرضوا أمام رسل التتار ثم عادوا فى رابع شهر ربيع الأول ٦٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م إلى بلادهم بدون اتفاق أيضاً ، [2] ويبدو أن كثرة رسل التتار كانت بمثابة ستار لتحركاتهم ونواياهم العدوانية ، إذ لم تمض أيام على عودة الرسل إلى أبغا حتى تحركت الجيوش المغولية نحو الشام ، ويمكن القول إن هذه الغارات كان الهدف منها إرغام المماليك على عقد الصلح مع التتار ، إلا أن الغدر والخداع كانا مسيطرين على التتار فلم يطمئن السلطان إلى عهودهم .

موقعة البيرة والفرات ٦٧١ هـ — ١٢٧٢ م :

وصل السلطان الظاهر بيبرس إلى دمشق فى الخامس من المحرم ٦٧١ هـ / أغسطس ١٢٧٢ م فعلم بحركة التتار ، فعاد إلى مصر سراً ، ووصل إلى قلعة الجبل على حين غفلة ، وكان قد أخبر أمراء الشام أنه متوجه إلى البيرة لتفقد أمورها ، فجهز الجيش وعاد إلى الشام فدخل قلعة دمشق ليلا [3] ثم تحركت القوات المغولية إلى البيرة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وذلك فى جمادى الأولى ٦٧١ هـ / ديسمبر ١٢٧٢ م ثم وضعوا (التتار) على مخائض الفرات من يحفظها

---

(١) النجوم الزهرة ج ٧ ص ١٥٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ . Howorth, Part 3, P. 244.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

حتى يمنعوا من يصل إليهم من عسكر المسلمين ، فاستعد السلطان وجهز الأمير فخر الدين الحمصى بفرقة من الجيش إلى جهة حارم [١] وجهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى فى فرقة ثانية .

أما السلطان نفسه فقد أعد السفن اللازمة لعبور الفرات وحصلها على ظهور الجمال وأسرع المسير حتى وصل إلى الباب من أعالى حلب ، وأرسل جماعة من الأجناد والعرب لكشف أخبار العدو وسار إلى منبج ، فعاد الكشافة وأخبروه أن طائفة من التتار تبلغ ثلاثة آلاف فارس تقريباً على شط الفرات مما يلى الجزيرة ، فرحل عن منبج يوم الأحد الثانى عشر من جمادى الأولى ٦٧١هـ / ديسمبر ١٢٧٢ حتى وصل الفرات ، فوجد على الفرات جموعاً من التتار ، فأنزل المراكب فى النهر وملأها بالمقاتلين واشتبكوا مع العدو وتراموا بالسهام واقتحم الأمير قلاوون الفرات ثم تبعه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، ثم تبعهما السلطان بنفسه مع العسكر وعبروا الفرات سباحة ، وكان الأمير قلاوون الألفى أول من وصل أرض العدو على الشاطئ الشرقى للفرات ومعه جماعة من العسكر فهزم التتار ومزقهم فلما وصل السلطان إلى أرض المعركة صلى ركعتين شكراً لله تعالى ووزع العساكر يميناً وشمالا فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً ، فلما علم التتار الذين كانوا يحاصرون البيرة بهزيمة جيشهم على شاطئ الفرات انهزموا مع مقدمهم درباى وتركوا أثقالهم وأقواتهم ، فاستولى أهل البيرة على كل ذلك « فتقووا به » ، ولما علم الظاهر بيبرس بذلك سر كثيراً ، وانتظر حتى يأتيه أحد من التتار ليقاتله ، ولما لم يأت أحد من التتار لمحاربة السلطان بعد هزيمتهم عاد بجيشه فى الفرات كما خاضوه أول مرة وسار الظاهر بعد ذلك إلى البيرة وخلع على نائبها وترك بها جماعة من العسكر لحفظها ، وعاد إلى دمشق فى الثالث من جمادى الآخرة ٦٧١ هـ / ديسمبر ١٦٧٢ م وبين يديه جماعات كبيرة من أسرى التتار وسار إلى مصر فوصلها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١هـ / يناير ١٢٧٣م [٢]

---

(١) قلعة حصينة فى جهة الغرب من حلب — الأعشى ج ٤ ص ١٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ — ٦٠٧ ، النجوم ج ٧ ص ١٥٨ — ١٥٩ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٣ ، المختصر ج ٤ ص ٧
Howorth, Part 3, P. 244.

وقد خرج لاستقباله الملك السعيد فتقابلا بين القصير والصالحية فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١ هـ / يناير ١٢٧٣ م فترجلا واعتنقا طويلا وسار الجميع إلى قلعة الجبل وبين أيديهم أسرى التتار ، ودخل الظاهر قلعة الجبل فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١ هـ / يناير ١٢٧٣ م وأنعم السلطان على رجال دولته وأمرائها وقادتها « وأعطى كل واحد منهم ما يليق به من الخيال والذهب والحوائص والثياب والسيوف » وبلغت هذه الخلع والتشريفات فوق ثلثمائة ألف دينار .

وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الإنشاء قصيدة فى هذا الانتصار أولها[1] .

خضت الفرات بسابح أقصى منى	هوج الصبا من نعله آثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى	بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت مزقاً ولم يك طودها	إذ ذاك إلا جيشك الجرار

محاولة التتار غزو الشام :

علم السلطان الظاهر أن أبغا ملك التتار قد حرك قواته نحو بلاد الشام ، فخرج الظاهر من مصر فى السادس والعشرين من المحرم ٦٧٢ هـ / ١٢ أغسطس ١٢٧٣ م ، فلما وصل الظاهر إلى عسقلان بفلسطين أرسل إلى مصر يطلب خروج عساكرها جميعاً بقيادة الأمير بيليك الخازندار ، وأمر الجميع بالمسير إلى الشام وقال من ملك فرساً عليه الخروج للجهاد ، « وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجالة يركبون الخيل على قدر حالهم ويقوم من بالقرية بكلفة من يتوجه » ، وحدث فى هذه الآونة أن هرب الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج من بلاد التتار إلى السلطان بيبرس ، وكان الملك فرج فى أول أمره أمير طشت[2] السلطان جلال

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٩ — ١٦٠ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٦٤ البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٤ .

(٢) والطشت الذى تغسل فيه الأيدى والملابس فيكون مسئولا عنه أمير طشت وهو مسئول عن كل ما يلبسه السلطان من الثياب ونحوها .

الأعشى ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

الدين خوارزم شاه ، ووصل الملك فرج إلى بلاد الروم السلاجقة فأقطع بها إقطاعاً وكان يراسل السلطان الظاهر بيبرس بأخبار العدو فعلم التتار تيمية عليهم لمصلحة المسلمين فقبضوا عليه وحملوه إلى الأردو وهربت حاشية الملك شمس الدين بهادر خوفاً من الإيقاع بهم وساروا إلى بلاد الإسلام فأكرمهم السلطان وأحسن إليهم ، إلى شمس الدين بهادر بن الملك فرج فإنه هرب من عندهم وقدم إلى البيرة ثم وصل إلى دمشق وكان بها الملك الظاهر ، بيبرس وهنا تحركت القوات المغولية نحو بلاد الإسلام، فأمر الظاهر الأمير عيسى بن مهنا أمير العرب بالغارة على بلاد التتار فأغار حتى وصل إلى الأنبار فى الثامن عشر من شعبان ٦٧٢ هـ فبراير ١٢٧٤ م فظن العدو أن السلطان الظاهر قدم لقتالهم فانهزموا إلى أبغا ملكهم فرجع بهم إلى بلاده وكان الظاهر قد عاد إلى مصر فى جمادى الآخرة ٦٧٢ هـ / يناير ١٢٧٤ م [١] .

غزو بلاد سيس ٦٧٣ هـ — ١٢٧٥ م :

سار الظاهر من مصر فى طريقه إلى الشام على رأس الجيش ، فلما وصل الشام سير الأمير عيسى بن مهنا والأمير حسام الدين العينتابى بعسكر إلى البيرة لحفظها وكشف أحوالها ، فسار الأمير عيسى بعربانه إلى الأنبار ، فوجد بها جماعة من عسكر التتار فظن التتار أن السلطان وصل إليهم فجأة وتقاتل الأمير عيسى مع عرب خفاجة فى تلك الجهة فى الثامن عشر من شعبان ٦٧٢ هـ / فبراير ١٢٧٤ م ، فلما علم أبغا بذلك تراجع وانهزم على أسوأ الأحوال [٢] .
وجهز الظاهر بيبرس الأمير سيف الدين قلاوون الألفى والأمير بيليك الخازندار بجيش وأمرهم بالمسير إلى بلاد سيس لأسباب منها أن معين الدين البرواناه كتب إلى السلطان الظاهر يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم وذلك أنه لما ضاق من معاملة آجاى بن هولاكو وعزم آجاى على قتل البرواناه فاضطر البرواناه إلى مكاتبة السلطان الظاهر لغزو بلاد الروم ، وكان ذلك فى سنة ٦٧٢هـ /

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١١ ، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٤ — ٥
Howorth, Part 3,p. 245.

(٢) الدول والملوك م ٧ ص ٦ .

١٢٧٣ م ، وأرسل أبغا أيضاً يطلب حضور آجاى إليه فسار إليه واتفق فى هذه الآونة وصول السلطان الظاهر إلى بلاد الشام « أفاق البرواناه على نفسه » فأرسل إلى الظاهر يطلب إليه غزو بلاد سيس ثم يؤجل بلاد الروم إلى العام القادم ، فسارت القوات الإسلامية كما أشرنا إلى بلاد سيس [١] ، ويتضح من ذلك أن البرواناه كان السبب فى مسير الظاهر هذه السنة إلى بلاد الشام وذلك لغزو بلاد الروم نتيجة خوف البرواناه من التتار من ناحية ، وعدم اطمئنانه إلى الظاهر من ناحية ثانية ، وانتهى أمره بأن قتله التتار بعد هزيمتهم فى موقعة ابلستين كما سنبين فيما بعد .

أما القوات التى سارت إلى سيس فقد هاجمت المصيصة [٢] حيث قتلوا من كان بها من الأرمن ، وكانت المراكب قد نقلت على ظهور البغال ليعبروا بها نهر جيحان ، [٣] والنهر الأسود [٤] ، ثم وصل الظاهر بيبرس بعساكره فى إثر القوات المتقدمة بعد أن عبر النهر الأسود فملكوا الجبال وغنموا الكثير من الدواب والأغنام ثم دخل الظاهر سيس بعساكره فى التاسع والعشرين من شعبان ٦٧٣ هـ / يناير ١٢٧٥ م فدمر قصور التكفور ملك أرمينيا ومناظره وبساتينه ، وسير قواته ناحية الروم وفرقة أخرى إلى طرسوس [٥] ، وسير جيشاً إلى إياس [٦] فغنموا وقتلوا وأسروا ثم سار الظاهر من سيس عائداً إلى

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٧ حاشية ١

(٢) وهى مدينة على نهر جيحان وبينها وبين أذنه تسع أميال وتقع بالقرب من طرسوس السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٧ حاشية ٢ .

(٣) وتقع عليه المصيصة ويصب فى البحر الأبيض على مسافة قريبة من المصيصة صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٢ .

(٤) أحد فروع الفرات الأعلى ويمر تحت دربساك ويمتد حتى يصب فى بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب فى نهر العاصى . صبح الأعشى ج ٤ ص ٨١

(٥) مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر الأبيض بالقرب من حلب . صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٣ .

(٦) وهى ثغرة على ساحل البحر المتوسط بأرمينيا الصغرى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٣ .

إلى دمشق بعد أن مر بأنطاكية ، ثم قسم الغنائم فدخل دمشق فى منتصف ذى الحجة ٦٧٣ هـ / يونية ١٢٧٥ م [١] .

هجوم التتار على البيرة عام ٦٧٤ هـ – ١٢٧٥ م :

سارت قوات التتار وحليفتها الروم إذ كانت مكونة من ثلاثين ألف مقاتل [٢] ، منهم خمسة عشر ألفاً من الفرسان المغول وخمسة عشر ألفاً من فرسان الروم ، وكان المقدم على جيش الروم الأمير معين الدين البرواناه ومقدم جيش المغول أبطاى نوين (أقطاى نوين) وتابشى ومقدم جيش ماردين وميافارقين شرف الدين عبد الله اللاوى ، فوصلوا البيرة وحاصروها ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً ، فخرج أهل البيرة على العدو فى الليل وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئاً كثيراً من أثقالهم وأحمالهم ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، وأستمر حصار التتار للبيرة حتى التاسع عشر من جمادى الأولى ٦٧٤ هـ – نوفمبر ١٢٧٧ ، ولما فشلوا فى فتحها رجعوا بغيظهم وكان السلطان الظاهر لما علم بنزول التتار على البيرة قد أعد جيشاً كبيراً وأنفق على العساكر أموالا طائلة بلغت سمائة ألف دينار ، ثم سار إلى الشام ومعه ولده الملك السعيد ، وبينما هو فى الطريق علم بهزيمة التتار وعودتهم ، ولكنه واصل سيره حتى وصل حلب ثم عاد إلى مصر .

أما معين الدين البرواناه مقدم جيش التتار والروم فى غزوتهم للبيرة ، لما عاد إلى بلاده خشى من أنتقام السلطان الظاهر منه لنقضه وعده حين قاد جيش التتار والروم إلى البيرة بأمر من أبغا ، فلما عاد إلى بلاده اجتمع بالأمراء وأخذ عليهم الأيمان على أن يكونوا موالين للسلطان الظاهر بيبرس ، وينابذوا أبغا فحالفوا للبرواناه بذلك وكتب إلى السلطان الظاهر يخبره بهذا ويطالب إليه أن يرسل له جيشاً ويحمل له ما كان يحمله إلى التتار على أن يكون [غياث الدين كيكاوس كيسخرو على ما هو عليه ملكاً على الروم ، ثم اختلف البرواناه مع أمراء الروم ففارقه بعضهم إلى

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٨ ، العبر ج ٥ ص ٣٩١ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٩ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٣٥ ، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٢٤ .

السلطان الظاهر بيبرس وساروا من قيسارية وذلك بقصد الدخول فى خدمة الظاهر وإعلان الولاء والطاعة له ، فقدموا على السلطان فى الشام فجهزهم إلى القاهرة وعاد الظاهر فى شهر رجب ٦٧٤ هـ — ديسمبر ١٢٧٥ م إلى مصر ثم وقع خلاف بين أبغا وابن عمه فى تلك الآونة وتغلب أبغا عليه وأخضعه لحكمه وأخذ عليه شروطاً بعدم الثورة عليه .

موقعة أبلستين ٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م :

عزم السلطان الظاهر على دخول بلاد الروم لأسباب منها ما وعده به معين الدين البرواناه ووصول بعض أمراء بلاد الروم وأنحيازهم إلى الظاهر بيبرس وتشجيعهم له على أخذ بلاد الروم « فقووا عزمه على ذلك » ونتيجة لعلم السلطان بميل أمراء الروم إليه أرسل الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكى ومعه ألف فارس إلى بلاد الروم ، وأرسل معه رسالة إلى أمراء الروم يحثهم على طاعته والانقياد إليه ، فلما وصل الأمير بدر الدين الأتابكى إلى الأبلستين[1] صادف جماعة من جيش الروم فقدموا إليه الهدايا والعطايا وسألوه أن يبقى على حياتهم مقابل أن يقوموا بقتل من فى أبلستين من التتار ثم يسيروا معه إلى السلطان الظاهر بيبرس فأمنهم على حياتهم ففعلوا ما أتفقوا عليه ، وحضروا معه إلى الشام وكان السلطان قد دخل دمشق فى المحرم ٦٧٥ هـ — يونيه ١٢٧٦ م ، فلما قدم عليه أمراء الروم مع بدر الدين أحسن إليهم وبعث حريمهم إلى القاهرة ثم وصل إليه الأمير سيف الدين جندرباك صاحب الأبلستين ومعه الأمير مبارز الدين سواربن الخاشنكير ، ومعهم جماعة من أمراء الروم فاستقبلهم الظاهر بنفسه وعند ذلك تقوى عزمه على غزو بلاد الروم ، ولكنه قبل أن يقدم على ذلك أرسل كتاباً إلى الأمراء بمصر يستشيرهم فى إرسال الجيش لغزو بلاد الروم ، وطلب من الأمير بيسرى والأمير أقش أن يحضرا إليه فخرجا إليه يصحبهم الأمير سنقر الأشقر بعساكره ، وسار الظاهر بعد ذلك إلى حلب وسير الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى بجماعة من الجيش فتقدموا حتى وصلوا عينتاب وعاد الظاهر إلى مصر فدخلها فى الرابع عشر من ربيع الأول ٦٧٥ هـ — أغسطس

---

(١) مدينة ببلاد الروم أسمها الحالى البستان وهى قريبة من أفسوس مدينة أهل الكهف : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٥ حاشية ٧ .

١٢٧٦ م وأصدر الأوامر بالاستعداد التام لاستعراض القوات العسكرية انشغل الجميع فى الاستعداد . ثم بدأ السلطان فى استعراض قواته بالقاهرة فى الخامس من جمادى الأولى ٦٧٥ هـ – أكتوبر ١٢٧٦ م ، وشاهد رسل التتار وأمراء الروم الاستعراض العسكرى وجرت مناورة بين فرق الجيش اشترك فيها الظاهر وولده الملك السعيد ووزعت الجوائز فى نهاية الاستعراض على العلماء والأمراء والقضاة والمقدمين وبعد الانتهاء من الاستعراض ، خرج السلطان بجيشه فى رمضان ٦٧٥ هـ – فبراير ١٢٧٧ م يريد بلاد الشام وغزو بلاد الروم ، فوصل إلى دمشق ثم سار إلى حلب فوصلها أول ذى القعدة من نفس السنه وسار منها إلى جيلان ، وبعد ذلك سار الأمير نور الدين على بن مجلى نائب حلب للمرابطة على شاطئ الفرات ومعه جيش حلب لحفظ معابر النهر خوفاً من دخول التتار إلى الشام فجأة ، فلما وصل نور الدين بجيشه إلى الفرات جاءه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ورابط بعسكره مع نائب حلب ، أما السلطان الظاهر فإنه ما مر على مملكة ببلاد الشام « إلا أخذ معه عسكرها وخزائنها وأسلحتها » وتحرك من جيلان إلى عينتاب وسار فى المسالك المؤدية إلى بلاد الروم ، وكان الأمير سنقر الأشقر قد قدم الجيش بفرقة صغيرة للاستطلاع فوقع فى طريقه على ثلاثة آلاف فارس من التتار يقودهم كراى فانهزموا أمامه وأسر جماعة منهم وذلك فى يوم الخميس التاسع من ذى القعدة ٦٧٥ هـ – أبريل ١٢٧٧ م فلما علم أبغا ملك التتار بذلك جهز جماعة من عرب خفاجة ليهاجموا جيش حلب على حين غرة ، فعلم نائب حلب وهو مرابط على الفرات فاستعد لهم وقاتلهم وهزمهم وأخذ منهم ألفاً ومائتى جمل [1] ، وفى تلك الآونة علم السلطان الظاهر باتفاق الروم والتتار على قتاله ، وكانت بلاد الروم قد تغلب التتار عليها وأبقوا سلطانها على حاله بكافة البرواناه ، وكان التنافس قائماً بين المغول والظاهر بيبرس على الاستيلاء على بلاد الروم ، وأقام التتار لهم أميراً وعسكراً من التتار فى أرض الروم ويسمونه بالشحنة أى حامية التتار ببلاد الروم ، وكان البرواناه يتأنف من التتار لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم ، فأراد مكاتبة الظاهر ، يستحثه على قتال التتار ، ولكنه تغير ولما قدم الظاهر لغزو بلاد الروم حسب وعد البرواناه نقض عهده وراسل أبغا

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٧٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٨٩ ، ذيل مرآة الزمان ج ٣ ص ١٧٦ .

فأمده بجيش من المغول (١) لقتال الظاهر ، وسار التتار بقيادة الأمير تناوون وعسكر الروم بقيادة معين الدين البرواناه ، فاستعد الظاهر ورتب قواته ، وتأهب للقاء العدو ووصل بقواته إلى جبال تشرف على صحراء أبلستين ، هذا فى الوقت الذى نظم فيه العدو صفوفه فى كتائب وكراديس كل كردوس يزيد على ألف فارس (٢) ، ثم اصطف العسكر الرومى فى جانب واحد حتى لا تحدث مؤامرة بين الروم والمسلمين (٣) واشتد حمى القتال ، فلما رأت القوات الإسلامية حملة السلطان على العدو حملوا على العدو حملة واحدة واشتد القتال فترجل التتار عن خيولهم «وقاتلوا قتال الموت فلم يغن ذلك عنهم شيئاً » (٤) فعظم القتل فى التتار وانهزمت قواتهم وهربت فرقة منهم واعتصمت بالجبال فأدركتها القوات الإسلامية وأحاطت بهم وترجل العدو عن الخيول ، وقاتلوا قتالا شديداً إلا أنهم برغم الشجاعة التى أبدوها فى القتال أنهزموا هزيمة نكراء وتفرق جمعهم ووقع عدد كبير منهم فى الأسر وكان من بين الأسرى فى هذه الواقعة سيف الدين قبجق الذى سيصبح نائباً للشام فى عهد الملك الناصر محمد وأمر الظاهر بقتل أسرى التتار ، وقتل تناوون مقدم التتار فى نفس الواقعة .

أما بالنسبة لمعين الدين البرواناه فقد نجا بنفسه وانهزم أصحابه ، وكان السلطان الظاهر يظن إذا ما وصل إلى قيسارية (٥) أن البرواناه سيحضر إليه بناء على ما اتفق عليه سراً ولكن البرواناه لم يفعل ، وسار إلى قيسارية فدخلها واجتمع مع السلطان غياث الدين وكيكاوس بن كيخسرو وأمراء البلاد وأخبرهم بالهزيمة وقال لهم «إن التتار المنهزمين دخلو قيسارية فتكوا بمن فيها حنقاً على المسلمين» وأشار على السلطان والأمراء بالخروج ، فخرج السلطان بأهله إلى توقات — دوقات — إحدى بلدان الروم وبينها وبين قيسارية مسيرة ثلاثة أيام (٦) وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود قصيدة فى موقعة الأبلستين منها :

---

(١) العبر ج ٥ ص ٣٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، الذيل ج ٣ ص ١٧٦ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم ج ٧ ص ١٦٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، جامع التواريخ ج ٢ م ٢ ص٦٢ ، الذيل ج ٤ ص ١٧٧.

(٥) مدينة عظيمة كبيرة فى بلاد الروم ، آسيا الصغرى : مراصد الاطلاع ٣ ص ١١٣٩ .

(٦) السلوك م ٢ ق ٢ ص ٦٢٩ .

سرت من حمى مصر إلى الروم فاحتوت   عليه وسوراه الظبا واللهاذم
بجيش تظل الأرض منه كأنها   على سعة الأرجاء فى الضيق خاتم
كتائب كالبحر الخضم جيادها   إذا ما تهادت موجه المتلاطم
يحيط بمنصور اللواء مظفر   له النصر والتأييد عبد وخادم

دخول السلطان الظاهر قيسارية :

قدم السلطان الظاهر الأمير سنقر الأشقر بجماعة من العسكر لمطاردة المنهزمين من التتار للمسير إلى قيسارية ، وكتب معه كتاباً إلى أهل قيسارية بالأمان ، وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية ، إظهاراً للطاعة والخضوع ، ومر سنقر الأشقر بفرقة من التتار معهم بيوتهم فأخذ منهم جانباً وأدركه الليل فهرب من بقى منهم فى الظلام ، ثم سار الظاهر فى يوم السبت الحادى عشر من ذى القعدة عام ٦٧٥ هـ — أبريل ١٢٧٧ م قاصداً قيسارية الروم فاستولى على ما فى طريقه من البلاد ، ووصل الظاهر قيسارية يوم الأربعاء الخامس عشر من ذى القعدة ٦٧٥ هـ — أبريل ١٢٧٧ م فخرج أهل المدينة لاستقبالهم ومعهم العلماء والأكابر ، وساروا حتى وصل الظاهر إلى أن وصل قيسارية فارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل واجتمع الروم وأخذوا فى الغناء والضرب بالآلات الموسيقية فقيل لهم : « هذه الهيئة لا تتفق عندنا ، وما هذا موضع الغناء بل موضع الشكر » (١) ثم وزع السلطان الأموال على الأمراء وعين النواب ، وصلى الجمعة فى قيسارية ولبس شعار السلطنة السلجوقية ، وجلس على تخت بن سلجوق وهناه الناس ، ثم جمعت الأموال التى تركها النازحون عن قيسارية وزوجة البرواناه ، ثم أرسل معين الدين يهنئ السلطان الظاهر بيبرس بجلوسه على تخت الملك فى قيسارية ، فرد عليه الظاهر يطالب حضوره ليقره على مملكة الروم ، فطلب البرواناه مهلة خمسة عشر يوماً (٢) وكان يهدف البرواناه بذلك أن يصل أبغا بقواته ليدرك الظاهر وهو بقيسارية ، حيث كان البرواناه طلب

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٠ ، صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٥٤ ، الذيل ج ٣ ص ١٨١.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣١ ، النجوم ج ٧ ص ١٧٣ ، جامع التواريخ ج ٢م٢ ص ٦٢ الروض الزاهر ص ١٨١ — ١٨٢ .

من أبغا الحضور نفسه ، فلما علم الظاهر بما ينويه البرواناه ومراسلته لأبغا ملك التتار خرج من قيسارية فى الثانى والعشرين من ذى القعدة ٦٧٥ هـ — أبريل ١٢٧٧ م ومن أسباب خروج الظاهر من قيسارية وعودته منها قلة الأقوات وخراب البلاد وقلق العساكر الإسلامية لبعدهم عن بلادهم فتقرر عودتهم والسلطان .

عودة السلطان الظاهر من قيسارية :

لما علم الظاهر بتآمر البرواناه مع التتار خرج من قيسارية إلى الشام فى الثانى والعشرين من ذى القعدة ٦٧٥ هـ — أبريل ١٢٧٧ م بعد أن وزع الغنائم والأموال على الأمراء ، فلما وصل إلى خان كيقباذ بجهة الرمانة سير الأمير طيبرس الوزيرى إلى الأرمن ، فحرق وقتل وسبى من بها من الأرمن ، وذلك لأنهم كانوا قد أخفوا جماعة من التتار ، ثم سار السلطان إلى الأبلستين ومر على مكان الوقعة ليرى رجم القتلى من التتار فذكر أهل الأبلستين أنهم عدوا من القتلى ستة آلاف وسبعمائة وستين قتيلا ، فأمر السلطان بدفن من قتل من عسكر المسلمين وترك منهم قليلا دون دفن وقصد بذلك نكاية التتار فى إظهار كثرة من قتل منهم وقلة من قتل من المسلمين ثم سار الظاهر فى طريق عودته فى الرابع من ذى الحجة ٦٧٥هـ — مايو ١٢٧٧ م ووصل إلى حارم فى السادس من ذى الحجة حيث أمضى عيد الأضحى بها ثم سار إلى دمشق فدخلها فى السابع من المحرم ٦٧٦ هـ — ١٢٧٧ م فعلم الظاهر فى يوم دخوله بقدوم أبغا لقتاله وتهيأ للخروج إليه ، وعزم أبغا على غزو الشام وذلك فى فصل الصيف فقال الأمراء المغول : « وإن أواخر الخريف والشتاء أنسب لتلك الحملة فتربث لذلك السبب وأرسل رسولا إلى بيبرس يهدده ويخوفه فيما قال : « إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم ، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا ، فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام ، تعال لكى ترى سنانى وتنظر إلى التواء عنانى ، فإن كنت جبلا فستنهار من أساسك ، وإن كنت حجراً فلن تستقر فى مكانك ، فأين شاهدت المقاتلين ، يا من لم يسمع عواء الثعالب ، وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك فى طليعة الشتاء ، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام

فإنها بلا ريب سوف تأتى على كل ما لكم من أخضر ويابس لأن الله الأزلى قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم ، وأدخل السراة المتمردين فى ربقة طاعتنا ، وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الإدبار» وأخذ السلطان الأهبة وعزم على الخروج لقتال العدو ، غير أن رجلا من التركمان وصل إلى الظاهر وخبره بأن أبغا عاد إلى بلاده ، فلما تأكد الظاهر من عودته أطمأن وكان ذلك من ألطاف الله تعالى بالمسلمين ، فإن الملك الظاهر فى يوم الجمعة منتصف المحرم ٦٧٦ هـ بدأ يعانى مرض الموت .

انتقام أبغا من الروم :

لما علم أبغا ملك التتار بهزيمة جيشه فى موقعة أبلستين ٦٧٥ هـ — ١٢٧٧ م سار بقواته لمحاربة السلطان الظاهر بيبرس للانتقام من هذه الهزيمة فقابله فى الطريق معين الدين البرواناه ، وكان الظاهر قد رحل من قيسارية وسار إلى الأبلستين فتبعه أبغا ، فلما وصل إلى مكان الموقعة بالأبلستين وعاين القتلى وجدهم من التتار ، فشق ذلك عليه وكان قد علم بأن البرواناه هو السبب فى الهزيمة وأنه كاتب الظاهر وأطمعه فى غزو بلاد الروم ، ولذلك عاد أبغا إلى قيسارية ونهبها وقتل من ببلاد الروم من المسلمين واستمرت غارة جيش التتار سبعة أيام فى بلاد الروم فقتل المسلمين ونهب الأموال والدواب وقيل «إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتى ألف نفس» ولم يقتل أحد من النصارى وشمل القتل من أرزن الروم [1] إلى قيسارية وقيل إن عدد من قتل فى هذه الكارثة كان خمسمائة ألف ، [2] ، ثم سار أبغا ومعه غياث الدين صاحب بلاد الروم وقبض على البرواناه ثم قتله وقطعوا إربا ، وكان ذلك فى محرم ٦٧٦ هـ — يونية ١٢٧٧ م ، وكان قد اتهم البرواناه بثلاثة اتهامات أولها أنه هرب من الأعداء (المسلمين) وثانيها أنه لم يخبر قادة المغول على الفور بمجىء الظاهر بيبرس وثالثها أنه لم يقدم سريعا إلى أبغا وقتل جماعة من أصحاب البرواناه ،

---

(١) بلدة من بلاد أرمينية ، مراصد الاطلاع ج ١ ص ٥٥ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٣ ، وذكر فى دول الإسلام ج ٢ ص ١٣٦ أن عددهم فوق مائة ألف قتيل .

وكان البرواناه يكاتب الظاهر فى الباطن وظن الظاهر أنه سيحضر إليه فى قيسارية إلا أنه لم يفعل بل أرسل أبغا ليحضر لقتال الظاهر قبل رحيله عن قيسارية .

وفاة السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ — ١٢٧٧ م :

وفى يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم عام ٦٧٦ هـ — يوليه ١٢٧٧ م توفى السلطان الظاهر وأخفى موته لئلا تضطرب الأحوال بالبلاد ويطمع فيها العدو ، واتفق الرأى على نقله إلى القلعة بدمشق سرًّا ثم كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازاندار بذلك إلى الملك السعيد بمصر ، فلما وصل إليه الخبر أخفى نبأ وفاة أبيه[1] ، فأمر السعيد بدفن والده فى دار العقيقى بعد أن اشتراها بثمانية وأربعين ألف درهم وجعلها مدرسة للشافعية والحنفية ، أما عن وفاة الظاهر فقد اختلفت الآراء حول أسبابها فهناك رأى يقول إنه مات مسموماً وذلك عن طريق الخطأ ولم يكن المقصود بالسم هو بل آخر اسمه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن السلطان الملك المعظم عيسى ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان الظاهر يريد اغتياله بالسم ، فأسقاه الساقى فى كأس ثم ملأ نفس الكأس عن طريق السهو للظاهر ، وانتهى الأمر بوفاة الظاهر بيبرس . وهناك رأى آخر يقول إن وفاته كانت بسبب إصابته فى الحرب [مع المغول بنشابة] ، فلما حاول إخراج النصل من جسمه لم يتمكن من ذلك وبقى أياما يحاول ذلك « ولما أذن للجرائحى أن يخرجه وجاهد فى إخرجه مع خروج النصل فارق الدنيا » ولقد كان الملك الظاهر « ملكاً شجاعاً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه » وقال الحافظ أبو عبد الله [الذهبى فى تاريخه عن الظاهر][2] : « وكان خليقاً بالملك لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أيام بيضاً فى الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات معدودة » .

وخلف من الأولاد الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان والملك نجم الدين خضر والملك بدر الدين سلامش ، فتولى السلطنة بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٧ ٥ — جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٥.

(٢) تتمة المختصر ج ٢ ص٢٢٤ ، العبر ج ٥ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٢ — ٢٧٤ ، الدول والملوك م ٧ ص ٩٩ — ١٠٠ ، المختصر ج ٤ ص ٩ — ٢٠

محمد بركة خان ، وكان مولده فى صفر سنة ٦٥٨ هـ — يناير ١٢٦٠ م وتولى السلطنة فى يوم الخميس الثالث عشر من شوال سنة ٦٦٢ هـ — أغسطس ١٢٦٤ م وذلك فى حياة والده ، لكن لم يكن له من السلطنة شيئاً إلا بعد وفاة والده وخطب له على المنابر بمصر فى السابع والعشرين من صفر ٦٧٦ هـ — يوليه ١٢٧٧ م وحلف له الأمراء والعساكر ولكن الملك السعيد أساء السيرة وحبس معظم أمراء والده الكبار ، وحكم الأصاغر والخاصكية فى شأنه وقتل الأمير بدر الدين بيليك النائب ، وتغير على الأمراء وقلب لهم ظهر المجن فنفرت منه قلوب الأمراء مثل الأمير علم الدين سنجر الحلبى والأمير بدر الدين بيسرى وسيف الدين قلاوون وشمس الدين سنقر الأشقر — والمماليك الصالحية فإنهم كانوا يرون أنهم أحق من الظاهر نفسه بالسلطنة ، فصار ابنه « الملك السعيد يضع من أقدارهم ويقدم عليهم مماليك الأصاغر » ثم قبض الملك السعيد على شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسرى فدخل خال الملك السعيد الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان إلى أخته أم السلطان ، وقال لها « قد أساء ابنك التدبير بقبضة على مثل هؤلاء ، الأمراء الأكابر والمصلحة أو ترديه إلى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه ، فلما حدثته أمه فى ذلك اعتقل خاله ثم أفرج عنه والأمراء المذكورين بعد تدخل والدته ، ولكن بعد أن » تمكنت عداوته من قلوبهم » واتفق رأى الأمراء على مهاجمة السعيد بالقلعة والثورة عليه وبعثوا إلى السعيد « بأنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن » وانتهت هذه الحركة بالصلح بعد أن أقسم لهم السعيد على أنه لا يريد بهم سوءاً فرضوا وانصرفوا » ولكن الملك السعيد لم يغير سياسته فأشار عليه خاصكيته بإبعاد الأمراء الأكابر عنه فجهز جيشاً لغزو بلاد سيس فى ذى الحجة عام ٦٧٧ هـ أبريل ١٢٧٩ م بقيادة الأمير قلاوون الألفى والأمير بيسرى فساروا إلى سيس قلوبهم غاضبة فغزوا سيس وقتلوا وسبوا وعادو إلى الشام فأراد الملك السعيد الإيقاع بهم فساروا إلى مصر وحاصروا الملك السعيد ، فلما طال الحصار طلب السلطان وساطة الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد فقال الأمراء : يخلع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيه الكرك ، ثم خلع الملك السعيد نفسه فى السابع من ربيع الآخر ٦٧٨ هـ أغسطس ١٢٧٩ م وسافر إلى الكرك بعد أن اتفق الأمراء على أن يعطى الكرك

والشوبك ويذهب معه أخوه نجم الدين خضر فيكون الشوبك لخضر والكرك للملك السعيد ثم مات الملك السعيد فى الحادى عشر من ذى القعدة ٦٧٨ هـ/ مارس ١٢٨٠ م .

سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه :

استقر رأى الأمراء بعد ذلك على سلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس بعد أن عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون الألفى فامتنع وقال : « أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً فى السلطنة والأولى ألا يخرج عن ذرية الملك الظاهر » فاستدعوا سلامش وكان عمره سبع سنوات وبويع بالسلطنة وأقسم الجيش والأمراء على الولاء له وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون أتابكاً ومدبراً للمملكة ، وأقيم عز الدين أيبك الأفرم نائباً للسلطنة ولم يكن قصد قلاوون بامتناعه عن قبول السلطنة حرصاً على بقاء الحكم فى أسرة الظاهر وإنما أراد تسكين الفتنة خشية إثارة المماليك الظاهرية الذين كانوا يشكلون معظم الجيش ، وكانت القلاع والنيابات بيد نواب الملك السعيد ، ولذلك كان هدف قلاوون المهادنة ثم استغلال الظروف الملائمة للوثوب على سلامش ، وانتزاع السلطنة منه ، فقبض على أعيان الأمراء الظاهرية وأعضاء المعارضة « فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك » واستمال المماليك الصالحية وأعطاهم ، الإقطاعات والأموال فقوى بهم جانبه ، وجمع الأمراء فى العشرين من رجب ٦٧٨ هـ نوفمبر ١٢٧٩ م وتحدث معهم عن صغر .. سن السلطان وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لاتكون إلا برجل كامل فاتفق رأيهم على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش فخلعوه وأرسلوه إلى الكرك ، وكانت مدة ملكه مائة يوم ثم أعيد سلامش إلى مصر بعد ذلك وأرسل عام ٢٨٦ هـ / ١٣٨٧ م مع أخيه خضر وأهله إلى إستانبول وأقام بها حتى توفى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م .

الفصل الرابع

علاقات قلاوون الألفى وأسرته بالمغول

سلطنة سيف الدين قلاوون الألفى ٦٧٨ هـ – ١٢٧٩ م :

جلس قلاوون على تخت الملك فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب عام ٦٧٨هـ نوفمبر ١٢٧٩م[١] وحلف له الأمراء وأرباب الدولة تلقب الملك المنصور.[٢] فخرج عليه الأمير سنقر الأشقر وحلت عساكر وأمراء دمشق لنفسه وتلقب بالملك الكامل وقبض على حسام الدين الأمير نائب قلعة دمشق لأنه لم يحلف له وكذلك على جماعة من الأمراء[٣] .

وأصبحت الشام خارجة عن حكم السلطان قلاوون الذى اقتصر نفوذه على الديار المصرية وأعمالها ، ثم سارت القوات إلى دمشق وعدتهم ثلاثة آلاف فارس بقيادة الأمير حسام الدين ايتمش بن أطلس خان فى طلب الأمير سنقر الأشقر إلا أنه شعر بضعف مركزه وتفرق أتباعه وطلب النجدة من التتار فكتب إلى أبغا بن هولاكو يحثه على القدوم لفتح بلاد الشام والاستيلاء عليها . وكتب معه أيضاً الأمير عيسى بن مهنا بمثل ذلك فلما علما بمسير جيش دمشق إليهم سار سنقر الأشقر فى الصحراء إلى صهيون وتحصن بها[٤] وبذلك عادت بلاد الشام إلى حكم

---

(١) ذكر أنه جلس على سرير الملك فى ثانى عشر رجب ٦٧٨ هـ بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ وذكر فى البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨٩ أنه جلس فى الحادى والعشرين من رجب .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٦٣ – ٦٦٤ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٢، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٥٢ مرآة الجنان ج ٤ ص ١٨٩ ، المختصر ج ٤ ص ١٢ – ١٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٧٠ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٤والعبرة ج ٥ ص ٣٩٦، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٩، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٦٢/١٦٣ ، مرآة الجنان ج ٤ ص١٨٩ وتاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٥٥٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٧٧ – ٦٧٨، العبر ج ٥ص ٣٩٦ النجوم ج ٧ ص ٢٩٨ ، تتمة المختصر ج ٢ص ٢٢٧ ، تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٣ ، البداية النهاية ج ١٣ ص ٢٩٠ – ٢٩١ المختصر ج ٤ ص ١٣ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٧٢ .

Howorth, Part 3, P. 267 & The Mamluk Sultans P. 751.

السلطان مصر وترددت الرسل بين سنقر الأشقر والسلطان . وذلك بسبب وصول طلائع التتار ، وهجومهم على الشام ثم اتفق أخيراً فى ربيع الأول ٦٨٠هـ يونية ١٢٨١م مع الملك منصور على أن ينزل عن شيزر[1] ويعطيه الثغر وبكاس وتبقى معه الحصون وهى (صهيون وبرزيه وبلاطنس وإفامية وأنطاكية وكفر طاب)[2] . وأن تقتصر قواته على ستمائة فارس فقط ويطرد الأمراء الذين لحقوا به وتم الصلح وكتب له السلطان تقليداً بتلك الأعمال وولى على نيابة شيزر الأمير بلبان الطباخى ثم أرسل الملك المنصور جيشاً لحساب سنقر الأشقر عام ٦٨٦هـ ١٢٨٧م فاضطر الأخير إلى الاستسلام وقدم إلى مصر وأحسن إليه الملك المنصور إلا أنه كان يضمر الخيانة فقد انشق على السلطان قلاوون بعد قليل وكاتب التتار واستحثهم على غزو بلاد الشام وكذلك فعل الأمير عيسى بن مهنا ، فكان لهذه المراسلات الدافع الأساسى إلى غزو التتار لبلاد الشام هذه السنة . مستغلين انشغال السلطان بالمسائل الداخلية وكثرة تغير السلاطين واختلاف الكلمة ، وظنوا أن سنقر الأشقر ومن معه يتفق معهم على قتال المنصور قلاوون وكان أبغا ملك المغول يريد الانتقام لهزيمة جيشه فى موقعه الأبلستين وللملك فإنه حاول التحالف مع الصليبين هذه المرة، هذا بالإضافة أنه كان يريد تقديم المساعدة والنجدة لسنقر الأشقر ، فلما سارت قوات التتار فى ثلاث فرق الأولى وقد سارت من جهة بلاد الروم بقيادة صمغار وتنجى وطرنجى ، والثانية من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاى بن هرلاكو[3] وصحبته صاحب ماردين ، أما الفرقة الثالثة وفيها معظم الجيش فسارت مع منكو تمر بن هولاكو وبلغ عدد الجيش المغولى خمسين ألف فارس ومعهم صاحب سيس والأرمن ، فلما علم المسلمون بذلك استعدت قواتهم وخرج الأمير ركن

---

(١) قلعة تشتمل عليها كورة بالشام قرب المعرى بينها وبين حماة يوم فى وسطها نهر الأرنْد مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٢٦ .

(٢) صهيون حصن من أعمال حمص : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٨٩، وبلاطنس حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب — مراصد الاطلاع ج ١ ص٢١٥، وكفر طاب بلدة بين المعرة وحلب : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٧٠ وبرزية قرية فى غوطة دمشق مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٨٣ وأفامية مدينة حصينة من سواحل الشام مراصد الاطلاع ج ١ ص ٩٩ .

(٣) وذكر أنه بيدوا بن طرغاى بن هولاكو : تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٨٥ .

الدين إياجى على بعسكر من دمشق وانضم إليه العسكر المحاصر لشيزر (وكانت تابعة لسنقر الأشقر قبل الاتفاق معه) ثم سارت القوات من مصر بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمى واجتمعت هذه القوات فى ظاهر حماه وراسلوا الأمير سنقر الأشقر فى إخماد الفتنة وتوحيد الكلمة والوقوف فى وجه العدو وقالوا له : هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام والمصلحة أننا نجتمع على دفعه فأرسل إليهم عسكراً من صهيون أقاموا حول الحصن ، وبقى كل فريق فى جهته للدفاع ولم يختلطوا مع عسكر السلطان ، ووقع فى هذه الآونة الاضطراب فى بلاد الشام وخاصة مدينة حلب وشرع الناس فى الرحيل إلى الديار المصرية ، ثم تحركت قوات العدو وهاجمت أعمال حلب فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧٩هـ / أكتوبر ١٢٨٠م واستولوا على عين تاب وبغراس[1] ودربساك ، ثم دخلوا مدينة حلب وكانت خالية من العساكر بدون مقاومة، فقتلوا ونهبوا وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وأقاموا بها يومين يكثرون الفساد والقتل بحيث لم يسلم منهم إلا من اختفى فى المقابر ، ثم تركوها وخرجوا يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧٩هـ / أكتوبر ١٢٨٠م وعادوا إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب ، أما عن الأسباب التى أدت إلى رجوع التتار وعودتهم وانسحابهم من حلب فكان منها اتفاق الأمير سنقر الأشقر وعسكر الملك المنصور على قتالهم كما أن بعض من كان استتر بحلب يئس عن نفسه من الحياة فصعد مئذنة الجامع وكبر بأعلى صوته على التتار : «جاء النصر من عند الله» وأشار بمنديل إلى جيش المسلمين وأخذ يقول فى خلال ذلك : اقبضوهم من البيوت مثل النساء . فتوهم التتار من ذلك وخافوا وخرجوا من حلب على وجوههم ، ولعل من أسباب ارتدادهم وعودتهم أيضاً علمهم بوصول السلطان بقواته من مصر لقتالهم[2] وكان السلطان المنصور قلاوون قد جمع العساكر فى مصر وأنفق فى كل أمير ألف دينار وفى كل جندى خمسمائة درهم واستخلف على مصر ابنه الملك الصالح على وسار إلى غزة ، ثم قدم عليه من كان ببلاد الشام

---

(١) قلعة شمال حلب : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) إذ أن سنقر الأشقر ندم على تشجيعه التتار واتفق أخيراً مع السلطان وتحصن فى حصن صهيون ومعه أسرته — الحوادث الجامعة ص ٤١٢ .

من عسكر مصر وجماعة من أمراء سنقر الأشقر الذين تخلوا عنه فأكرمهم الملك المنصور ، وبقى السلطان فى غزة إلى العاشر من شعبان ٦٧٩هـ : ديسمبر ١٢٨٠م فلما علم بعودة التتار إلى بلادهم عاد إلى مصر بعد أن غاب عنها خمسين يوماً[1] وأمر السلطان الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نائب حصن الأكراد ، بغزو الفرنج بحصن المرقب[2] لمساعدتهم التتار عند دخولهم حلب ولمهاجمة الفرنج بلاد المسلمين فجمع الطباخى العسكر وحمل المجانيق والآلات ونازل حصن المرقب إلا أن الفرنج تغلبوا على المسلمين ومات من المسلمين حوالى مائتى فارس وراجل فعاد الملك المنصور من مصر بقواته فى أول ذى الحجة ٦٧٩هـ / مارس ١٢٨١م فخرج الفرنج إليه وطلبوا تجديد الهدنة ، وكانت قد انقضت فعقدت الهدنة فى يوم الأحد الثالث عشر المحرم ٦٨٠هـ / مايو ١٢٨١م وذلك بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين فى موقعة المرقب السابقة واشترط عليهم عدم التعاون مع التتار فى ظرف من الظروف[3] .

وفى سنة ٦٨٠هـ — ١٢٨١م علم أبغا بن هولاكو بأن أهل الشام يهاجمون حدود بلاد الروم وديار بكر ويدمرون تلك البلاد وينهبون غلالها ويثيرون الفتن ، فتألم لذلك وصمم على المسير إلى تلك البلاد فسار متصيداً ولم يعبر نهر الفرات ، وحاصر الرحبة ويمكن أن نضيف إلى ذلك مراسلات الأمير سنقر الأشقر إلى التتار والتى كان يستحثهم فيها على غزو الشام ، وكذلك كان الخلاف بين المماليك عاملا هاماً من العوامل التى دفعت التتار إلى الإسراع فى الغزو فسارت القوات المغولية وبلغ عددها ثمانين ألفاً بقيادة منكوتمر أخى أبغا بن هولاكو ودخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية والأبلستين ، فلما علم الملك المنصور قلاوون بذلك أرسل الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحركاته وأهدافه فقابلوا جماعة من العدو وأسروا واحداً منهم وأرسلوه إلى السلطان ، وكان السلطان قد وصل دمشق

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٨٣ ، النجوم ج ٧ ص ٣٠٠ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٢ .
Howorth, Part 3, P. 268.

(٢) قلعة من ناحية حمص . الأعشى ج ٤ ص ١٤٤ والمرقب قلعة بالقرب من ساحل البحر الأبيض ، صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٠ ، العبر ج ٥ ص ٣٩٧ .

فاستماله حتى أخبره بأن التتار في نحو ثمانين ألفاً سيهاجمون بلاد الشام في أول رجب ٦٨٠ أكتوبر ١٢٨١م فأخذ الملك المنصور يستعد واستدعى العساكر وحضر إليه الأمير أحمد بن حجي من العراق ومعه أربعة آلاف فارس بأسلحتهم، وحضرت النجدات من الملك المسعود خضر صاحب الشوبك ، ونجدات سائر العربان والتركمان ثم انقسمت قوات التتار فرقاً .. فرقة بقيادة أبغا ملك التتار وسارت إلى الرحبة ومعه صاحب ماردين وفرقة ثانية من جانب آخر بقيادة منكوتمر فخرج الأمير بجكا العلائي بالكشافة إلى جهة الرحبة في حين اضطربت بلاد الشام وجفل الناس إلى الجنوب حتى خلت حلب من أهلها[1] أما الملك المنصور فإنه سار بقواته التي بلغت نحو خمسين ألف مقاتل إلى المرج[2] ومنه إلى حمص ومعه الجيش ووصل إليها في الحادي عشر من رجب ٦٨٠هـ أكتوبر ١٢٨١م فلما علم به سنقر الأشقر صاحب صهيون حضر إليه على أن يعود إلى حصونه وأعماله بعد انتهاء القتال ومعه الأمير ايتمش السعدي وازدمر الحاج وسنجر الدواداري ، وبيجق البغدادي وكراي ، وشمس الدين الطنطاش ، وكل منهم بعساكره ، فسر الملك المنصور بذلك سروراً عظيماً، ثم تقدمت قوات المغول إلى عين تاب ، وهاجم أبغا بن هولاكو قلعة الرحبة في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٨٠هـ أكتوبر : ١٢٨١م بقوات بلغت ثلاثة آلاف فارس وسار منكوتمر بقواته حتى وصل إلى حماه وخرب المناطق المجاورة لها ،وعلم الملك المنصور وهو في حمص بأن منكوتمر تقدم بخمسين ألفاً من التتار وثلاثين ألفاً من الكرج والروم والأرمن والفرنجة[3] ، وعلم المنصور أيضاً بأن الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق هرب إلى منكوتمر وأخبره بأحوال المسلمين « ودله على عورات المسلمين » ورتب السلطان قواته في الصباح يوم المعركة ، وترآى الجمعان واستعد كل جانب للقتال ، وكان جيش المغول ضعف عدد جيش المسلمين ولم يكن التتار

---

(١) المختصر ج ٤ ص ١٤، تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٢٨ النجوم ج ٧ ص ٣٠٢ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩١ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٤ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٢١٣ .

(٢) تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٥٧ .

(٣) كان قائد الأرمن ملكهم ليون والكرج بقيادة ديمتري الثاني : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٢ حاشية ١ .

قد جمعوا منذ عشرين سنة مثل هـذا العدد تقدمت جحافلهم نحو المسلمين وبدأ القتال والتحم الفريقان بوطاة حمص — الأرض السهلة — قريباً من مشهد خالد بن الوليد ، وذلك يوم الخميس الرابع عشر من رجب ٦٨٠هـ أكتوبر ١٢٨١م واضطر المسلمون إلى الانسحاب أمام شدة الهجوم التترى واستمر القتال طوال النهار ، واجتاز المغول حمص حتى بحيرة حمص وكانت حمص قد أغلقت أبوابها فوقع التتار على العامة والسوقة والمجاهدين والغلمان بظاهر حمص ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأشرف الناس على التلاف فاضطرب الناس فى دمشق والشام وانزعجوا انزعاجاً شديداً وأما التتار الذين طاردوا المسيرة المنهزمة فإنهم أيقنوا أنهم انتصروا فنزلوا عن خيولهم وتركوها ترعى فى مرج حمص ونهبوا البلاد والخزائن وما وجدوه وهم يحسبون أن بقية جيش التتار سيصل إليهم ، فلما أبطئوا عليهم فى الوصول أرسلوا من يكشف لهم الأخبار فعادت كشافة هؤلاء التتار وأخبرتهم بأن منكوتمر قائدهم هرب فكروا راجعين فوراً . هذا ما حدث بالنسبة لميمنة التتار وميسرة المسلمين أما ميمنة المسلمين فإنها ثبتت أمام العدو وهزمت ميسرته حتى انتهت إلى القلب ، والكوسات تضرب ثم تقدم سنقر الأشقر وبيسرى وطيبرس الوزيرى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وايتمش السعدى ولاجين نائب دمشق وطرنطاى نائب مصر والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى وغير هؤلاء بعد أن ، تعاهدوا وتحالفوا على الجهاد ومعهم كثير من الأمراء والأجناد ، وعيسى بن مهنا وفرسانه ، وهاجموا التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان منكوتمر قائد الجيش التتار قائماً فى جيشه فنزل عن فرسه ونظر من تحت أقدام الخيول فرأى الأثقال والدواب تملأ وجه الأرض فاعتقد أنها عساكر المسلمين ولم يكن الأمر كذلك إذ تفرقت عساكر السلطان ما بين منهزم ومتقدم للقتال حتى بقى مع الملك المنصور نحو ثلثمائة فارس لا غير عندئذ ركب منكوتمر فرسه فوقع على الأرض فنزل التتار عن خيولهم لرؤيته والأطمئنان عليه ، فانشغلوا به فعندما رآهم المسلمون قد ترجلوا ، استغلوها فرصة وحملوا عليهم حملة واحدة «كان الله معهم فيها فانتصروا على التتار»[1] .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٥ النجوم ج ٧ ص ٣٠٤ ، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٢١٧ .
Howorth, Part 3, P. 272.

أما ميمنة التتار التى كسرت ميسرة المسلمين فإنها لما عادت من ناحية حمص كان الملك المنصور «قد أمر أن تلف الصاجق (الرايات) ويبطل ضرب الكوسات وذلك بسبب تفرق من كان معه ولم يبق معه إلا نحو الألف فارس [1] فمرت به عساكر التتار عائدة من جهة حمص وكوساته لا زالت تضرب ولم تتعرض له . فلما تقدموا عنه قليلا تبعهم بفرسانه فانهزموا هزيمة قبيحة لا يلوون على شىء وكان ذلك تمام النصر» . وكان ذلك عند غروب الشمس من يوم الخميس الرابع عشر من رجب ولحق هؤلاء المنهزمون بمنكوتمر ولو حدث أنهم قاتلوا المسلمين لما وجدو فيهم قوة فى ذلك الحين « ولكن الله نصر دينه وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم .

وأسفرت هذه الواقعة عن خسائر كثيرة فى الأرواح إذ قتل كثيرٌ من التتار وعاد السلطان إلى مكانه من أرض المعركة وكتب البشائر بالنصر ، وبات الملك المنصور تلك الليلة وهى ليلة الجمعة وهو فى منزله فى وقت السحر ثار صياح لم يشك الناس أن العدو قد تجمع وعاد لهم من جديد فاستعد السلطان وركبت العساكر على الفور فتبين بعد قليل أن العساكر الإسلامية التى تتبعت فلول التتار المنهزمة قد عادت ظافرة منتصرة وقتل من التتار فى الانهزام أكثر ممن قتل فى ميدان القتال ، واختفى كثير منهم بجانب الفرات ، فأمـــر السلطان المنصور بحرق المزروعات والأعشاب الموجودة بتلك الناحية فاحترق من العدو جماعة كثيرة وهلك منهم خلق كثير ممن سلكوا الطريق الصحراوية إلى سلمية وقتل من التتار صمغار أحد مقدميهم واستشهد من المسلمين نحو مائتى شهيد منهم الأمير عز الدين أزدمر الحاج الذى جرح منكوتمر مقدم التتار وألقاه عن فرسه ، فكان ذلك سبباً فى هزيمتهم ثم رحل السلطان يوم الجمعة الخامس عشر من رجب من ظاهر حمص إلى البحيرة (بحيرة حمص) وذلك ابتعاداً عن جيف ورمم القتلى التى تزكم الأنوف ، وخرج الأمير بدر الدين بيليك أيضاً لتتبع التتار .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٥، النجوم ج ٧ ص ٣٠٤ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٢٢٧ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٥ تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٤٢٤ دور الإسلام ج ٢ ص ١٤١ ٥ — The Mamluk Sultans, P. 751.
السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٥ .

أحوال دمشق ومصر أثناء موقعة حمص ٦٨٠هـ - ١٢٨١م :

ونتيجة لهجوم التتار على بلاد الشام اضطربت أحوالها . ولما اشتد خوف الناس اجتمعوا بأسرهم فى جامع دمشق وذلك فى الثانى عشر من رجب ٦٨٠هـ أكتوبر ١٢٨١م وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثمانى على رؤوسهم وخرجوا من الجامع إلى المصلى خارج دمشق وهم يسألون الله النصر على الأعداء وذكرنا أن ميسرة المسلمين المنهزمة أمام التتار قد وصل بعض من انهزم إلى صفد وغزة ودمشق ، فعظم خوف الناس واشتد اضطرابهم فلما كان يوم الجمعة التالى ليوم المعركة بعد صلاة الجمعة وصل الطائر بالبشائر بنصر الإسلام على التتار فدقت البشائر بقلعة دمشق وسر الناس سروراً عظيماً وزينت دمشق والقلعة ابتهاجاً بهذ النصر ، ولكن فى منتصف ليلة السبت السادس عشر من رجب ٦٨٠هـ / أول نوفمبر ١٢٨١م وصلت جماعة كثيرة من المنهزمين وأخبروا الناس بالهزيمة ولم يكن هؤلاء بلغهم خبر انتصار ميمنة المسلمين على ميسرة التتار ، فاضطربت دمشق وشرع الناس فى الاستعداد للرحيل ، وفتحت أبواب المدينة ولم يبق إلا خروج الناس منها على وجوههم هاربين . فوردت الأخبار بانتصار المسلمين وكان ذلك عند آذان الفجر وهدأت نفوسهم .

وأرسل نائب فاقون رسالة سريعة إلى مصر أخبر الأمراء فيها بأن جماعة المنهزمين فى ميسرة الجيش الإسلامى قد وصلو إلى فاقون ناجين بأنفسهم ، ووصل بعض الأمراء إلى قطيا فى الطريق إلى مصر منهم ابن الإيدمرى ، فشق ذلك على أهل مصر ، فأخذ الناس يقنتون فى صلاواتهم وكثرت قراءة صحيح البخارى والقرآن الكريم . ثم اجتمعوا فى المشهد الحسينى وفى الجوامع والمساجد وأخذوا يدعون الله بالنصر للإسلام ، ومما زادهم قلقاً ما جاء فى رسالة صاحب فاقون من انهزام العسكر الإسلامى فنهض الملك الصالح على بن قلاوون وأرسل على الفور فرقة من الجيش بقيادة الأمير صارم الدين أزبك الفخرى ، ومعه كثير من العربان إلى قطيا وذلك لمنع دخول أحد من المنهزمين إلى مصر وإعادتهم إلى السلطان وذلك حفظاً على شعور الناس وعدم إضعاف الروح المعنوية عند أهل مصر ، ولكن هذه الساعات

من القلق والخوف والاضطراب لم تستمر طويلا إذ وصلت البشائر تحملها الطيور المخلقة (١) بأن القوات الإسلامية حققت النصر على الأعداء بفضل الله وعونه ثم قدمت كتب البريد تحمل تباشير النصر فدقت بالبشائر فى القاهرة وزينت المدينة وكذلك باقى البلاد ، فأرسل الملك الصالح إلى السلطان يشفع فى المنهزمين ويطلب منه العفو عنهم .

وقام السلطان بإعادة الأمير سنقر الأشقر إلى حصن صهيون على عادته ، ورد معه من كان معه من الأمراء وهم أيتمش السعدى وسنجر الدواداري وكراوى التترى هذا بالرغم من عثور الأمير طرنطاى النائب على رسائل من سنقر الأشقر ويتمش السعدى يحرضون فيها التتار على غزو الشام ومساعدة سنقر الأشقر وأصحابه لهم ، ولكن السلطان لم يطلع عليها أحداً ثم عاد السلطان من منزلته بظاهر حمص إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب ٦٨٠هـ نوفمبر ١٢٨١م ، وعظم سرور الناس وفرحهم ثم سير السلطان المنصور الأمير بدر الدين بيليك الإيدمرى إلى الرحبة ليدفع عنها التتار ثم سار المنصور فى الثانى من شعبان ٦٨٠هـ نوفمبر ١٢٨١م متوجهاً إلى مصر فزينت القاهرة لاستقبال المنصور ، وخرج السلطان من غزة فى الثالث عشر من شعبان ، ولما اقترب السلطان من مصر خرج الملك الصالح والأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة إلى الاستقبال ثم دخل المنصور قلعة الجبل يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان ٦٨٠هـ ديسمبر ١٢٨١م وأسرى التتار بين يديه وقد حمل بعضهم الصناجق التترية وهى مكسورة وكان يوم دخول السلطان يوماً مشهوداً يتناسب مع الانتصار العظيم الذى أحرزه المسلمون على التتار « وحصل للناس السرور الذى لا مزيد عليه وعملت القلاع وزينت المدن » .

وفى الوقت الذى كان فيه أبغا بن هولاكو محاصراً للرحبة ، وصلت بشائر السلطان إلى نائبها تبشر بهزيمة التتار فى حمص ، فدقت البشائر فى القلعة ، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر كما قرر أبغا الرحيل فوراً إلى بغداد ووصل الأمير

---

(١) الطيور المخلقة هى المعطرة بالرائحة العطرية المسماة خلوق وكانت العادة فى نقل الأخبار الصادرة أن تسمح الطيور والبطائق التى تحملها بهذه المادة من العطور أما طيور الأخبار السيئة وبطائقها فكانت تلطخ بالسواد . السلوك ج ١ ق ٣ .

بدر الدين الإيدمرى إلى حلب وسير العساكر لتتبع التتار إلى الفرات فهربوا وغرق منهم عدد كبير ، وعبرت طائفة منهم إلى قلعة البيرة فقاتلم أهلها وقتلوا كثيراً ، وتقدمت البقية إلى بغراس ، وفيهم أكابر سيس وأمرائها فخرج عليهم الأمير شجاع الدين السينانى [١] بمن معه وهاجمهم ، « فقتلهم وأسرهم عن آخرهم بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين [٢] وتقدم من التتار إلى سلمية حوالى أربعة آلاف ، فكمن نواب الرحبة لهم فى المسالك والمعابر فاضطروا إلى المسير فى الصحراء « فماتوا عطشاً وجوعاً ولم يسلم منهم إلا نحو سمائة فارس « فلم ينجوا من الصحراء حتى خرج عليهم أهل الرحبة وقتلوا أكثرهم ، وأحضروا بعض الأسرى إلى الرحبة حيث قطعت رؤوسهم بها [٣] ولحق أبغا بقية التتار المنهزمين وفيهم أخوه منكوتمر وهو مجروح ، فلما دخل أبغا بغداد سار منها إلى همدان وسار منكوتمر إلى بلاد الجزيرة ونزل بجزيرة ابن عمر ، وكانت لأمه قد أعطاها إياها والده هولاكو كما أخذها [٤] ، ثم توفى أبغا غماً وكمداً إذ لم يكن أمر هذه الغزوة إلا تحقيقاً لرغبة منكوتمر بناء على تشجيع سنقر الأشقر ، والغالب أنه مات فى أواخر ٦٨٠هـ/مارس ١٢٨٣م ، وتوفى منكوتمر بعده فى المحرم ٦٨١هـ أبريل ١٢٨٣م ، وتولى الحكم من بعد أبغا أخوه تكدار بن هولاكو — أما سنقر الأشقر فإن السلطان أرسل إليه جيشاً حاصره فى حصن صهيون فاستسلم وبقى فى مصر إلى أن توفى السلطان وتولى الأشرف خليل فقبض عليه [٥] .

علاقة السلطان المنصور مع أحمد تكدار :

تولى عرش السلطنة ببلاد مغول فارس بعد وفاة أبغا أخوه تكودار سنة ٦٨١هـ ١٢٨٢م [٦] واتخذ له اسم أحمد واعتنق دين الإسلام قبل سلطنته واستهل عهده

---

(١) لعله نسبة إلى سينان وهى قرية من قرى مرو . السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ حاشية ٧ .

(٢) الدول والملوك م ٧ ص ٢٢١ إلى ٢٢٢ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٦ .

(٣) الدول والملوك م ٧ ص ٢٢٢ Howorth, Part 3, P. 273

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ — ٦٩٩ ، جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٨٤ .

(٥) المختصر ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٧ .

(٦) Howorth, Part 3, P. 286.

بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامى ، فأرسل كتبًا إلى فقهاء بغداد منها « وأنا جلسنا على كرسى الملك ونحن مسلمون ، فيلقون أهل بغداد هذه البشرى ويعتمدون فى المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد فى أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق إلى حقه فى أوقاف المساجد والمدارس ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية ، وأنتم يأهل بغداد مسلمون وقد سمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تزال هذه العصابة الإسلامية مستظهرة ظافرة إلى يوم القيامة)، وقد عرفنا أن هذا الخبر صحيح ورسوله صحيح ورب واحد أحد فرد صمد فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعًا » كما أرسل كتابا آخر إلى الملك المنصور سيف الدين القلاوونى أعلن له فيه رغبته فى حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه وأظهر رغبته فى السلام وعلاقات الود والصداقة مع الجيران المسلمين ، وكان السلطان تكودار أحمد أرسل كتابه إلى الملك المنصور قلاوون متضمنًا إسلامه وطلبه للصلح مع رسل وهم الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس وأتابك السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم الأمير بهاء الدين وشمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين بن التيتى فوصل هؤلاء الرسل إلى البيرة ، فسار إليهم الأمير حسام الدين لاجين الرومى ، والأمير سيف الدين كبلك الحاجبان وقد أمر المنصور « أن يبالغا فى الاحتراز على الرسل وإخفائهم عن كل أحد فسار بهم فى الليل ولم يشاهدهم أحد ووصلوا بهم قلعة الجبل ومعهم كتاب الملك أحمد أغا سلطان تكودار بن هولاكو ، وكان يتضمن أن أحمد تكودار قد تولى حكم التتار وأنه مسلم ،وأمر ببناء المساجد فى بلاده والمدارس والأوقاف كما أمر بمسير الحجاج إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة ، وطلب أيضًا اجتماع كلمة المسلمين وإخماد الفتنة والشقاق وإقرار السلام والوفاق،وذكر أيضًا أن أصحابه وجدوا جاسوسًا فى زى الفقراء فقبضوا عليه ومع ذلك فإنه لم يقتل بل أعادوه إلى بلاد الإسلام مراعاة للسلطان وليكون ذلك دليلا على حبهم فى السلام ورغبتهم فيه،وقال إنه لا داعى لإرسال الجواسيس بعد أن يتم الاتفاق وينعقد الصلح ويجتمع الصف ، وعاد رسل أحمد أغا سلطان (تكودار) وقد أكرمهم الملك المنصور ولم يعلم الناس بقدومهم وذلك ليلة السبت الثانى من رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م فوصلوا إلى حلب فى السادس من شهر شوال ٦٨١هـ ٨ يناير

١٢٨٣م[١] وعبروا الفرات وعادوا إلى بلادهم ومعهم رد السلطان الملك المنصور قلاوون الذى كان يتضمن تهنئة بالإسلام ، والموافقة على العمل من أجل الصلح والاتفاق ونبذ الحرب والطعان ، وقال قلاوون لرسل تكودار أحمد إنه أى قلاوون لا يثق إلا بكلام الشيخ عبد الرحمن لتدينه وصدق حديثه عن الملك أحمد أغا سلطان ووزيره صاحب ماردين[٢] وجهز هؤلاء الرسل وسار معهم الأمير سيف الدين كبلك المنصورى الحاجب وكان ذلك فى الثانى من شهر رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م . فوصلوا حلب فى السادس من شوال ومنها إلى بلادهم .

وفى شهر رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م قدم الشيخ على الأويراتى[٣] وكان قد أسلم على يديه بعض أولاد التتار فسار بهم إلى الشام ومصر ووصل إلى السلطان فى قلعة الجبل فى الثامن عشر من ذى القعدة ومعه إخوته الأقوش وعمر وطوخى وجوبان وجماعة غيرهم ، فأحسن الملك المنصور وفادتهم واستخدم بعضهم فى جملة مماليكه الخاصكية ، ثم نقل إلى الأمريات منهم الأقوش وتمر وعمر وهم إخوة إلا أن الشيخ على أظهر ما أوجب أن يسجن ، فسجن هو والأقوش ومات تمر وعمر فى خدمة الملك المنصور قلاوون وكان وصل من التتار إلى بلاد الإسلام تسعة عشر وافداً بأولادهم وسارت حملة عسكرية من قلعة كركر[٤] الحصار قلعة قطيبا[٥] وهى إحدى قلاع آمد فاستولوا عليها من التتار ، وأقيم فيها الرجال وعملت بها الأسلحة والغلال فعادت إلى حصون الإسلام المنيعة[٦] ثم أخذوا قلعة كختا[٧] من النصارى وذلك بطلب أهلها فتسلمها نواب السلطان بمدينة حلب

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ .

(٢) نص الخطاب بالملحق رقم ٢ .

(٣) نسبة إلى أويرات وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت أواسط آسيا وكانت خضعت لسيادة جنكيزخان وآزرته فى حروبه وتزاوجت بيوتها مع بيته وفى عهدة غازان رحل معظم هؤلاء إلى الدولة المملوكية : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ حاشية ٣ .

(٤) كركر هى اسم لعدة بلاد والمقصود بها هنا حصن قرب ملطية بينها وبين آمد مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٥٩ .

(٥) قلعة بالقرب من كركر وكانت فى يد التتار وفيها نوابهم ومنها خطورة كبيرة على قلعة كركر والثغور المجاورة لها : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ حاشية ٢ .

(٦) الشروق ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ .

(٧) قلعة شرقى ملطية تحت حكم الأرمن شمالى حلب . الأعشى ج ٤ ص ١٢٠ .

وشحنوها بالأسلحة والغلال وأصبحت جبهة ضد الأرمن » ..

أرسل السلطان أحمد تكودار رسولا من قبله هو الشيخ عبد الرحمن وقد حضر هذا الرسول بالذات لأن السلطان قلاوون لا يثق إلا فى كلامه ليقوم بإبرام الصلح بين الطرفين، فوصل إلى البيرة وعلى رأسه الجتر فتلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسى أحد أمراء حلب وكان مع الشيخ عبد الرحمن جماعة فى نحو مائة وخمسين نفراً ، ومنهم صمد أغوا والأمير شمس الدين محمد بن التينى المعروف ابن الصاحب وزين الدين صاحب ماردين وسار به فى طريق غير مطروق — حتى أدخله ومن معه إلى حلب ثم سار بهم إلى دمشق. فدخلها ليلة الثلاثاء الثانى عشر من ذى الحجة ٦٨٢هـ مارس ١٢٨٣م دون أن يراه أحد فأقام فى قلعة دمشق حتى حضر السلطان إلى دمشق فى سنة ٦٨٣هـ ١٢٨٤م . وقد قدموا للسلطان هدية نفيسة وأدوا رسالة الملك أحمد تكدار — وبعد أن عرف أخبرهم بأن موسلهم الملك أحمد أغا سلطان قد قتل على يد أرغون بن أبغا وملك البلاد بعده ثم أعادهم إلى قلعة دمشق وخفض ما كان يصرف لهم من الرواتب — وطلب إليهم تسليم ما معهم من مال السلطان أحمد أغا فأنكروا أن يكون معهم مال ففتشهم وأخذ منهم جملة كبيرة من الذهب واللؤلؤ من بينها سبحة للشيخ عبد الرحمن قدرت بمائة ألف درهم ثم اعتقلوا جميعًا ، ومات الشيخ عبد الرحمن فى الثامن والعشرين من رمضان ٦٨٣هـ ديسمبر ١٢٨٤م ثم أطلق سراح البقية ماعدا الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب فنقل إلى قلعة الجبل بمصر واعتقل بها ، ثم تولى نيابة دار العدل بمصر ويبدو أن ما فعله الملك المنصور مع هؤلاء الرسل كان نتيجة لوفاة أحمد أغا ثم للتأكد من شخصيات هؤلاء الرسل وصدقهم فيما قالوه بالإضافة إلى أنه غضب لإنكارهم لما معهم من مال السلطان أحمد تكودار ، ولهذا عاقبهم بالسجن وكذلك ساءت العلاقة بين المغول فى فارس والمماليك وعادت إلى سيرتها الأولى من حروب وتناحر ، وبذلك يمكن أن نقول إن العلاقات بينهم كانت علاقات تشاحن وتناحر تخللتها فترة سلم قصيرة هى فترة حكم أحمد تكودار التى كان من المحتمل أنها لو طالت لحققت للإسلام فترة سلم وتقدم . إلا أن تكدار أحمد أغا ملك التتار توفى ٦٨٣هـ — ١٢٨٤م .

ولقد كان هذا السلطان كما رأينا اعتنق الإسلام ورغب فى عقد أواصر الصداقة

بينه وبين سلطان المماليك والذى كان يمثل بحق فى تلك الفترة القوة الحامية للإسلام، ولقد أشهر أحمد تكدار إسلامه وإسلام أهله وكان إسلامه هذا أساساً لمفاوضات الصلح مع الملك المنصور قلاوون وإيجاد روابط الود بين الدولتين المغولية والمملوكية، إلا أن التتار لم تكن فكرة الصلح والتفاهم بالفكرة المقبولة لأذهانهم أو بالفكرة التى يرضوا عنها وكذلك كان تقبلهم للعقيدة الإسلامية إذ أنهم ما زالوا تشيع فيهم روح الهمجية والتخريب ، كذلك كانت الوثنية متسلطة على أذهانهم ، ومن ثم نقموا على تكدار لأنه أسلم ولإرغامه لهم على دخول دين الإسلام ، هذا بالإضافة إلى أنه فاوض الملك المنصور الذى كان فى نظرهم العدو اللدود إذ أن المغول لم ينسوا الهزيمة العظمى التى لحقت بهم فى موقعة حمص ٦٨٠هـ ١٢٨١م التى أعقبها وفاة أبغا ثم منكوتمر ، لهذا كله ثار المغول على السلطان أحمد أغاتكدار وقتاوه وكذلك فعلوا بنائبه الناق قائد جيشه وذلك بعد أن دارت بينه وبين خصومه الذين يتزعمهم أرغون بن أبغا معارك رهيبة طاحنة انتهت بقتل تكدار وسلطنوا عليهم أرغون بن أبغا الذى كان متزعماً لخصوم أحمد تكدار وكان ذلك فى العاشر من شهر أغسطس سنة ١٢٨٤/٦٨٣هـ ثم بدأ فى اضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه وتحكم فيهم وزيره سعد الدولة اليهودى وراح يقضى على ما للإسلام من مكانة وينهج سياسة أسلافه أو بمعنى أصح السياسة التقليدية للمغول وهى محاولة الاتفاق مع الصليبيين فى حلف لتحطيم قوة المماليك ، تلك القوة التى كانت تقف دائماً أمامهم وتحول دون تنفيذ أطماعهم . وأمام هذا التقارب الذى بدأ يلوح فى الأفق بين التتار والصليبيين قابله تقارب آخر بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية والذين كانوا يكنون العداء للتتار ، فى فارس ، وكذلك تحالف مع الإمبراطور البيزنطى وملوك فرنسا وجمهورية جنوة وإمبراطور الجرمان رودلف هاسبورج ولقد كان للسياسة العدائية التى انتهجها المغول فارس ضد الإسلام والمسلمين تركت جرحاً عميقاً فى قلوب المسلمين فى مصر والشام ، ولم يكتف أرغون بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين بل ذهب أبعد من هذا بأن راسل ملوك الغرب المسيحى والبابا . بل عرض على الأخير حق الاتجار والتنقل فى دولته ، ومن الواضح هنا أن القصد من هذا إضعاف تجارة المماليك والقضاء

على قوتهم فى الشام ، بل زاد على ذلك بأن أعلن عزمه على التنصر إلا أن محاولته كلها باءت بالفشل وإن كانت العلاقات العدائية بين الدولتين ظلت ، كما هى ، أضف إلى هذا تطلع المماليك إلى فتح العراق وذلك أيام الملك الأشرف خليل .

كان استقر رأى السلطان قلاوون على حصار عكا وفتحها ، ومن ثم أزمع السفر إلى بلاد الشام يريد حصار عكا وفتحها إلا أنه قبل أن يترك مسجد تبر بالقرب من المطرية ، أصابه المرض واشتدت به العلة ووافته المنية بمعسكره تجاه مسجد تبر خارج القاهرة وكان ذلك ليلة السبت السادس من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م فنقل إلى قلعة الجبل ليلا وعاد الأمراء والعساكر إلى بيوتهم ، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوماً وعمره نحو السبعين سنة وترك المنصور قلاوون ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد ، والأمير أحمد الذى مات فى سلطنة أخيه الأشرف خليل واستقر الرأى على أن يكون السلطان الأشرف خليل سلطاناً على البلاد فجلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد السابع من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م وجدد العسكر له القسم فى الثامن من ذى القعدة ٦٨٩هـ / نوفمبر ١٢٩٠م ثم خلع على سائر أرباب الدولة وركب بشعار السلطنة يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م[1] وجعل الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بمصر وجعل شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقى وزيراً ومدبراً للمملكة وعلى يد هذا السلطان تم استخلاص بلاد الشام نهائياً من يد الصليبيين وأتم انتصاراته تلك بالاستيلاء على عكا آخر معقل لهم بعد حصار ولم أربعة وأربعين يوماً وذلك فى جمادى الأولى ٦٩٠هـ مايو ١٢٩١م واتبع ذلك بالاستيلاء على باقى معاقلهم وهى صور وحيفا وعتليت وصيدا[2] .

أشرنا إلى عودة العلاقات الحربية بين المماليك عقب مقتل تكدرا أحمد أغا فسارت جماعة من التتار وأغاروا على الرحبة وأخذوا منها كثيراً من الماشية والدواب ، فخرجت إليهم القوات الإسلامية من دمشق وتمكنت من ردهم على أعقابهم

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٥٦ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣ – ٤ المختصر ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٦٤ – ٧٦٥ The Mamluk Sultans, P. 753 754.

سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م وكان السلطان الأشرف خليل قد خرج من مصر بقواته إلى الشام ، فسار إلى حلب ثم غادرها فى الرابع من جمادى الآخرة ٦٩١هـ مايو ١٢٩٢م لمحاصرة قلعة الروم، وكانت فى طاعة التتار ولأن أهلها كانوا يوادعون التتار ويحالفونهم ضد المسلمين «وقد سكن أهلها على مخادعة الجار وموادعة التتار وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال»(١) وقلعة الروم هذه ذات موضع حصين غربى الفرات مقابل البيرة ، فنصب الملك الأشرف عليها عشرين منجنيقا(٢) واستمر حصارها ثلاثة وثلاثين يوماً(٣) وفتحها عنوة يوم السبت الحادى عشر من رجب ٦٩١هـ / يونية ١٢٩٢م وسماها قلعة المسلمين وكان أهلها من النصارى تحت طاعة التتار(٤) وعاد السلطان إلى دمشق ثم إلى القاهرة فدخلها يوم الأربعاء الثانى من ذى القعدة ٦٩١هـ / أكتوبر ١٢٩٢م(٥) .

علاقة الأشرف خليل بالمغول فى فارس :

لم تكن حالة دولة مغول فارس فى هذه الفترة تسمح لها بمتابعة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الشام وبلاد الإسلام، وذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاستيلاء على العرش وكان كيختو (كيخاتو) ملك التتار الذى خلف أخاه أرغون سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م قد أسرف فى إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته حتى نضبت خزائنه مما أدى إلى ضعف دولته ، وبرغم ذلك فإنه بعث رسولا إلى الملك الأشرف خليل بكتاب يتضمن المطالبة بحلب لأن أباه هولاكو كان قد فتحها من قبل ويهدد بأنه إذا لم يسمح له بذلك غزا بلاد الشام، فأجابه السلطان الأشرف بأنه قد وافق القان ما كان فى نفسى فإنى — كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله فإنى أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت وسينظر أينا

(١) مرآة الجنان ج ٤ ص ٢١٩ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٨ شذرات الذهب ج ٥ ص ٤١٨ .

(٣) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٤) الدول والملوك ج م ٨ ص ١٣٦ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٨ ، الدول والملوك م ٨ ص ١٣٧ ، دولة بنى قلاوون ص ١٧٣ .

يسبق إلى بلاد صاحبه [1] وواضح من الرسالة مدى القوة التى كان يشعر بها الأشرف تجاه خصمه حيث تظهر فيها روح التحدى والمبادرة ،ومن ثم بادر بالكتابة إلى نوابه فى بلاد الشام بالاستعداد وتجهيز الجيش لهذا الأمر وكان ذلك فى عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م إلا أن هذه الاستعدادات لم يكتب لها أن تتم بسبب وفاة كل من السلطان الأشرف خليل ووفاة ملك التتار كيخاتو ٦٩٣هـ/١٢٩٤م إذ خرج بيدو على كيخاتو (كيختو) والتقى معه فى قتال شديد انتهى بمقتل كيختو، واستقل بيدو بالملك فخرج عليه نائب خراسان غازان بن أرغون وجمع الجيوش وقاتل بيدو حتى أخذ الملك منه [2] وقتل بيدو بعد معركة حامية قرب همدان ، وكان بيدو محباً للنصرانية وبذل كثيراً من الجهد لوضع العقبات فى سبيل نشر الإسلام بين المغول [3] .

مقتل الأشرف خليل ٦٩٣هـ – ١٢٩٣م :

كان بيدرا نائب السلطنة فى مصر وجماعة معه من الأمراء يدبرون مؤامرة للتخلص من الملك الأشرف خليل ، وانتهزوا فرصة خروجه للصيد وحين كان الأشرف فى صيده فاجأه المتآمرون بمفرده وقام بيدرا بضربه بسيفه ثم تقدم الأمير لاجين المنصورى وضربه ضربة كانت القاضية ، وكان الأمراء متآمرين للتمثيل بجثته وتمزيقها بسيوفهم وذلك فى يوم الاثنين الثانى عشر من المحرم ٦٩٣هـ ديسمبر ١٢٩٣م [4] وكان ذلك الحادث فى مكان يقال له تروجة بالقرب من الإسكندرية ثم نقلت جثته إلى مقبرة بالقرب من المشهد النفيسى ودفن بها وكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأيام ، واتفق رأى الأمراء المتآمرين على جعل الأمير بيدرا سلطاناً على

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٦ ، دولة بنى قلاوون ص ١٦٤ .

(٢) Howorth, Part 3,P 387.

(٣) تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٣٩ – ٢٤٠ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٧٤ .
Howorth, Part 3, P. 387 388.

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٩٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤١ ، العبر ج ٥ ص ٤٠٦ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٢٣ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥١ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠١ ، أخبار الأول ص ١٣٠ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٢٥ ، الدول والملوك م ٨ ص ١٦٨ المختصر ج ٤ ص ٢٩ مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٢٢ ، The Mamluk Sultans, P. 755.

البلاد ولقبوه بالملك القاهر أو الأوحد ، إلا أن تدبيرهم باء بالفشل إذ أن الأمير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى عارضوا ذلك وأجمعوا أمرهم على أن يولوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون .

رأينا كيف فشل تدبير الأمراء لتولية بيدرا سلطاناً واستقر الرأى على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن ثم اجتمعوا فى قلعة الجبل فى السادس عشر من المحرم ٦٩٣هـ/ ديسمبر ١٢٩٣م وأجلسوه على سرير السلطنة وأصبح الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً ومدبراً للمملكة ، ثم أقسمت العساكر للسلطان على الولاء ولكنه كان صغير السن ولم يكن له من السلطنة « إلا اسم الملك من غير زيادة على ذلك »[1] وسكن كتبغا بدار النيابة بقلعة الجبل واستبد الشجاعى بالوزارة وأصبح المتصرف فى أمور السلطنة ، وهابه الناس وقويت شوكته وأحب أن يستبد بالأمور كلها ومن ثم دبر المؤامرات للأمير كتبغا للقبض عليه ، واستطاع استمالة الأمراء البرجية والمماليك السلطانية وفرق فيهم نحو الثمانين ألف دينار سراً[2] وأعلن أن من يأتيه برأس أمير من أمراء كتبغا فإنه سيمنحه إقطاعه ، ولكن أحد الأمراء وهو سيف الدين قنغراتترى الوافد إلى مصر فى أيام السلطان الظاهر كان من جنس كتبغا فأخبره بما يكيده الشجاعى له ، وبدأ الصراع يلوح فى الأفق بعد أن كان يدبر فى الخفاء وانفض أنصار الشجاعى من حوله وانضموا إلى خصمه ، فكانت كفة كتبغا هى الراجحة ، وأمام هذا التحول لم يجد الشجاعى أمامه بداً من الاستسلام وطلب الأمان إلا أن الأمراء رفضوا الاستجابة لطلبه وانتهى الأمر بمقتله على يد أحد المماليك[3] ثم فتح باب القلعة وقعد كتبغا والأمراء فى القلعة ودقت البشائر بانتهاء الفتنة وذلك فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر ٦٩٣هـ/ يناير ١٢٩٤م[4] ، ولم يمض طويل وقت حتى ثار المماليك الأشرفية فى القاهرة بسبب ظهور أحد المماليك الذين شاركوا

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٩٤ ، النجوم ج ٨ ص ٤١ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠٢ المختصر ج ٤ ص ٣٠ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٢٥ — ٢٨ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٠١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠١ العبر ج ٥ ص ٤٠٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٢ .

فى قتل أستاذهم الأشرف خليل وهو الأمير حسام الدين لاجين ، وبعد أن قضى كتبغا على الثوار اجتمع مع الأمراء وحدثهم عن صغر سن السلطان وأن الأمور لابد لها من سلطان رشيد تخافه الجند والرعاية وتحترم أوامره ونواهيه ، ومما لاشك فيه أن هذا الأمر كان بتدبير الأمير حسام الدين لاجين ، لأنه كان يخشى من انتقام المماليك الأشرفية ثأراً لأستاذهم ولذلك حسن للأمير كتبغا عزل الناصر وخوفه من الأشرفية حتى وافق على رأيه واتخذ من ثورة المماليك الأشرفية سبباً مباشراً لتحقيق هدفه واتفق القضاة والخليفة والأمراء على خلع الناصر محمد من السلطنة ، وتسلطن كتبغا وجلس على تخت الملك وكان ذلك فى يوم الخميس الثانى عشر من المحرم ٦٩٤هـ/ ديسمبر ١٢٩٤م[1] وهو نفس اليوم الذى خلع فيه الملك الناصر محمد وكان عمره يوم أن خلع حوالى عشر سنين ثم أرسله لاجين إلى الكرك فى شهر صفر ٦٩٧هـ/ نوفمبر ١٢٩٧م[2] أما السلطان الجديد فهو الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصورى التركى المغلى وهو من سبى التتار فى موقعة حمص الأولى عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م وأصبح الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة بمصر .

الأحوال السياسية فى فارس :

كانت تطورات الأحداث فى مصر فى تلك الفترة كما أشرنا فماذا عن بلاد فارس ؟ ذكرنا أن كيخاتو بن أبغا بن هولاكو الذى تولى الحكم بعد أخيه أرغون سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م قتل هو الآخر عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م على يد ابن عمه بيدو بن طرغاى بن هولاكو ، وكان غازان بن أرغون بن أبغا نائباً على خرسان فى ذلك الوقت ، فخرج وثار على بيدو وحاربه حتى قتله ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م وأخذ السلطنة منه وكان ذلك عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م وقد اعتنق هذا السلطان الدين الإسلامى وقيل إنه أسلم على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم وقد قالوا أيضاً على يد الشيخ إبراهيم الجوينى وذكر أن غازان أسلم على يد نائبه نيروز ، ولفظ بالشهادتين ونثر الذهب بهذه

---

(١) ذكر فى السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٦ أنه جلس على عرش السلطنة فى الحادى عشر من المحرم عام ٦٩٤ هـ وذكر أيضاً أنه تسلطن يوم الأربعاء التاسع من المحرم ٦٩٤هـ المختصر ج ٤ ص٣١ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٣٣ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٣٢، ٨٣٣ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ — ٥٠ .

المناسبة على الناس « وكان يوماً مشهوداً » ثم لقنه نيروز شيئاً من القرآن ودخل رمضان فصامه وانتشر الإسلام فى التتر وكان غازان قد نذر بين يدى هذا الوزير أن يعتنق الإسلام إذا انتصر على بيدو ، فلما تحقق له النصر نفذ وعده بمساعدة عالم كبير يدعى الشيخ صدر الدين إبراهيم ، ثم شرع فى هدم الكنائس والبيع ومعابد الأوثان فى تبريز ، وجعل غازان من الدين الإسلامى الدين الرسمى لدولته .

وصول التتار الأويرانية إلى بلاد الإسلام :

كانت الأسباب التى أدت إلى رحيل هؤلاء الأويرانية إلى بلاد الإسلام تكمن فى الخلافات السياسية والصراع الداخلى الذى حدث فى السنوات العشر الماضية بين المغول فى فارس ، وكما أشرنا أن بيدو بن طوغاى بن هولاكو قتل فى ذى الحجة ٦٩٤هـ/ أكتوبر ١٢٩٥م على يد فازان الذى تملك البلاد من بعده ، وكان طرغاى اتفق مع بيدو على قتل كنمتو بن أبغا فلما ملك غازان البلاد أراد أن يقتل طرغاى ليثأر لعمه كنمتو مما دفع طرغاى للهرب منه ، وفى الوقت نفسه تخوف الأويرانية من غازان وخشوا أن يبطش بهم ، وكان غازان أمر بعض جنوده بالقبض على طرغاى وأصحابه قبل أن يدخلوا بلاد الإسلام ووقع القتال بينهم وبين بولاى مقدم التتار فانتصر طرغاى عليه وقتل أكثر من كان معه[1] وسار طرغاى وجماعته نحو بلاد الإسلام ثم عبروا الفرات فكتب كتبغا إلى نائب الشام أن يسير الأمير علم الدين سنجر الدوادارى إلى الرحبة لاستقبالهم فخرج من دمشق لهذا الغرض وخرج بعده من دمشق الأمير سنقر الأعسر شاد الدواوين ، وخرج من القاهرة الأمير قراسنقر المنصورى ، فوصل دمشق ووجد أعيان الأويرانية صحبة الأمير سنقر الأعسر وعدتهم مائة وثلاثة عشر رجلا ومقدمهم طرغاى واحتفلوا بهم فى دمشق وأحسنوا استقبالهم وهناك اتفق رأى الأمراء مع العادل كتبغا على إحضار أكابر الأويرانية إلى مصر وتوزيع باقيهم على بلاد الساحل بالشام ، وكان مجموعهم نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو ملك التتار فاختاروا من بينهم نحو ثلثمائة للقدوم إلى

---

(١) قيل إنه زوج بنت هولاكو : السلوك ج ١ ق ٣ ص٨١٢ وقيل أيضاً إنه زوج ابنة منكوتمر ابن هولاكو الذى هزم جيشه فى موقعة حمص/ المختصر ج ٤ ص ٣٣ .

مصر والبقية وزعت على بلاد الساحل وسار الأمير قراسنقر بهم إلى مصر ، ولما اقتربوا من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم ، واجتمع الناس من كل صوب وحدب لمشاهدتهم وساروا إلى قلعة الجبل فأنعم السلطان على مقدمهم طرغاى بإمرة طلخانة وعلى البقية أعطاهم الإقطاعات والرواتب وأنزلوا بالحسينية ولم يكونوا دخلوا فى الإسلام بعد ، فشق ذلك على الناس وتضرروا منهم ، وصادف ذلك غلاء عظيم واشتد الأمر على الناس وقال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار :

ربنا اكشف عنـــا العذاب فإنـــا قـــد تلفنا فى الدولة المغليـــة

جاءنا المغـــل والغلاء فانسلقنـــا وانطبخنـــا فى الدولة المغليـــة

وأهل شهر رمضان عام ٦٦٥هـ/ يولية ١٢٩٦م فلم يصم أحد منهم فأخبر الأمراء السلطان بذلك « فأبى أن يكرههم على الإسلام ومنع من معارضتهم ونهى أن يشوش عليهم أحد وأظهر العناية بهم وقد كان مقدمهم طرغاى والسلطان كتبغا قد تزوجا من بنات هولاكو فى أيامهم الأولى[١] وكان السلطان يريد الاستعانة بهم وأن يكونوا عوناً له على خصومه فبالغ فى احترامهم وإكرامهم وأعطاهم الكثير من الحرية مما أثار الحقد فى نفوس بعض رجال الدولة لأن الأبرانية كانوا من جنس كتبغا وتزوج الأمراء من بناتهم لجمال خلقتهم ، وتكاثر نسلهم فى القاهرة ، وحضر بعضهم من بلاد الشام وتنافس الأمراء فى اقتنائهم مما أدى فيما بعد إلى خلع الملك العادل كتبغا بسببهم إلى جانب عوامل أخرى ، وذلك فى عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[٢] وتسلطن بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين فقبض على طرغاى مقدم الأوبرانية وعلى جماعة من أكابرهم وأرسلهم إلى الإسكندرية وسجنهم بها ، ثم فرق جميع الأبرانية على الأمراء ، واستخدموهم وجعلوهم من جندهم وكانوا يوصفون بالجمال وحسن الصورة والهيئة ، ثم دخلوا فى الإسلام واختلطوا بأهل البلاد وتفرقوا فى الممالك[٣] .

---

(١) الدول والملوك ج ٨ ص ٢٠٤ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٢ حاشية ٢ .

(٢) الدول والملوك م ٨ ص ٢٠٥ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٨١٢ – ٨١٣ ،النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٠ ،الخطط ج ٢ ص ٤٣٧ =

سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين :

كان السلطان العادل كتبغا فى بلاد الشام وسار منها راجعاً إلى مصر فى المحرم ٦٩٦هـ/ نوفبر ١٢٩٦م ، وكان الأمير حسام الدين لاجين المنصورى نائباً للسلطنة وقد اتفق مع جماعة من الأمراء على الفتك بالملك العادل كتبغا عند عودته فبدأ ذلك بالقبض على أنصار كتبغا فلما علم الأخير عند عودته بما دبر لاجين ضده وأدرك أن ليس فى وسعه مقاومته لاتفاق الأمراء معه ولذلك فضل العودة إلى بلاد الشام ومعه أربعة أو خمسة من خواصه[1] ، ودخل دمشق آخر المحرم أما الأمير حسام الدين لاجين فإنه اجتمع بالأمراء وأقسموا له على الطاعة وتسلطن ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين ، ثم خطب له فى مصر ثم بالشام ، بعد ذلك ، فلما تحقق الملك العادل من سلطنة لاجين واجتماع الأمور فى يده ، اجتمع بأمراء دمشق وقال لهم «الملك المنصور لاجين خشداشى وأنا فى خدمته وطاعته»[2] ثم كاتب كتبغا الملك المنصور وانتهى ذلك الحال بأن خلع كتبغا نفسه من الملك واشترط على نفسه الامتناع عن الثورة أو التآمر ضد السلطان ، ومنحه لاجين قلعة صرخد فسار إليها بأسرته ومماليكه فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول ٦٩٦هـ/ يناير ١٢٩٧م[3] وكتب له المنصور لاجين تقليداً بنيابة صرخد أما الملك المنصور ، حسام الدين لاجين المنصورى المعروف بالصغير فإنه اجتمع معه الأمراء وشرطوا عليه شروطاً قبل مبايعته بالسلطنة منها أن يكون معهم كأحدهم ولا ينفرد برأى دونهم ولا يبسط أيدى مماليكه ولا يقدمهم عليهم وحلفوه على ذلك مرتين ، وأقسم له الأمراء وأرباب الدولة بعد ذلك وركب بشعار السلطنة فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم ٦٩٦هـ/ نوفمبر ١٢٩٦م حدث ذلك فى أيزور بفلسطين

= البداية والنهاية ج ١٣، ص ٣٤٣، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٣٨–٣٩ ، الدول والملوك م٨ ص ٢٠٤ – ٢٠٥ تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٤١ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٢٩ .

(١) تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٠ – ٤١، المختصر ج ٤ ص ٣٤ ، النجوم ج ٨ ص ٦٤ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٨ – ٨٢٠ .

(٢) النجوم ج ٨ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٣ ق ٨٢٥، ٨٢٦، النجوم ج ٨ ص ٦٧، ٦٨، العبر ج ٥ ص ٤٠٩ .

ومنها خرج إلى مصر فخرج إليه أمراء مصر لاستقباله حيث حلف لهم يمين الولاء وحلفوا له وركب شعار السلطنة على عادة الملوك والسلاطين[١] وذلك فى الخامس عشر من صفر ٦٩٦هـ/ ديسمبر ١٢٩٦م وجعل نيابة السلطنة بمصر للأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، وجعل الأمير سيف الدين قبجق المنصورى نائباً على الشام[٢] إلا أن السلطان لاجين أراد إقامة مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى فى نيابة السلطنة مما أغضب الأمراء وأثار معارضتهم مما أثار حنق السلطان عليهم ، وقرر تفريق الأمراء المعارضين فى البلاد وقبض على البعض الآخر وولى منكوتمر النيابة فى العشرين من ذى القعدة ٦٩٦هـ/ سبتمبر ١٢٩٧م[٣] ولكن منكوتمر استبد بالأمر وأخذ يقبض على الأمراء وأساء السيرة مما أثار غضب الأمراء على السلطان إذ كان منكوتمر مسيطراً على السلطان[٤] ولم يكتف منكوتمر بذلك بل أشار على السلطان بتسيير الجيش والأمراء إلى بلاد سيس لغزوها مستغلا انشغال المغول بخلافاتهم الداخلية بسبب اعتناق غازان للإسلام وجعله دين الدولة الرسمى ، وهدمه معابد الديانات الأخرى مما أدى إلى قيام ثورات وفتن ومؤامرات فى بلاده واضطر السلطان إلى الموافقة على إرسال الحملة إلى بلاد سيس أمام إلحاح منكوتمر ومن الواضح أن غرض منكوتمر من إيفاد هذه الحملة كانت رغبته فى التخلص من الأمراء الذين يشكلون جانب المعارضة له والذين كان يخشى من وجودهم وكان قد أشيع فى مصر أن المغول يعدون العدة لغزو بلاد الشام[٥] .

غزو بلاد سيس :

رأينا مما سبق أن بلاد التتار فى تلك الفترة كانت تعانى من الاضطرابات والمنازعات الداخلية ، فقد كان مغول القفجاق فى نزاع بين طفقطوخان ملك

---

(١) السلوك ج ١ ص ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، النجوم ج ٨ ص ٩٩ ، المختصر ج ٤ ص ٣٤ .
(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٢٣ .
(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٢٩ .
(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٤٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٦ .
(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٣٣ حاشية ٣ ، ٤ .

Howorth, Part 3, P. 431.

القفجاق وبين قريبه نوغاى ذلك الصراع الذى انتهى بهزيمة نوغاى وسيطرة طقطو على البلاد ، واستمر فى الحكم حتى عام ٧١٢هـ/ ١٣١٣م وكذلك كان الحال بين مغول فارس فإن غازان قتل وزيره نيروز وذلك لأنه كان مستوحشاً من سلطانه غازان وقام بمكاتبة السلطان لاجين يطلب منه العون والمساعدة ضد غازان إلا أن الأخير اكتشف هذه المراسلات فأرسل إلى قطلو شاه نائب حران يطالب منه القبض عليه وقتله ، وبعد ذلك قتل غازان أخويه وجماعة ممن يلوذون بهم فى بغداد[1] حتى يقضى على كل معارضة . ونتيجة لما تقدم قرر السلطان المنصور لاجين إرسال حملة عسكرية إلى بلاد سيس لأخذها لأنها كانت تخضع للنفوذ المغولى الفارسى ويضاف إلى ذلك رغبة السلطان لاجين ونائبه منكوتمر فى التخلص من الأمراء المعارضين لهم بإرسالهم إلى خارج مصر ليأمن شرهم ومن ثم قرر السلطان أن يسير الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ومعه ثلاثة أمراء وعشرة آلاف فارس وكذلك كتب السلطان إلى نائب الشام يأمره بتدريب الأمير بيبرس الجالق وبعض أمراء دمشق وصفد وحماة وطرابلس لغزو سيس وعرضت القوات العسكرية فى شهرجمادى الأولى ٦٩٧هـ/ فبراير ١٢٩٨م ولما تم الاستعداد وتكاملت القوات تقدم من مصر الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ومعه من الأمراء مسلم الدين لاجين الروخى الاستادار وشمس الدين آق سنقر كرتاى .وعساكرهم وسار معهم من دمشق الأمير الجالق العجمى والأمير سيف الدين كجكن ، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان وعساكرهم ، وسار الجميع فى الثامن من جمادى الآخرة ٦٩٧هـ/ مارس ١٢٩٨م ومعهم عسكر صفد وحمص وبلاد الساحل وطرابلس والملس المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه فلما علم ملك سيس بمسير الجيش الإسلامى إليه طلب من السلطان لاجين العفو ولكن السلطان لم يجبه : وما إن وصلت القوات الإسلامية إلى حلب لحق بها من مصر الأمير علم الدين سنجر الدواداری بعسكره ، ثم سارت القوات إلى جهة سيس فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش بفرقة من الجيش من عقبة بغراس إلى الإسكندرونة حتى هاجموا تل حمدون[2]

---

(١) العبر ٥ ص ٤١١ .

(٢) وهى قلعة ببلاد الأرمن : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٦ .

هذا فى الوقت الذى سار فيه الملك المظفر صاحب حماة والأمير علم الدين سنجر الدواداري وشمس الدين آق سنقر كرتاى فى بقية الجيش إلى نهر جيحان وساروا جميعاً إلى سيس ، وكان ذلك فى الرابع من رجب ٦٩٧هـ/ أبريل ١٢٩٨م وهناك وقع الاختلاف بين الأمراء فى خطة الهجوم إذ أن الأمير سنجر الدوادارى أراد أن يكون الهجوم مجرد غارة بقصد بث روح الخوف فى نفوس أهل سيس وأراد أن يكون قائداً عامًّا للجيش فى حين رأى الأمير بكتاش بحصار ومنازلة القلاع ، وتم الاتفاق أخيراً على القيام بالغارة فقط ، فأغار صاحب حماة المعظم على سيس وأغار الأمير بكتاش على أذنه[1] فأخذوا منها الدواب وقتلوا من ظفروا به من الأرمن ثم ساروا إلى المصيصة وأقاموا عليها ثلاثة أيام . ثم ساروا إلى بغراس ونزولوا بمرج أنطاكية ثلاثة أيام ، ثم ساروا إلى جسر الحديد يريدون العودة إلى مصر ، وكان الأمير بكتاش قد أرسل إلى صاحب حلب يخبره باكتفاء الدوادارى بالإغارة دون المنازلة والمقاتلة فأرسل نائب حلب بذلك إلى السلطان فغضب علم الدين سنجر الدوادارى وأرسل لهم أن مقدم الجيش هو الأمير بكتاش[2] وأمرهم بعدم العودة إلا بعد فتح تل حمدون وهددهم بأنهم إن عادوا من غير فتحها حرموا من إقطاعاتهم بمصر ،وأمام هذا الأمر الذى أصدره السلطان اضطرت القوات إلى العودة إلى سيس وساروا إلى سيس من عقبة بغراس وسارت فرقة من الجيش بقيادة كجكن وقرا أرسلان إلى إياس إلا أنها هزمت بسبب كمين أعده الأرمن فى البساتين المجاورة . ثم سار بكتاش بجميع القوات إلى تل حمدون ، وقد نزح من بها من الأرمن إلى قلعة نجيمة[3] فتسلمها فى السابع من رمضان ٦٩٧هـ/ يونية ١٢٩٨م[4] ثم استولوا على قلعة مرعش ثم تقدمت القوات مع بكتاش إلى نجيمة وجاء البريد من السلطان بمنازلة قلعة نجيمة حتى تفتح يحاصروها من جديد ونازلها الأمراء كل أمير على حدة وأمام نقص الماء والمؤن بسبب الحصار حتى

---

(١) أذنه هنا بلد من الثغور قرب المصيصة : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٨ .

(٢) Howorth, Part 3, P. 431 432.

(٣) وهى قلعة على الفرات من الناحية الغربية بينها وبين جسر منبج خمسة عشر ميلا صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٧ .

(٤) Howorth, Part 3, P. 431.

إنهم تقاتلوا فيما بينهم من أجل الماء وأخيراً اضطروا إلى طلب الأمان فاستسلمت بعد حصار دام ٤٠ يوماً وذلك فى ذى القعدة ٦٩٧هـ/ أغسطس ١٢٩٨م[١] فخرج من بقى بها من الأرمن إلى حيث شاءوا ، ثم استولى المسلمون على أحد عشر حصناً من حصون الأرمن[٢] ثم سلم هذه الحصون الأمير بكتاش إلى الأمير سيف الدين اسندمر كرجى من أمراء دمشق وعينه نائباً عليها ، ولم يزل بها كرجى حتى قدم التتارفباع ما فيها من الغلال والحواصل ونزح عنها فأخذها الأرمن ثانياً[٣] وعادت القوات إلى الشام وساروا من دمشق إلى حلب وأقاموا هناك مع الجيش وبعث صاحب سيس يطلب العفو من السلطان[٤] ويبدو أن السلطان لاجين لم يكن يرغب فى عودة الجيش والأمراء إلى مصر فنراه يحاول إشغالهم بغزو سيس لأطول فترة ويطالب معاودة الغزو وإلا قطع أرزاقهم وإقطاعاتهم وكل ذلك تنفيذاً لرغبة نائب السلطنة منكوتمر . .

ومن الواضح أن الأمير منكوتمر نائب السلطنة كما سبق أن ذكرنا كان يرغب فى التخلص من الأمراء المعارضين فى مصر والشام وإقامة غيرهم من مماليك السلطان وأصحابه[٥] وكان يطمع فى أن يكون ولى عهد السلطان لاجين ولقد تذمر الأمراء من تفكير نائب السلطان فى هذا الأمر . وموافقة السلطان عليه وكان لاجين قد قصد التخلى والراحة[٦] والدعة ، ولذلك فإن منكوتمر اضطره إلى القبض على على أمراء مصر ثم أراد الإيقاع بأمراء الشام ولذلك أرسل الأمير إيدغدى شقير ثم الأمير حمدان بن صلغاى معه أوامر إلى نائب حلب للقبض على بعض الأمراء ومن عجز نائب حلب عن القبض عليه احتال عليه وسقاه سماً ، وصل حمدان ابن صلغاى إلى دمشق ثم سار إلى حمص وصادف بها الأمير قبجق نائب الشام

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤٠، ٨٤١ العبر ج ٥ ص ٤١٠ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٦٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ ، المختصر ج ٤ ص ٣٥ - ٣٧، العبر ج ٥ ص ٤١٠ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٢ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٢ حاشية ٢ .

وكان قد خرج بالجيش لفتح بلاد سيس واجتمع به فتخيل قبجق من قدومه [١] وخصوصًا بعد وصول جماعة من جهة التتار وأخبروا قبجق بأن التتار رحلوا إلى بلادهم فزاد ارتياب قبجق فى السلطان ومنكوتمر [٢] فبعث قبحق إلى الأمير بكتمر السلاح دار وغيره من الأمراء يوصيهم ويحزرهم . ومن ثم أرسل رسولا إلى أصحابه الأمراء فى مصر لاستطلاع حقيقة الأمر ، ولما قدم حمدان بن صلغاى إلى حلب وأخبر الأمير بلبان الطباخى نائبها بالأمر . «توقف» فيه فأخذ الأمير حمدان والأمير إيدغدى شقير يحرضانه ويستحثانه على إلقاء القبض على الأمراء ، وحدث أن مات الأمير طقطاى واتهم الأمير حمدان بن صلغاى بقتله بالسم ، وأرسل حمدان إلى منكوتمر فى مصر يخبره برفض صاحب حلب القبض على الأمراء ، فكتب منكوتمر إلى نائب حلب يأمره بتنفيذ الأمر . إلا أنه برغم ذلك أخفقت مؤامرة القبض على الأمراء بسبب تخاذل نائب حلب وأدرك هؤلاء الأمراء سوء نية السلطان ونائبه واجتمع سيف الدين بكتمر السلاح دار والأمير فارس الدين الألبكى والأمير سيف الدين عزاز وغادروا حلب وصاروا إلى حمص للاجتماع بالأمير قبجق فلما وصلوا إليه استقبلهم واستقر رأى الجماعة على الخروج من بلاد الشام والدخول فى بلاد التتار ولكن الأخير طلب إليهم الانتظار حتى يصل إليه الخبر من مصر بحقيقة ما دبر السلطان ومنكوتمر لهم فورد الخبر من أصدقائه الأمراء فى مصر وهم كرجى وطغجى بالانتظار فى الشام فلم يوافق بقية الأمراء خشية وصول الجيش إليهم فلا يستطيعون الهرب إلى بلاد المغول ، فسارت . فى ليلة الثلاثاء الثامن من شهر ربيع الآخر ٦٩٨هـ / يناير ١٢٩٩ م وساروا إلى سلمية وكان قد تبين للأمير قبجق تفرق عساكره عنه عندما علموا بمخالفته للسلطان وتركوه وساروا إلى دمشق ولذلك عزم على المسير مع الجماعة إلى بلاد التتار [١] ، فلما علم إيدغدى شقير وحمدان بن صلغاى بمسير الخصوم المطلوبين للسلطان إلى بلاد التتار كتبوا

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٣ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢ .Howorth, Part 3, P. 432

(٢) تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٦ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢ العبر ج ٥ ص ٤١١ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٤–٨٥٥ بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ المختصر ج ٤ ص ٣٧ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٨ تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٦٨ . Howorth, Part 3, P. 432.

رسائل إلى الجهات الواقعة على الفرات يطلبون من نوابها القبض على الأمراء الهاربين ، وسار الأمير إيدغدى بجيش إلى الفرات وتقدم جيش آخر ناحية حماة وصودرت ممتلكات الأمراء المنشقين ووصل الأمير إيدغدى والأمير سيف الدين كجكن إلى نهر الفرات فى طلب الفارين فوجد الأمراء قد قطعوا الفرات إلى رأس عين وفى هذه الآونة وصلت الأخبار إلى حلب بقتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر اللذين تسببا فى هروب الأمراء إلى بلاد التتار فركب سيف الدين بلبان خيل البريد ولحق بالأمير قبجق برأس عين وأخبره بقتل السلطان ونائبه وطلب إليه وأصحابه الرجوع إلى الشام ولكن قبجق ظن أن ذلك حيلة فلم يرجع .

أما قتل السلطان ونائبه فأسبابه أن الأمير طغجى عاد من الحجاز فى أول شهر صفر عام ٦٩٨هـ نوفمبر ١٢٩٨م فطلب إليه منكوتمر المسير إلى نيابة طرابلس باعتبار أنه لايصلح للنيابة فأخبر طغجى الأمير سيف الدين كرجى الأشرفى بذلك وحدث السلطان أن يثنى عزمه على تسيير طغجى إلى طرابلس ، فأعفاه السلطان فغضب منكوتمر من ذلك وحقد منكوتمر على كرجى وطغجى ، وحدث أن وصل رسول الأمير قبجق إلى كرجى وطغجى من بلاد الشام للاستعلام مادبر السلطان ونائبه للأمراء فى الشام ، فاتفق رأيهم على قتل السلطان ونائبه لفساد الأحوال والقبض على الأمراء وخشى الأمراء على أنفسهم أمام تسلط منكوتمر الذى مازال يطالب طغجى بالمسير إلى نيابة طرابلس وبعث يأمره « أن يتجهز للسفر » وتأزم الموقف حتى كان يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر ٦٩٨هـ يناير ١٢٩٩م فدخل الأمير كرجى على السلطان فى تلك الليلة وهو فى مجلسه بعد أن اتفق مع أمراء الحراسة فقتله ثم ألقى القبض على منكوتمر نائب السلطنة وقتله كرجى ويتضح لنا مما تقدم أن السلطان لكى يضمن وجوده لابد أن يكون على وفاق مع هؤلاء الأمراء الكبار الذين كانوا يشكلون قوة يخشى منها إلا أن سياسة السلطان لاجين ونائبه كانت سياسة تتسم بالعنف والخديعة مما حدى بالأمراء إلى الصدق فى التخلص منهم . وكذلك استنجاد الأمراء الفارين من الشام بالمغول وتحريضهم على غزو بلاد الشام . وبعد هذا الصراع الطويل الذى انتهى بمقتل السلطان لاجين ونائبه استقر رأى الأمراء على استدعاء الملك الناصر

محمد من الفرح وتوليته السلطنة وأن يكون الأمير طغجى نائبه فى السلطنة وألا يحكما إلا بموافقة الأمراء عليه وأقسموا على تنفيذ ذلك الاتفاق ، ثم خرجت القاهرة والأمراء لاستقبال الملك الناصر محمد الذى وصل القاهرة وجلس على سرير الملك يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى ٦٩٨هـ فبراير ١٢٩٩م وجددت له البيعة واستقر سيف الدين سلار نائباً للسلطنة لأن طغجى قتل وعين بيبرس الجاشنكير استادار .

مقدمات غزو التتار للشام :

لما وصل خبر اغتيال السلطان لاجين إلى نائب حلب الأمير بلبان الطباخى قبض على الأمير حمدان بن صلغاى الذى كان أرسله نائب الساطنة يطاب إلى نائب حلب القبض على الأمراء فسجنه بالقلعة ثم أرسل على الفور فى طلب الأمير قبجق ومن معه من الأمراء يطلب إليهم العودة لأن منكوتمر والسلطان قد قتلا ، ولكن الجماعة كانوا عبروا الفرات وساروا إلى بلاد التتار يريدون غازان ، ولحق بريد نائب حلب بالأمير قبجق فى ماردين فلما رأى الكتب وما تضمنته من تغير الأحوال فى بلاد مصر والشام بكى الأمير قبجق والأمراء ندماً على سرعة مفارقتهم بلاد الشام ، ولكنهم لم يعودوا وكتبوا رداً بالاعتذار عن العودة والتقوا مع مقدم التتار فخدمهم وأخذهم وتوجه إلى غازان ، فلما اقتربوا من موضع غازان وكان نازلا فى بلاد واسط [١] فسير أميراً لاستقبالهم ثم ركب غازان نفسه فى موكبه واستقبلهم وأكرمهم « وضرب لهم الحركاوات وأمر لهم بما يصلح لهم ثم استدعاهم وجلس معهم فلما انصرفوا من مجلسه خلع عليهم وأمر غازان أمراءه بأن يستضيفوا الوافدين فأقاموا الأفراح فى البلاد بسبب ذلك عدة أيام « وصار قبجق فى غاية المسرة فإنه أتاه طائفة من أهله وأقاربه ، وأما بكتمر فإنه لم تطب نفسه بالإقامة [٢] ثم زوج كل أمير منهم من نساء التتار ، أما الأمير سيف الدين قبجق فقد زوجه

---

(١) وكان نازلا بأرض السيب وهو هنا كورة من سواد واسط وواسط سميت بهذا الاسم لأن منها إلى البصرة خمسين فرسخا وإلى الكوفة فرسخا وإلى الأهواز خمسين وإلى بغداد خمسين أنشأها الحجاج مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧١ .

غازان من أخت زوجته[١] ثم أقطع الأمير قبجق مدينة همدان ، ولكن الأمير قبجق لم يقبل ذلك واعتذار أن ليس له قصد إلا أن يكون فى صحبة السلطان الملك غازان فاستجاب غازان لرغبته[٢] المهم كان لجــوء الأمراء المذكورين إلى غازان كان سبباً فى غزو بلاد الشام إذا شجع هؤلاء الأمراء غازان على فتح بلاد الشام وذلك نتيجة لسوء العلاقات بين الأمراء والسلطان ونائبه واضطراب البلاد نتيجة لتغير السلاطين ، ونتيجة لما تقدم رأى غازان فى ذلك فرصته لغزو بلاد الشام وبعث فى جمع العساكر من بلاد التتار وأرسل الأمير سلامش بن أفال بن بيجو التترى إلى بلاد الروم ومعه خمسة وعشرين ألف فارس تقريباً . ويضم إليه جيش الروم ويسير بهم إلى بلاد الشام عن طريق بلاد سيس ويقابله غازان فى جيش يبلغ سبعين ألفاً من ناحية ديار بكر ثم يعبرون نهر الفرات إلى الشام بعد مهاجمة البيرة وقلعة الروم والرحبة ، ويكون اجتماع جيوش المغول على حلب[٣] فعلم بذلك الأمراء فى مصر فاتفق الرأى على الاستعداد وخروج القوات والأمراء إلى بلاد الشام فسارت العساكر من مصر ثم وصلوا دمشق فى السابع من رجب عام ٦٩٨هـ/ أبريل ١٢٩٩م[٤] .

خروج سلامش بن آفال عن طاعة غازان :

فى يوم الخميس الثامن عشر من شعبان ٦٩٨هـ/ مايو ١٢٨٨م وصل إلى بلاد الشام سلامش بن آفال نائب الروم وبصحبته الأمير عز الدين الزردكاش نائب بهسنا ومع سلامش بعض أصحابه ، فلما اقترب من دمشق استقبله عسكرها وأهلها ونائبها وبالغ نائب دمشق فى إكرامه ، ثم سار من دمشق ومعه أخوه طقطوا فى السادس عشر من شعبان إلى مصر فاستقبلهم الأمراء أحسن استقبال . وكان السبب فى خروج سلامش على طاعة غازان أن الأخير أرسل سلامش نائباً

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧١ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٩ .

(٣) الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ٨ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٥ .

عنه في بلاد سلاجقة الروم ثم أمره بالمسيرة إلى بلاد الشام من جهة سيس بعد ذلك ومعه خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان[١] على أن يسير غازان من ديار بكر[٢] ثم ينزلون على الفرات ويهاجمون البيرة والرحبة وقلعة الروم وأن يكون اجتماع غازان على سلامش على مدينة حلب[٣] إلا أن سلامش طمع في الاستقلال ببلاد الروم (آسيا الصغرى) وطلب الملك لنفسه حيث إنه أقرب في النسب إلى جنكيزخان من غازان وعلى هذا كون جيشاً بلغ عدد جنده عشرة آلاف وكاتب ابن قرمان أمير التركمان فسار إليه بعشرة آلاف فارس[٤] ثم كتب إلى الملك المنصور لاجين قبل وفاته يطلب نجدته ومساعدته على قتال غازان وسار رسله إلى السلطان لاجين فوصلوا دمشق في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ٦٩٨هـ / أبريل ١٢٩٩م ، ثم ساروا منها إلى مصر ، فلما وصل غازان إلى بغداد علم بخروج سلامش ومسيره إلى بلاد الشام ، مما اضطر غازان إلى تغيير خطته وعدوله عن غزو الشام مؤقتاً ليخضع الثائر سلامش في بلاد الروم ، فسار بقواته في أول جمادى الآخرة ٦٩٨هـ / مارس ١٢٩٩م بلغ عددها خمسة وثلاثين ألف فارس[٥] وعاد غازان إلى تبريز وسار الجيش المغولي بقيادة بولاى وأصحابه ونزل على رأس عين ثم سار إلى آمد فجمع سلامش نحو الستين ألف جندي[٦] ولكن أهل سيواس امتنعوا عليه فحاصرهم ، فلما التقى الجيشان في يوم السبت الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة ٢٩٨هـ/مارس ١٢٩٩م[٧] خذله أصحابه من جند

---

(١) النجوم ج ٨ ص ١١٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ .

(٢) ديار بكر بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قسط بن هنب وهى بلاد من قرى ومدن بين الشام والعراق . قصبتها الموصل وحران وبها دجلة والفرات . مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٤٧ .

(٣) النجوم ج ٨ ص ١١٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ ، الدر الفاخر ص ٨ .

(٤) الدر الفاخر ص ٨ النجوم ج ٨ ص ١١٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٥ .

(٥) الدر الفاخر ص ٨ ، النجوم ج ٨ ص ١١٨ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٦ إلى ٨٧٧ العبر ج ٥ ص ٤١٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٥ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٧ ، العبر ج ٥ ص ٤١٢ الدر الفاخر ص ١٠ النجوم ج ٨ ص ١٩ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .

(٧) الدر الفاخر ص ١٠ .

التتار وانضموا إلى بولاى ثم إلى عسكر الروم ، وفر التركمان إلى الجبال ولم يبق مع سلامش إلا نحو الخمسمائة جندى[1] فانسحب سلامش عن سيواس إلى جهة سيس ووصل بهسنا فى آخر شهر رجب ٦٩٨هـ/ مايو ١٢٩٩م ووصلت أخباره إلى دمشق فى الخامس من شعبان وتقرر أن تخرج قوة فى خمسة عشر ألف جندى من الشام لنجدة سلامش[2] وكان الأمراء قد عزموا على المسير لنجدته ، إلا أنهم لما علموا بضعفه وانهيار قوته توقفوا عن نجدته ثم وصل سلامش إلى دمشق فى الخامس من شعبان ٦٩٨هـ/ مايو ١٢٩٩م[3] ثم سافر إلى مصر ومعه أخوه طقطوا كما ذكرنا فاستقبل أحسن استقبال ثم خير سلامش بين الإقامة فى مصر أو فى الشام أو العودة إلى بلاده ، فطلب أن يرافقه جيش من مصر ليعود إلى بلاده ويحضر أسرته ليعودوا إلى خدمة السلطان فوافق السلطان على طلبه ووصل سلامش دمشق فى الحادى عشر من رمضان ٦٩٨هـ/ يونيه ١٢٩٩م ثم سار منها إلى جهة سيس فعلم به التتار وقاتلوه وهرب سلامش إلى بعض القلاع إلا أن التتار قبضوا عليه وحمل إلى غازان حيث قتل ، وإن كان هناك رأى يقول إنه قتل فى الموقعة وانقطع خبره[4] وكان سلامش من أكبر الأسباب فى حركة غازان إلى بلاد الشام إذ أن سلامش نهب بعسكر حلب ماردين فى شهر رمضان ٦٩٨هـ/ يونية ١٢٩٩م فحرك فعله ماعند غازان وجعله حجة لمسيره[5] ثم وردت الأنباء بزحف غازان بقواته إلى الشام فتقدم جيش إلى بلاد الشام فوصلها فى الرابع والعشرين من ذى الحجة ٦٩٨هـ/ سبتمبر ١٢٩٩م ثم استقر الرأى على مسيرة السلطان الناصر نفسه بالرغم من صغر سنة فاستعد الأمراء لذلك وجمعت القوات من مختلف

---

(١) الدر الفاخر ص ١٠ والنجوم ج ٨ ص ١١٩ ، السلوك ج ١ ص ٨٧٧ ، العبر ج ٥ ص ٤١٣ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .

Howorth, Part 3, P. 428.

(٢) الدر الفاخر ص ١٠ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .

(٣) الدر الفاخر ص١٠ .

(٤) الدر الفاخر ص ١١ . Howorth, Part 3, P. 437.

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٨ العبر ج ٥ ص٤١٣ المختصر ج ٤ ص ٣٧، ٣٨ تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ ، النجوم الزاهرة ص ١٢٨ .

جهات البلاد وارتفعت الأسعار نتيجة لخروج الجيش والسلطان ، وكانت الدولة فى حاجة إلى المال فلم تصرف للجند الأموال اللازمة للإنفاق عليه وصار الملك الناصر بالجيش فى اليوم الرابع والعشرين من ذى الحجة ٦٩٨هـ / سبتمبر ١٢٩٩م بعد أن استناب فى غيبته بمصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادارى [١] .

خروج الملك الناصر إلى الشام ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م :

أشرنا إلى أن الملك غازان قرر عبور الفرات وغزو بلاد الشام لأسباب منها نهج السياسة التقليدية العدائية بين الدولة المملوكية فى مصر والشام بالإضافة إلى تشجيع الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق السابق وأصحابه الذين دخلوا فى طاعة غازان شجعوه على غزو الشام نكاية فى منكوتمر والسلطان لاجين الذى قهرهم واستبد بهم ، يضاف إلى ذلك مااتهم به نيروز وزير غازان بمكاتبة السلطان لاجين ، مما أثار غضب غازان ، وكذلك غضب غازان من الأمير بلبان الطباخى نائب حلب الذى أرسل جيشاً إلى ماردين عاث فيها فساداً ، فاتخذ غازان من ذلك ذريعة فى غزو الشام [٢] ، يضاف إلى ماتقدم ظروف دولة المماليك الداخلية التى أدت إلى اضطراب البلاد مما شجع غازان على غزو الشام مستغلا انشغال أمراء المماليك بأمور الحكم فشد عزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه [٣] يضاف إلى ما تقدم استقبال المماليك الوافدين من التتار والهاربين من وجه غازان وطائفة التتار الأوبرانية على وجه الخصوص التى دخلت مصر أيام الملك العادل كتبغا ، وكانوا قد هربوا من غازان بعد هزيمة خصمه بيدو فيهاجروا إلى مصر ، أضف إلى ذلك سبباً رئيسياً وهو خروج سلامش بن آفال ونبذه من بلاد الروم ونبذه لطاعة غازان ودخوله مصر واستنجاده

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٩ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٥ بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٩ — ١٤٠ ، المختصر جـ ٤ ص ٤٢ .

(٣) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٤ .

بالمماليك مما آثار الحقد فى نفس غازان فصمم على غزو الشام ومصر ، وفى مطلع سنة ٦٩٩ هـ/ سبتمبر ١٢٩٩م تقدم السلطان الناصر محمد من مصر إلى بلاد الشام ، فلما وصلوا إلى غزة أقبل الأمراء على الصيد والراحة فسارت طائفة الأوبرانية الذين قدموا مصر فى أيام الملك العادل كتبغا بسبب من قتل من أمرائهم فى أيام الملك المنصور لاجين وبسبب خلع كتبغا وإخراجه إلى قلعة صرخد وهو من جنسهم ، كذلك يمكن أن نضيف إلى ذلك استبداد المماليك البرجية بالأمور وبذلك قرروا قتل الأمير سلار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير ثم إعادة دولة العادل كتبغا ، وعندما حاول الأوبرانية تنفيذ هذه المؤامرة وهاجموا معسكر السلطان الناصر قامت عليهم العساكر السلطانية وكانوا قد ظنوا أن الهدف من الثورة الأوبرانية هو قتل السلطان [١] ثم انتهت هذه الفتنة التى كادت أن تعرقل سير الجيش إلى الشام ، وألقى القبض على معظم الأوبرانية وشنق نحو الخمسين منهم [٢] وبعد هدوء الأحوال تحرك الملك الناصر بقواته وحدث أن هطلت الأمطار وسالت الأودية فأتلفت أثقال الجيش « وافتقر عادة منهم لذهاب جمالهم وأثقالهم وتشاءموا به وتطيروا منه فكان الأمر كذلك » ثم أعقب ذلك ظهور الجراد فزاد تطير العساكر الإسلامية « وخشوا أن يكون منذراً بقدوم العدو وكسرة العسكر وتحدث بذلك كل أحد حتى السوقة » .

إلا أنه على الرغم من ذلك تقدم الملك الناصر بالعسكر إلى دمشق فوصلها فى فى ثامن ربيع الأول ٦٩٩ هـ/ ديسمبر ١٢٩٩ م ، وفى اليوم التاسع من ربيع الأول وصل إلى دمشق الناس من جهة حلب جافلين أمام جحافل التتار هاربين من بطشهم ووصلت الأخبار بأن غازان عبر بقواته نهر الفرات وأنه فى جمع كبير من العسكر فارتفعت الأسعار ووزع الناصر الأموال على الجند لكل فارس مابين

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٢ — ٨٨٣ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ ، الدر الفاخر ص ١٥ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٨ ، تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٦٨٩ دولة بنى قلاون ص ١٧٧ .

ثلاثين ديناراً أو أربعين ، ولكن النفوس كانت وجلة ومضطربة والكل يتوقع الهزيمة أمام العدو [1] .

ووصلت الأخبار إلى علم الملك الناصر محمد بأن مقدمة جيش غازان عبرت نهر الفرات ، فى طريقها إلى الشام ، فاضطرب الناس فى تلك الجهات وانهزموا عن آخرهم ، وقدم فى هذا الوقت الأمير اسندمر كرجى متولى فتوحات سيس ، بعد أن أخذ حاصلات تل حمدون وأحضر معه صاحب سيس ، وذلك لأنه أدرك أن التتار لابد وأن يستولوا على بلاد الأرمن فتركها . فخرج جيش دمشق والملك الناصر بجيش مصر فى يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ/ديسمبر ١٢٩٩م وسار إلى حمص وعسكر عندها ، ولم يكن المسلمين فى تلك النوبة اكتراث بالتتار ولا كأنهم عندهم عدو » [2] ، وسارت الكشافة من العربان لاستطلاع أخبار العدو وكشف تحركاته ، هذا فى الوقت الذى كان فيه التتار قد وصلوا بالقرب من سلمية واستمر الحال على ذلك حتى سحر يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الأول ٦٩٩هـ/ ديسمبر ١٢٩٩م ، فركب الملك الناصر وسار بجيشه وجد فى المسير حتى ظهرت أمامه طلائع العدو فنودى عند ذلك فى العسكر الإسلامى أن يرموا الرماح ويعتمدوا فى القتال على ضرب السيوف والدبوس [3] . فألقى الجند رماحهم على الأرض وساروا مدة ساعة ورتبوا العسكر بمجمع المروج [4] المعروف بوادى الخازندار ، وكان عدد المسلمين لايزيد عن عشرين ألف فارس ، أما التتار فكانوا نحو مائة ألف [5] ، وقبل بدء القتال سار الأمير سلار نائب السلطنة ومعه الحجاب والأمراء والفقهاء والشيخ ابن دقيق العيد ومر على العسكر كلها

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٥ والبداية والنهاية ج١٤ ص ٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٨ .
Howorth, Part 3, P. 437.

(٢) الدر الفاخر ص ١٥ .

(٣) الدبوس هراوة مدملكة الرأس وكالإبرة من النحاس فى طرفها كتلة صغيرة : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ حاشية ٢ .

(٤) يقع هذا الموقع فى وادى الخازندار وهو بين حماة وحمص : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ حاشية ٣ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ ، المماليك البحرية ص ١١٦ ، ١١٧ .
Howorth, Part 3, P. 438.

والفقهاء يوجهون إرشادهم ووعظهم لتقوى عزائم الجند على الثبات « حتى كثر البكاء[1] ، أما غازان فقد أمر جيشه وقادته جميعاً بعدم التحرك حتى يبدأ هو الهجوم ، ولكن المسلمين بادروا بالقتال وأشعل الزراقون النفط وحماوا على غازان حملة صادقة إلا أن غازان لم يتحرك لحظة فى نفسه « فمرت خيول العساكر بقوة شوطها فى العدو ، ثم لما طال المدى قصرت فى عدوها وخمدت نار النفط[2] ، فلما أدرك ذلك غازان هاجم بقواته المسلمين ورمى بالنشاب فأصابت سهامهم خيولا كثيرة للمسلمين « وألقى الفرسان عنها » ، فاضطربت صفوف المسلمين ثم تقدمت ميسرة المسلمين وهاجمت ميمنة التتار فصدمتها صدمة شديدة مزقت جمعها وهزمتها عن آخرها وقتل من التتار فيها حوالى خمسة آلاف[3] ، وأخبر الملك الناصر بذلك فسر بذلك وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين ، وكاد غازان أن يولى الأدبار هو الآخر ولكنه استدعى إليه الأمير قبجق نائب دمشق السابق ، فشجع غازان وقيل إن هدف قبجق من ذلك هو أن يدفع غازان إلى الهزيمة[4] ، ومع ذلك تجمعت فلول المغول حول غازان من جديد « وعاد له أمره » وهاجم قلب الجيش الإسلامى فتقهقر[5] ، وحاول الملك الناصر الهرب ولكن الأمير حسام الدين لاجين الاستادار كان يمنعه ويقول له : « ماهى كسرة ، ولكن المسلمين قد تأخروا » ولم يبق مع السلطان من المماليك غير اثنى عشر مملوكاً[6] ، ثم عادت ميسرة الجيش الإسلامى المنتصرة على ميمنة التتار إلى حمص ومعهم الغنائم ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى علموا بانهزام قلب الجيش الإسلامى أمام غازان وتبعهم التتار ، ولكن غازان خشى أن يكون

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٧٨

Howorth, Part 3, P. 438.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ ، وذكر أن عدد قتلى التتار نحو عشرة آلاف : مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ وحاشية ٣ — Howorth, Part 3, P. 439.

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ ودولة بنى قلاوون ص ١٧٨ . — Howorth, Part 3, P. 439.

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ـ ٨٨٧ ، دولة بنى قلاوون ص ١٧٨ .

أعد كميناً للإيقاع به فكف عن اتباع العسكر المنهزم[1] . ويمكن القول إن الأمير قبجق لم يكن يشجع غازان بل يريد الهزيمة له ، ثم وصل المنهزمون إلى إلى حمص وقت غروب الشمس وقد غنم العدو كل ما كان معهم ، وألقوا أسلحتهم طلباً للنجاة بأرواحهم فاضطربت حمص واشتد هلع المدينة وصاحوا بالعسكر « الله الله فى المسلمين »[2] وساروا حتى وصلوا بعلبك وقد أغلقت أبوابها فأخذوا منها ميرتهم وعرجوا إلى دمشق فدخلوها يوم السبت أول ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/ ديسمبر ١٢٩٩م وسار معظم هؤلاء المنهزمين بجوار الساحل إلى مصر ، ولما دخلوا دمشق أشاع الناس خبر وصول غازان وجيش التتار ، فخرج المنهزمون فوراً وتركوا أثقالهم وما معهم وجفل أهل دمشق « فتشتتوا فى سائر الجهات »[3] .

احتلال التتار دمشق ٦٩٩هـ/١٢٩٩م :

بعد هزيمة المسلمين فى موقعة وادى الخازندار سار غازان بقواته إلى حمص فدخلها واستولى على مابها من الأموال والأمتعة الخاصة بالمسلمين والجيش ، ثم سار إلى دمشق « بعد ما امتلأت أيدى أصحابه بأموال جليلة القدر » وكانت دمشق فى الآونة مضطربة بسبب الهزيمـــة التى أصابت جيش الإسلام وخوفاً من التتار وفظائعهم ، وحدث فى أول ربيع الآخر ٦٩٩هـ ديسمبر ١٢٩٩م أن انتشر الرعب فى دمشق ، وانتشر الناس على قمم الجبال وفى القرى وتوجه كثير منهم إلى جهة مصر واتبع ذلك خروج من كانوا فى السجن وعاثوا فساداً فى البلدة[4] ، أما من بقى فى المدينة فقد اجتمعوا بمشهد على والجامع الأموى

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٧ ، دولة بنى قلاوون ص ١٧٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٨ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ – ١١٧، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ ، الدر الفاخر ص ١٧، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٨ – ٥٩ وتاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٧٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧،الدر الفاخر ص ١٨،تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٩ .

وتشاوروا فى الأمر وأرسلوا إلى غازان ملك التتار يطلبون منه الأمان لأهل دمشق ، وسار إليه قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية وجمع كبير من الأعيان والفقهاء والقراء وذلك يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر ٦٩٩هـ / ديسمبر ١٢٩٩م [١] فقابلوه فى النبك وهو فى طريقه للاستيلاء على دمشق ، فلما قابلوه نزلوا عن دوابهم وقبل بعضهم له الأرض ، وطلبوا الأمان لأهل دمشق ، ثم قدموا لغازان بعض الطعام والمأكولات التى كانت معهم ، ولكنه لم يلتفت إليها ثم قال لهم : قد بعثت إليكم الأمان » فعادوا إلى دمشق يوم الجمعة سابع ربيع الآخر ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م [٢] ووصل دمشق فى يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر بعد الظهر الأمير إسماعيل التترى ومعه جماعة من التتار ودخل المدينة يوم السبت ثامن ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ يناير ١٣٠٠م ليقرأ الفرمان (المرسوم السلطانى) بالجامع ، فاجتمع أهل دمشق فى الجامع الأموى وقرأ بعض العجم الواصلين مع الأمير إسماعيل الفرمان بتأمين الكافة حتى اليهود والنصارى ويعد بحكومة عادلة فى كل أنحاء مصر حينما تنضم إلى سوريا [٣] فوصل غازان إلى دمشق فى عاشر ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م وعاثت عساكره فى غوطة دمشق فساداً — ووصلت بعض وحدات التتار إلى القدس والكرك وهم ينهبون ويأسرون من صادفهم ، ثم خطب لغازان فى مساجد دمشق يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ يناير ١٣٠٠م بألقابه وهى : « السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان وقرأ على الناس فى المسجد تقليد قبجق بلاد الشام كلها وسائر الأعمال وله أيضاً ولاية القضاء والخطباء ثم نثرت الدراهم والدنانير على الناس وفرحوا بذلك فرحاً شديداً .

كان نائب قلعة دمشق الأمير علم الدين سنجر المنصورى المعروف باسم

---

(١) الدر الفاخر ص ١٩ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٦٠ .

(٢) Howorth, P. 3, P. 439.

(٣) (نص فرمان إيلخان غازان لتأمين أهل دمشق قبل دخوله بعساكره إليها سنة ٦٩٩هـ) فى ملحق رقم ٣ (انظر ملحق رقم) ٣ .

أرجواش قد امتنع عن تسليم القلعة وتقدم إليه كل من قبجق وبكتمر السلاح دار وطلبا إليه تسليم القلعة وقالا له : دم المسلمين فى عنقك إن لم تسلمها ، فأجابهما : دم المسلمين فى أعناقكما أنتما اللذان خرجتما من دمشق وتوجهتما إلى غازان وحسبتما له المجىء إلى دمشق وغيرها [1] وفى الحادى عشر من ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م طلب الأمير إسماعيل التترى إلى القضاة والأعيان فى دمشق أن يطلبوا من أرجواش تسليم القلعة وإلا نهب التتار المدينة وقتلوا أهلها كافة ، فاجتمع عالم غفير وأرسلوا إلى الأمير أرجواش فى ذلك الأمر ولكنه لم يجبهم وتكررت الرسل بينهم وبينه إلى أن سبهم وعنفهم وقال : « قد وقعت إلى بطاقة بأن السلطان قد جمع الجيوش بغزة وهو واصل عن قريب » فانصرفوا عنه وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الآخر دخل الأمير قبجق دمشق وأرسل إلى أرجواش يطلب إليه التسليم ولكن أرجواش رفض ولم يجبه ، وأرسل إليه الشيخ تقى الدين ابن تيمية يقول له لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت » [2] فلم يجب أرجواش مطالبهم واعتصم بالقلعة واشتد خوف الناس وحصنوا الدروب والمسالك [3] . وشرع التتار فى نصب المجانيق على سطح الجامع الأموى القريب من قلعة دمشق فعلم بذلك أرجواش فأرسل جماعة الشجعان هاجموا الجامع فجأة وأفسدت المنجنيق ، ثم أعد التتار منجنيقاً آخر بالجامع واتخذوا الجامع حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه وعطلت فيه الصلاة فى بعض الأوقات ونهب التتار ماحول الجامع من السوق فأرسل أرجواش رجلا من عنده وقتل المنجنيقى المغولى ومن حوله التتار وعاد إلى القلعة سالماً ولجأ أرجواش إلى تحصين موقعه فأمر بهدم ماحول القلعة من العمائر والبيوت فهدمت حتى لايستتر العدو بها وقت القتال [4] .

---

(١) النجوم ج ٨ ص ١٢٥ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٨١ ، الدر الفاخر ص ٢٤
Howorth, Part 3, P. 441.

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ - ٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٨ - ٨٩١ ، مرآة الجنان ج٤ ص ٢٣٠، النجوم ج ٨ ص ١٢٥ العبر ج ٥ ص ٤١٤

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٣، العبر ج ٥ ص ٤١٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ص ٩ .

وفى ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م قام التتار بمهاجمة قرية الصالحية[١] وأخذوا ما فى جامعها ومدارسها ونبشوا على الخبايا فظهر لهم منها شىء كثير حتى كأنهم يعلمون أماكنها[٢] ولما خرج التتار هاربين أمام شيخ الشيوخ نظام الدين محمود ساروا إلى المزة[٣] وساروا إلى داريا[٤] فنهبوا وقتلوا عدداً من أهلها فخرج الشيخ ابن تيمية فى العشرين من ربيع الآخر إلى غازان وكان بتل واهط[٥] ليشكوا مما فعل جيش التتار فى الصالحية وداريا والمزة من نهب وتدمير وقتل بما يخالف الأمان الذى منحه غازان للبلاد ، ولكن حاشية غازان لم يتمكن ابن تيمية من الاجتماع به لانشغاله بالسكر فاجتمع ابن تيمية بالوزير بن سعد الدين ورشيد الدين وشكا لهما الحال فقالا له : « لا بد من المال » فعادا بدون شىء وبدأ الأمراء فى جمع المال ، فارتفعت الأسعار ووزعت الأموال على الأسواق فجمعوا المال من الناس وقتل نتيجة ذلك فى ضواحى دمشق من الفلاحين والجند والعامة على ما قيل نحو مائة ألف ، وبلغ ما نقل إلى غازان وحده من المال حوالى ثلاثة ملايين وستمائة ألف درهم سوى السلاح والثياب والدواب والغلال ، ويضاف إلى ذلك ما نهبته العساكر المغولية ، وقرر غازان مصادرة الخيول والجمال لأنها من عدة القتال والحروب فأخرج من دمشق أكثر من عشرين ألف حيوان ، هذا بالإضافة إلى ما أخذه الأمراء والجباة والأمير قبجق من الناس فأضعفوا الناس بما أخذوا منهم وساءت حالة البلاد .

عودة غازان من الشام إلى الشرق :

عاد غازان إلى الشرق لأسباب منها غزو مغول الشرق لبلاد غازان[٦] وذلك بعد أن جمعت الأموال من الناس بالرغم عنهم وهلك من جراء ذلك مئات

---

(١) قرية مطله على دمشق بالقرب من جبل قاسيون – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩١ حاشية ٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٨ .

(٣) المزة وهى قرية كبيرة وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق مسافة نصف فرسخ ويقال لها أيضاً مزة كلب – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٢ حاشية ٣ .

(٤) وهى قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٠٩ .

(٥) يقصد بها مرج راهط فى نواحى دمشق مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥ .

(٦) Hoxorth, Part 3, P. 443.

من الناس أقر غازان فى نيابة دمشق الأمير قبجق وفى نيابة حلب وحماة وحمص الأمير بكتمر السلاح دار وجعل فى نيابة صفد وطرابلس والساحل الأمير الألبكى ، وجعل مع كل نائب من هؤلاء جماعة من التتار ، وأقام عندهم مقدماً من التتار لحماية الشام وهو قطلوشاه ومعه ستين ألفاً من التتار حامية للشام[١] ، وجرد عشرين ألفاً من عسكره ومعهم أربعة من قادة المغول منهم بولاى وساروا إلى الأغوار فى الشام فنهبوا تلك الجهات ووصلوا القدس وغزة وقتلوا بجامع غزة خمسة عشر رجلا وعادوا إلى دمشق وقد أسروا عدداً كبيراً فخرج إليهم الشيخ ابن تيمية وتوسط فى شأن الأسرى فأفرجوا عنهم ورحلوا عن دمشق يريدون بلادهم فى الثانى من رجب ٦٩٩هـ / مارس ١٣٠٠م[٢] بعد أن رحل غازان عن دمشق يوم الجمعة الثانى عشر من جمادى الأولى ٦٩٩هـ / فبراير ١٣٠٠م[٣] بعد أن ترك على دمشق نائبه قطلو شاه ورافق غازان وزيره بدر الدين محمد بن فضل الله وعلاء الدين على بن شرف الدين محمد بن القلانسى وشرف الدين محمد ابن شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير وعبر غازان الفرات عائداً إلى الشرق[٤] ، ولكن لم يمض يوم على رحيل غازان ناحية الشرق حتى انطلق التتار فى دمشق ينهبون ويسلبون الناس متاعهم ، وأحرقوا كثيراً من الدور والمنازل والمدارس ، مثل « دار الحديث الأشرفية » وما حولها ودار الحديث النورية والعادلية الصغرى ، وما جاورها وأخلوا ماحول القلعة وركبوا فوق سطح المنازل ليرموا بالنشاب على القلعة ، وصدر كتاب من غازان بتولية الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الدين الختنى الوزارة جاء فيه : « إنا قد تركنا نوابنا بالشام فى ستين ألف مقاتل وفى عزمنا العودة إليها فى زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها »[٥] ، فلما عبر غازان نهر الفرات إلى دمشق أشار

---

(١) العبر ج ٥ ص ٤١٤،البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩،تاريخ المماليك البحرية ص ١١٩ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦،العبر ج ٥ ص ٤١٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٠ .

(٣) الدر الفاخر ص ٣١ وبدائع الزهور ج ١ ص ١٤١ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٥ حاشية ٣،دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٨٥ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٩ .

(٥) Howorth, Part 3, P. 446.

قبجق وبكتمر السلاح دار على قطلو شاه مقدم التتار بالشام أن يتحول عن دمشق إلى حلب بمن معه من التتار وجمع قبجق له مالا من الناس وأعطاه له ثم سار قطلو شاه فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى ٦٩٩هـ / فبراير ١٣٠٠م بعد أن ترك فرقة من عسكر التتار بدمشق وخرج الأمير قبجق لوداعه وعاد فى الخامس والعشرين من نفس الشهر وبعد أن اطمأن الناس نودى فى دمشق بعودة أهل الضياع إلى ضياعهم ومزارعهم وقراهم ، ثم خرج أهل الصالحية وغيرها وعادوا إلى أماكنهم ، وفتحت الأسواق وأبواب المدينة [١] .

عودة السلطان الناصر إلى مصر واستعداده لقتال التتار :

ذكرنا أن السلطان الناصر قد تفرق عنه العسكر عقب الهزيمة بوادى الخازندار ولم يبق معه إلا نفر يسير من خواصه والأمير ابن زين الدين قراجا وسيف الدين بكتمر الحسامى ، ومن ثم لم يجدوا أمامهم بدًّا من العودة إلى مصر فدخلوها ووصلوا فى الثانى عشر من ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ يناير ١٣٠٠م، ثم تتابع وصول العساكر إلى مصر وهم فى أسوأ حال [٢] ، ولم ينتظر السلطان الناصر طويلا حتى شرع فى الاستعداد للعودة إلى الشام من جديد، ونشط الأمراء فى جمع الأموال اللازمة للإنفاق على الجيش وطلب من عمال الأقاليم بمصر أن يجمعوا الخيول والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلى والبحرى، فارتفعت الأسعار حتى بلغ ثمن الفرس الذى كان يساوى ثلثمائة درهم ألف درهم « حتى أخذت خيول الطواحين وبغالها بالأثمان الغالية » [٣] ، وطلبت أيضًا الإبل والأسلحة وكل ما يلزم للقتال « فأبيع ما كان بمائة بسبعمائة وبألف » وطلبت قوات الاحتياط ممن تركوا الخدمة العسكرية فاجتمع منهم ومن غيرهم عدد كبير

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦، النجوم ج ٨ ص ١٢٧ والعبر ج ٥ ص ٤١٤، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٨، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩، الدر الفاخر ص ٣١ — ٣٢ ودولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٨ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٨ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٧٠ — ٧١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٨ .

Howorth, Part 3, P. 446 447.

حتى إن أناساً تقدموا ولم يكونوا من الجند المسرحين بل رغبة فى الجهاد ، وتولى الأمراء أمر هؤلاء الجند « البطالين » [1] هذا بالإضافة إلى من استخدمهم بعض الأمراء تطوعاً واحتساباً للأجر ، ثم استدعى مجد الدين عيسى بن الخشاب نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء ويأخذ المال من الرعية للإنفاق على الجيش ، ومن الواضح أن هذا كله كان يقع على عاتق الشعب ، واستخرجت فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المظفر قطز والتى فيها أن يأخذ من كل إنسان ديناراً ضريبة دفاع وجهاد فقرر الأمير سلار نائب السلطنة أن يأخذ رأى الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، ولكن الأمير أبى الموافقة على ذلك فشق هذا على الأمير سلار واستدعى الشيخ ابن دقيق العيد إليه وشهد الأمراء الاجتماع وشكا إليه احتياج الدولة للمال للقيام بواجب الجهاد ودفع العدو عن البلاد ، وإن الضرورة دعت إلى طلب المساعدة من الرعية لأجل الجهاد والدفاع عن الإسلام وأرضه وطلب من الشيخ الموافقة على هذه الفتوى ، ولكنه رفض واحتج عليه ابن الخشاب بفتوى ابن عبد السلام أيام الملك المظفر فقال : « لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر الأمراء مافى ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم وأولادهم ورآه وحلف كلا منهم أنه لا يملك سوى هذا ، وكان ذلك غير كاف فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد ، وأما الآن فبلغنى أن كلا من الأمراء له مال جزيل وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ ويعمل الإناء الذى يستنجى منه فى الخلاء من فضة ويرصع مدارس زوجتــه بأصناف الجواهر » [2] ثم انصرف القاضى ابن دقيق العيد ثم طلب ناصر الدين محمد بن الشيخى متولى القاهرة ورسم له بالنظر فى أموال التجارة والأغنياء وأخذ مايمكن أخذه كل على حسب حالته المالية والسبب فى ذلك واضح تجهيز الجيش والجهاد فى سبيل الله ونصرة الإسلام فاجتمع فى جمادى الأولى ٦٩٩هـ / فبراير ١٣٠٠م جيش كبير وازدحمت القاهرة بالجيش وضاقت بهم المساكن ونزلوا بالقرافــة ، وحول جامع أحمـــد بن طولون ، وكان قــد وصل من الشام عسكرها بعد الهزيمة واحتلال العدو للشام . بالرغم من الرخاء وتوفر

---

(١) Howorth, Part 3, P. 448.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ ، Howorth, Part 3, P. 448.

الغلال إلا أن ابن الشيخي متولى القاهرة أراد أن تكون جباية المال من جميع الناس من القاهرة وخارجها والولاة فى الأقاليم يقومون بجباية الأموال أيضاً ويسمى ما حصل من المال مقرر الخيالة فاستشنع الأمراء ذلك »[١] ثم فرض الضريبة على جميع الغلال وجبى هذه الأموال وأعد بها حوالى مائتى فارس ثم حول نظره إلى التجار وأرباب الأموال وفرض على كل منهم من مائة دينار إلى عشرة دنانير فلم يدع تاجراً ولا متسبباً ولا من يعرف بغنى إلا وأخذ منه »[٢] ثم اقترض أموالا من التجار الأغنياء فاجتمع لديه من ذلك مال عظيم ، ووزعت رواتب الجند جميعاً وكذلك النواب ومقدمى العساكر وتجهزت العساكر وبينما الملك الناصر محمد على هذه الحال من الاستعداد وصل الخبر من الشام بعودة غازان إلى إلى الشرق وإقامة الأمير قبجق نائباً عنه فى دمشق فسر الناس بذلك ، وكان الملك الناصر قبل ذلك عندما قدم إلى مصر أرسل إلى أصحاب القلاع رسائله ويأمرهم فيها بحفظ قلاعهم ويخبرهم بأنه قادم لهم «فلم يتمكن التتار من الاستيلاء عليها ثم كتب الناصر إلى الأمير قبجق وبكتمر السلاح دار يدعوهم إلى الطاعة فعادت أجوبة قبجق وأصحابه بالامتثال [٣] وعلم من تأخر فى بلاد الشام من التتار بحركة السلطان الناصر فاشتد خوفهم وخرج الأمير قبجق بمن معه يريد مصر وذلك فى منتصف رجب ٦٩٩هـ / أبريل ١٣٠٠م وبصحبته الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ، فخرج التتار من دمشق واستولى أرجواش على المدينة مع القلعة وأعاد الخطبة باسم السلطان الناصر فى يوم الجمعة السابع عشر من رجب بعد أن انقطعت مائة يوم [٤] وأصلح أرجواش أحوال دمشق وأوقف المنكرات وأغلق الخمارات مستعيناً بالشيخ ابن تيمية [٥] .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٩ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١١ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٨ مرآة الجنان ج ص ٢٣١ .
Howorth, Part 3, P. 448 449.

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٠ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١١ .
Howorth, Part 3, P. 449.

مسير الجيش من مصر إلى الشام :

وبعد أن تم إعداد الجيش واستعداده وجمع المال وإنفاقه على العسكر نودى بالقاهرة ومصر بالجهاد ومن يتخلف يشنق وخرج الملك الناصر فى التاسع من رجب ٦٩٩هـ / آخر مارس ١٣٠٠م ووصل إلى الصالحية ووصلت إليه كتب الأمير قبجق نائب الشام وبكتمر السلاح دار والألبكى بقدومهم ومعهم الأمير عز الدين حمزة بن القلانسى والشريف ابن عدنان فأقام الناصر بالصالحية[١] وتقدم الجيش بقيادة الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير الاستادار إلى دمشق ، والتقوا بقبجق وأصحابه بين غزة وعسقلان وترجل كل منهم للآخر وتباكوا من فرط التأثير وساروا إلى السلطان الناصر ، أما سلار وبيبرس ، فتقدموا بالجيش لإقرار الأمن فى البلاد وإشعار الناس بعودة البلاد إلى حكم الدولة الإسلامية ، ثم وصل قبجق وأصحابه إلى الصالحية فى العاشر من شعبان ٦٩٩هـ / أول مايو ١٣٠٠م واستقبلهم الناصر وبالغ فى إكرامهم والإحسان إليهم ثم سار بهم إلى قلعة الجبل[٢] أما الجيش المتوجه إلى الشام فكان جمال الدين أقشى الأفرم نائب دمشق أول من دخلها وذلك يوم السبت عاشر شعبان ٦٩٩هـ / أول مايو ١٣٠٠م وفى اليوم التالى وصل الأمير قراسنقر المنصورى نائب حلب بعساكرها ثم دخل دمشق الأمير اسندمركرجى ، نائب الفتوحات الطرابلسية . وعاد الحكم الإسلامى مرة ثانية إلى دمشق بعد خروج قوات غازان ثم أرسل الأمير سلار جيشاً إلى حلب فدخلها وقتل من كان بها من جند غازان . ولم يفلت منهم إلا القليل ولحقوا غازان وأخبروه بغدر الأمير قبجق ودخوله فى طاعة الملك الناصر وبعد ذلك سار النواب إلى ولاياتهم « واستقر كل نائب فى مملكته »[٣] ثم تتبع الأمير جمال الدين الأفرم نائب السلطنة بالشام من كان بدمشق من المفسدين الذين تولوا جمع المال من الرعية فى أيام غازان ، وكذلك الذين كشفوا أسرار الناس ، وقعت عليهم العقوبات[٤]

---

(١) المختصر ج ٤ ص ٤٣ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٩ .
(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٩ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ .
(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ .
(٤) العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٨٠ ، المختصر ج ٤ ص ٤٣ — ٤٤ .

ثم خلع سلار على الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وأنعم عليه بعشرة آلاف درهم. وبعد أن استقرت الأحوال فى بلاد الشام وعادت إلى حظيرة الدولة المملوكية ، سار الأميران بيبرس وسلار بالعسكر فى شهر رمضان ٦٩٩هـ — مايو ١٣٠٠م وعادوا إلى مصر فاستقبلهم السلطان والناس استقبالا رائعاً[1] ، أما الأمير قبجق فطلب من السلطان أن يعطيه نيابة الشوبك فأجابه إلى ذلك ،وأعطى الأمير بكتمر السلاح دار إمرة مائة بمصر ، والأمير فارس الدين الأبكى إمرة مائة بدمشق[2] .

وعلم المماليك بتقدم غازان نحو الشام وأنه جمع جيشاً ضخماً ، وكان غازان عندما غادر الشام إلى بلاد الشرق فى العام السابق قد أشار فى خطاب له أنه سيعود فى الخريف القادم ، ولذلك لم يترك الملك الناصر ، الاهتمام بالجيش والاستعداد للقتال ومواجهة العدو إذا ماحاول غزو البلاد من جديد ، فلما علم تحركات غازان استدعى الملك الناصر الوزير شمس الدين سنقر الأعسر والأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى والى القاهرة وأمرهما بجمع الأموال من الناس للاستعانة بها فى إعداد الجيش والإنفاق عليه ، وكتب أيضاً بذلك إلى بلاد الشام ، وفى مصر بدأ جمع المال ومن أرباب العقارات والأغنياء ، وجلس الأمير شمس الدين سنقر الأعسر والأمير ناصر الدين محمد الشيخى والى القاهرة بدار العدل والناس تحمل المال إليهما حتى جمعوا مائة ألف دينار من القاهرة والوجهين القبلى والبحرى[3] ،وفرضت الأموال على الناس وأصحاب الدكاكين فتضرر الناس وانطلقت الألسنة فى الشام ومصر بالنقد، واستخف العامة بالأجناد وأكثروا من قولهم للجند « بالأمس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا » فإن أجابهم الجندى قالوا له « لم لا كانت هذه الحرمة فى المغل الذين فعلوا بكم كيت وكيت وهربتم منهم ؟ » فلما اشتد تجرؤ العامة على

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ .

(٢) النجوم ج ٨ ص ١٣٠ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ ،العبر ج ٥ص ٤١٥ ، الدر الفاخر ص ٣٧ — ٣٩ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٧٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ ،دولة الإسلام ج ٢ ص ١٥٨ .

الجند نودى فى القاهرة « أى عامى تكلم مع جندى كانت روحه وماله للسلطان »[١].

وفى مستهل صفر ٧٠٠هـ / أكتوبر ١٣٠٠م وردت الأخبار بأن التتار يريدون الشام وأنهم عازمون على دخول مصر « فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم وطاشت عقولهم وشرعوا فى الهرب إلى مصر — والكرك والشوبك — والحصون المنيعة[٢] ونتيجة لذلك ارتفعت الأسعار وخاصة دواب الانتقال التى ارتفعت أثمانها بطريقة خيالية . فى الوقت ذاته انخفضت أثمان الأمتعة والغلال بأرخص الأثمان ، وقام الشيخ ابن تيمية فى ثانى أيام صفر ٧٠٠هـ/ أكتوبر ١٣٠٠م فى الجامع بدمشق وحض الناس على القتال وأورد لهم الآيات والأحاديث الواردة فى ذلك المعنى . ونهى الناس عن التراجع والفرار وحثهم على تقديم المال والرجال من أجل الجهاد فى سبيل الذود عن الإسلام ودياره ونادى بوجوب الجهاد ضد التتار المعتدين . وأوجب جهاد التتار وتابع الحديث فى هذا المعنى لتقوية الروح المعنوية عند الناس ، ونودى فى البلاد بمنع السفر إلا بمرسوم والحصول على جواز سفر . فتوقف الناس عن الفرار وسكن جأشهم[٣] ، وفى أول ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن العدو قد وصل إلى البيرة ووردت إشاعات بأن العدو وصل إلى حلب وأن نائبها تقهقر إلى حماة[٤] أما فى دمشق فقد جمعت الأموال من الفلاحين والأغنياء فنزلت بالناس شدائد وقطعوا الأشجار المثمرة وباعوها حطباً حتى يدفعون ما تقرر عليهم دفعه فى حين هرب غالبيتهم إلى مصر[٥] ، ولما جمعت الأموال بدمشق استخدم السلطان ثمانمائة من التركمان والأكراد ودفع لكل واحد منهم ستمائة درهم ، ولكنهم لما علموا بعبور غازان نهر الفرات هربوا فضاعت الأموال دون جدوى[٦] وفى مصر جمع الملك الناصر الجيش واستعرض قواته فى القاهرة على دفعات استغرقت مدته عشرين يوماً[٧] .

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٧ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤ ، الدر الفاخر ص ٤٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ١٣٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٧ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

(٧) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

وعرض كل يوم عشرة مقدمين من الحلقة بعساكرهم حدث ذلك فى نفس الوقت الذى وصل فيه من أهالى الشام أعداد كبيرة خوفاً من التتار[١] .

خروج الناصر محمد إلى الشام :

ولقد كان الملك الناصر خلال هذه الفترة يتم استعداداته العسكرية لمواجهة التتارفلماتم له ذلك خرج من مصر قاصداً الشام وكان ذلك يوم السبت الثالث عشر من صفر ٧٠٠هـ/ أواخرأكتوبر ١٣٠٠م ووصل إلى الريدانية حيث تكاملت العساكر والأمراء ، فساروا جميعاً إلى غزة وهناك أقام الناصر يومين فعلم بمسير غازان بعد عبوره نهر الفرات إلى ناحية أنطاكية ، وقد هرب أهل الشام أمامه وخلت بلاد حلب من أهلها وهرب نائبها قراسنقر إلى حماة وبرز كتبغا المنصورى نائب حماة ظاهر المدينة مستعداً لمواجهة العدو فوصلت إليه القوات التى جاءت من مصر واجتمعوا خارج حماة فى انتظار التتار ، وأمر السلطان القوات بالتقدم من غزة حتى قارب دمشق ، ولكنه تعرض أثناء مسيره لمتاعب شديدة بسبب الأمطار والثلوج التى توالت أربعين يوما[٢] فهلك بسببها كثير من الدواب وأفسدت بعض المهمات العسكرية وارتفعت الأسعار ، ثم استمر الزحف وسط الأوحال ، أما السلطان الناصر فإنه عاد إلى مصر فى نهاية ربيع الآخر ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م ووصل إليهـــا فى الحادى عشر من جمادى الأولى ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م وذلك نتيجة للإرهاق الذى أصاب الجيش بسبب الأوحال والأمطار والثلوج ، فخشى من قتال غازان ، ولم يعلم بعودة غازان إلى بلاده إلا بعد وصوله إلى القاهرة فى الحادى عشر من جمادى الأولى ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م نفس اليوم الذى خاض فيه غازان نهر الفرات عائداً إلى الشرق ، ثم وصلت أخبار عودة غازان إلى الشرق فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٠هـ / فبراير ١٣٠١م[٣]

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ ، الدر الفاخر ص ٤٥ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٨٤ . Howorth, Part 3, P. 455.

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ ، ١٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٨٤ .

ولما علم أهل دمشق والشام بعودة الملك الناصر إلى مصر استاءوا واشتد خوفهم وخرج معظمهم يريدون القاهرة ونودى فى دمشق فى تاسع جمادى الأولى سنة ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م « من أقام بدمشق بعد هذا النداء فدمه فى عنقه ومن عجز عن السفر فليتحصن بقلعة دمشق » فخرج باقى أهل دمشق على وجوههم خوفاً ورهباً وارتفعت الأسعار واشتد الوجل والخوف خشية عودة التتار إلى بلاد الشام « وقد خلت البلاد الشامية من أهلها ونزحوا إلى مصر »[١] وذلك بسبب ما عرف عن التتار من فظائع ، وكانت الشام جربت الاحتلال المغولى أكثر من مرة ، ولهذا فإن القلوب كانت وجلة باستمرار والخوف شديد من تحركات العدو ، وكان الشيخ ابن تيمية قد عاد من مصر إلى الشام فى السابع والعشرين من جمادى الأولى ٧٠٠ هـ / فبراير ١٣٠١م وكان ذهب إلى الناصر فى مصر وأخذ يشجعه على الخروج للجهاد ويحثه على القتال لما رآه من خوف أهل الشام واضطرابهم بسبب عودة الناصر محمد إلى مصر ، وتوقع أهل الشام وصول غازان بقواته ، وأقام الشيخ ابن تيمية بالقاهرة ثمانية أيام يحث المماليك والناس على الجهاد والخروج إلى قتال العدو . وقال الشيخ ابن تيمية للملك الناصر والأمراء فى مصر ، « وإن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويشغله فى زمن الأمن » ولم يزل بهم حتى تحركت العساكر نحو الشام ، وقال أيضاً « لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر[٢] وقوى عزمهم على الجهاد وأكد لهم بأن النصر للإسلام هذه الكرة[٣] » ، وكان أهل دمشق فى رعب عظيم وأغلقت الأسواق وتيقنوا أن لاناصر لهم إلا الله ثم خرج من عامة دمشق حوالى خمسة آلاف مقاتل بأسلحتهم — وساروا إلى نائب دمشق الذى كان مرابطاً فى المرج وسار الشيخ زين الدين الفارقى والشيخ إبراهيم الرقى وابن قوام وشرف الدين بن تيمية وابن خباره إلى نائب السلطنة الأفرم وقووا عزمه على القتال والثبات واجتمعوا بمهنا أمير العرب وحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة وقويت نياتهم على القتال ، وخرج سلار نائب السلطنة المصرية بعسكره ، من دمشق إلى ناحية المرج حيث يوجد نائب دمشق بعسكره ومن خرج تطوعاً من العامة

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٩ ، دول الإسلام ج ٥ ص ١٥٩ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، النجوم ج ٨ ص ١٣٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ . (٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥٥ .

واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة[١] ، أما التتار فإن غازان ما إن وصل إلى حلب وأخذها حتى سار إلى قرون حماة وشيزر وسرمين والمعرة وأرسل جيشاً إلى أنطاكية وأخذ أموالا كثيرة ، وكان غازان يريد التوجه إلى دمشق إلا أن تساقط الثلوج والأمطار والتى استمرت أربعين يوماً عاقت تقدم قواته[٢] ، أضف إلى ذلك أن معظم خيوله وإبله نفقت وأمام هذا لم يجد غازان بداً من العودة إلى بلاده بعساكره وخذلهم الله وردهم خائبين (وردَّ اللهُ الَّذين كفروا بغيْظِهم لم ينالُوا خيراً وكَفَى اللهُ المؤْمنينَ القتال[٣]) إذ كان مع جيش غازان اثنا عشر ألفا من الخيل فلم يبق منها إلا نحو ألفى فرس[٤] وبقى عسكره بدون خيول فرجعوا « وأكثرهم مرتدفون بعضهم بعضا » خاض غازان نهر الفرات فى حادى عشر جمادى الأولى ٧٠٠ هـ / ١٣٠١م عائداً إلى بلاده فعادت الطمأنينة والسكون إلى أهل الشام بعد التدمير الذى حل بحلب نحواً من ثلاثة أشهر . وعاد أهل الشام إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين وذلك فى جمادى الآخرة ٧٠٠هـ / فبراير ١٣٠١م فعاد نائب السلطنة بدمشق بعد أن كان مخيماً بعسكره فى المرج منذ أربعة أشهر[٥] .

طلب غازان للصلح ٧٠٠هـ / ١٣٠١م :

حاول غازان ملك التتار التحالف مع ملوك أوربا والحصول على مساعدات تلك الدول الأوربية الصليبية ، فأرسل سفارات إلى ملكى إنجلترا وفرنسا لمؤازرته ولكن هذه السفارات عادت دون أن تحقق أى نجاح مما اضطر غازان إلى أن يطلب الهدنة من سلاطين المماليك حتى يستطيع خلال هذه الهدنه من إعداد قواته ومن ثم أرسل رسله إلى الأمير سيف[٦] فعلم السلطان الناصر بوصول رسل غازان

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ ، الدر الفاخر ص ٤٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣١ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٩ ، Howorth, Part 3, P. 455.

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦ ، دول الإسلام ج ٤ ص ١٥٩ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥٥ المختصر ج ٤ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٦) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٧ .

إلى الفرات فأرسل إليهم الأمير سيف الدين كراى لإحضارهم فجاء بهم إلى دمشق فى الثالث والعشرين من ذى القعدة ٧٠٠هـ / أواخر يوليو ١٣٠١م وكانوا نحو عشرين رجلا[1] وأنزلهم فى قلعـــة دمشق واختار من بينهم ثلاثة نفـــر وسار بهم إلى مصر وهم كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل وناصر الدين على خواجا ورجل آخر من المغول فوصلوا القاهرة فى منتصف ذى الحجة ٧٠٠هـ / أغسطس ١٣٠١ م وقبل أن يقابلوا السلطان اجتمعت الأمراء والعساكر بقلعة الجبل بكامل لباسها وأفخر ثيابها ثم جلس السلطان وبين يديه ألف شمعة واصطف المماليك صفين فى الطريق الذى مر به الرسل إلى حضرة الملك الناصر محمد فلما حضر الرسل قام قاضى الموصل وخطب خطبة بليغة موجزة فى معنى الصلح دعا فيها للسلطان الناصر ولغازان وللأمراء ثم أخرج كتاباً من غازان مختوما لم يفتح[2] ثم فتح الكتاب بعد يومين وكان مكتوباً باللغة المغولية فترجم إلى اللغة العربية وقرئ على أهل الدولة وكان يتضمن أن عساكر مصر دخلت فى العام الماضى أطراف بلاد غازان وأفسدت فيها فأنف غازان من ذلك وقدم إلى الشام وهزم العساكر الإسلامية ثم عاد فلم يخرج إليه بعد فرجع حتى لا تخرب البلاد وأنه مستعد للحرب والقتال ، ودعا الناصر بعد ذلك إلى عقد الصلح بين المغول فى فارس والمماليك إلا أنه كان يهدد ويتوعد إن لم يتم الصلح[3] .

ويتضح من رسالة غازان هذه أنه يحاول أن يبرر غزوه لبلاد الشام كما أنه يحمل صيغة التهديد فى حالة عدم تجاوب المماليك لطلب الصلح والمهادنة . وبعد قراءة خطاب غازان اجتمع الناصر برجال دولته وأخذ رأيهم فيما يفعل فاستدعوا كمال الدين قاضى الموصل وخطيبها وهو أحد سفراء غازان وقالوا له « أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين ما نتقاتل إلا لقيام الدين ، فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك بالله أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى فأقسم القاضى لهم » أنه لايعلم عن

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩١٥، الدر الفاخر ص ٥٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٩٢ .

(٢) Howorth, Part 3, P. 457.

(٣) انظر الملحق رقم ٥ . Howorth, Part 3, P. 458.

غازان غير الرغبة فى الصلح وتأمين التجار والمسافرين » ثم زاد على ذلك بقوله والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم ، فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم ، وإن كان الأمر صحيحاً ، فتكونون قريباً منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم » وكان لهذا الحديث أحسن الأثر فى نفوس المماليك وأيقنوا أن هذا القاضى لم يحد عن طريق الحق وأنه بذل النصح لهم[1] ومن ثم استقر رأيهم على كتابة رسالة إلى غازان ردًّا على رسالته حملها إليه حسام الدين المجيرى والقاضى عماد الدين بن السكرى وشمس الدين محمد بن التيتى[2] وقد فند الملك الناصر فى خطابه إلى غازان أقواله وأثبت له أن المغول هم البادون بالعدوان وقال أيضًا فى رسالته إنه لن يرسل هدية إلى غازان حتى يبدأ غازان بذلك وعاب على غازان فعله للمسلمين فى دمشق وبلاد الشام وتخريبه للمساجد وختم الناصر كتابه بأنه مستعد للصلح والمصادقة إذا جنح غازان للسلم وأبغد الكفار الذين لايحل له أن يتخذهم بطانة له وقبل أن يسافر الرسل إلى غازان قرر الملك الناصر محمد فى يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة ٧٠١هـ / سبتمبر ١٣٠١م على جميع الأمراء والمقدمين فى مصر الخروج إلى الصيد نحو العباسة[3] وخرج السلطان ومعظم الجيش بكامل ملابسهم وعدتهم فى يوم الاثنين العشرين من المحرم ٧٠١هـ / سبتمبر ١٣٠١م ثم طلب القضاة من القاهرة فحضروا إليه واجتمعوا بالسلطان فى بركة الحجاج ثم عاد القضاة الأربعة إلى القاهرة وشرعوا فى تجهيز الرسل إلى غازان ووصل الناصر وأصحابه والجيش إلى الصالحية وكانوا فى أحسن منظر وخلع الناصر على الأمراء والمقدمين أربعمائة وعشرين خلعة[4] وأذهل رسل التتار بمـــا رأوا من نظام وحسن هيئة الجيش الإسلامى مالم يكن

---

(١) الدر الفاخر ص ٥٦ .

(٢) الدر الفاخر ص ٦٦ .

(٣) وهى أول قرية يلقاها القادم من الشام إلى مصر بمركز الزقازيق بالشرقية وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون كانت خرجت على قطر الندى بنت أخيها لما تزوجت من الخليفة المعتقد بالله العباسى وهناك فى ذلك المكان ضربت الخيام قبل مسير قطر الندى إلى بغداد فسميت القرية باسم العباسة، وأنها قامت فى خيمة فى نفس المكان — النجوم ج ٨ ص ١٤١ حاشية ١ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ١٤١ — ١٤٢ .

عند التتار ومن الواضح أن غرض الناصر من ذلك العرض الذى قرر الخروج فيه للصيد أن ترى رسل التتار مدى قوة جيش مصر واستعداده حتى يخبروا غازان بما رأوا ثم حضر الرسل بين يدى الناصر فى الليل فى معسكره والشموع مشتعلة وتحدثوا معهم ساعة ثم أعطوهم جواب الناصر إلى غازان وخلعوا عليهم وأعطوا لكل منهم عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك وسار معهم بالرسالة الأمير حسام الدين ازدمر المجيرى . وشمس الدين محمد بن التيتى وعماد الدين على بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى بن السكرى فى طريقهم إلى غازان ، وذلك فى المحرم سنة ٧٠٠هـ / سبتمبر ١٣٠١م[١] .

مسير التتار إلى الشام :

ومن الواضح أن غازان لم يكن راغباً فى الصلح كما ادعى ، وإنما كان فى حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد فقد فشلت مساعى ومحاولات الصلح وتبين كذب غازان فى طلب الصلح ووصل إلى علم المماليك فى مصر بتحركات جيش التتار ، وعزم غازان على دخول الشام فاتفق رجال الدولة على الخروج بالجيش إلى الشام ، وعين من الأمــراء بيبرس الجاشنكير وطغريل الإيغانى ، وكراى المنصورى ، وبيبرس الدوادار ، وسنقرشاه المنصورى وحسام الدين لاجين الرومى استادار وجماعة من الأمــراء وثلاثة آلاف جندى ، وساروا من القاهــرة فى الثامن عشر من رجب سنة ٧٠٢ هـ / مارس ١٣٠٣ م وكثرت الأخبار بنزول غازان على الفرات ووصل بقواته إلى الرحبة وأراد ، منازلتها بنفسه وكان نائبها الأمير علم الدين سنجر الغتمى فلم يجد بداً من اتباع أسلوب السياسة والمهادنة حتى تصل قوات المماليك فخرج إلى غازان ومعه الهدايا وقال له « هــذا المكان قريب المأخذ والملك يقصد المدن الكبرى فإذا ملكت البلاد التى هى أمامك فنحن لا نمتنع عليك »[٢] فاقتنع غازان بقوله بعد أن أخذ الرهائن وهم ولد نائب الرحبة ومملوكه ، وعاد غازان إلى الشرق ولكنه سير

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٩٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٠ ، العبر ج ٥ ص ٤١٧ .

إلى الشـــام قائده قطلوا شـــاه على رأس ثمانين ألف مقاتل وكتب معـــه إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب دمشق كتاباً يرغبـــه فى طاعته والدخول فى خدمته .

موقعة عرض ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م :

وصل الجيش الإسلامى مع الأمـــير بيبرس الجاشنكير إلى دمشق فى منتصف شهر شعبان ٧٠٢هـ / أبريل ١٣٠٣م وكتب إلى النـــاصر فى مصر يستحثه على المسير إلى الشام وذلك لسماعه بوصول التتار ، وأقبل الناس من حلب وحماة إلى دمشق خائفين هاربين من سطوة التتار ، فاضطربت دمشق واستعد أهلها للفرار ، وكان هؤلاء الفارين ينشرون الرعب بين الأهالى وهم أهل دمشق بالخروج ، ولكن صدر النداء بمنع ذلك ، ومن خرج حل دمه[١] ، وماله ، وتقدمت بعض القوات الإسلامية إلى حماة ولحق بهم جيش طرابلس وحمص ، فاجتمعوا على حماة عند العادل كتبغا ، فلما علم التتار بتجمعات القوات الإسلامية عند حماة أرسلوا فرقة من التتار من عشرة آلاف فارس[٢] ، إلى القريتين ، فأوقعوا بالتركمان بهـــا فسارت إليهم القوات الإسلاميـــة فى ألف وخمسمائة فارس[٣] ، فوصلوا إلى العدو وهـــو فى عرض[٤] وذلك فى الحادى عشر من شعبان عـــام ٧٠٢هـ / أول إبريل ١٣٠٣م فهاجموهم عـــلى غفلة وافترقوا عليهم أربع فرق وقاتلوهم قتالا شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى أفنوهم ، وكانوا نحو أربعة آلاف فارس[٥] وأنقـــذ التركمان وحريمهم وأولادهم

---

(١) المختصر ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) المختصر ج ٤ ص ٤٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٩ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١ .

(٤) وهى بلدة فى برية الشام بين تدمر والرصافة الهاشمية – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ حاشية ٤ النجوم ج ٨ ص ١٥٧ حاشية .

(٥) النجوم ج ٨ ص ١٥٨ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦١ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٥ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ١١٠ وذكر فى البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣ أنهم نحو سبعة آلاف .

وهم نحو ستة آلاف أسير[١] ، وكانت خسائر المسلمين فى هذه المعركة قليلة بالنسبة لخسائر العدو واستشهد من المسلمين الأمير أنص الجمدار المنصورى ومحمد باشقرد الناصرى وستة وخمسين من الأجناد[٢] فلما وصل الخبر بذلك النصر إلى دمشق زفت البشائر وكان السلطان قد خرج من مصر بقواته ومعه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعد أن استناب بمصر الأمير عز الدين أيبك البغدادى وذلك فى شعبان ٧٠٢هـ / أبريل ١٣٠٣م .

وكان للانتصار الإسلامى فى موقعة عرض على التتار أثره فى رفع الروح المعنوية عند جيش المسلمين ، فتشجعوا على قتال العدو بعد أن كانوا يئسوا من النصر بعد الهزيمة التى لحقت بهم من قبل فى وادى الخازندار وكان الانتصار كما قال أبو الفدا « عنوان النصر الثانى »[٣] .

موقعة شقحب – مرج الصفر ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م :

إلا أن التتار لم يكونوا يرضون بالهزيمة ومن ثم قرروا إعادة الكرة مرة أخرى خاصة بعد أن عاد التتار المنهزمون فى موقعة عرض إلى قائدهم قطلوشاه وأخبروه أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية وأن ليس بالشام غير جيش الشام فأراد قطلوشاه الاستفادة من تلك الفرصة قبل وصول جيش مصر والسلطان فجد قطلوشاه فى المسير بقواته البالغة مائة ألف من التتار والكرج والأرمن[٤] واندفعت العساكر الإسلامية إلى دمشق وكان العادل كتبغا مريضاً وضعيفاً فنقل فى محفة إلى دمشق واجتمع الكل بالمرج وتشاوروا فى الأمر واختلف رأيهم حول الخروج ولقاء العدو أو انتظار قدوم السلطان الذى كان فى طريقه إليهم ولكنهم خشوا من مفاجأة العدو لهم فنادوا بالرحيل عن دمشق فاضطربت دمشق وأهلها وارتفعت أسعار دواب النقل حتى بيع الحمار بستمائة درهم والجمل

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، النجوم ج ٨ ص ١٥٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ النجوم ج ٨ ص ١٥٨ .

(٣) دولة بن قلاوون فى مصر ص ١٩٧ ، المختصر فى اختبار البشر ج ٤ ص ٤٨ .

(٤) دولة بن قلاوون ص ٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ ، تاريخ المماليك بمصر ص ٧٢ .

بألف ألف درهم[1] ، وترك معظم الناس أموالهم وحاصلاتهم « وترك كثير منهم حرمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة » ولم يأت الليل إلا والتتار حول دمشق ، وخرج الجيش للقاء العدو . وبات الناس ليلتهم بدمشق فى الجامع يضجون بالدعاء إلى الله فلما أصبحوا وجدوا العدو قد ارتحل عن دمشق بعد أن وصلوا غوطة دمشق ، وعلم الأمراء فى ذلك الوقت بوصول السلطان بعساكره من مصر فساروا إليه من مرج راهط[2] وقابلوه على عقبة شجورا[3] وكان ذلك يوم السبت ثانى أيام رمضان ٧٠٢هـ / أبريل ١٣٠٣م فقبلوا لـه الأرض ومالبثوا حتى وصلت إليهم الأنباء بوصول خمسين ألفا من التتار[4] بقيادة قطلوشاه نائب غازان فاستعد الجيش ، وحملوا أسلحتهم واتفقوا على قتال العدو فى شقحب (مرج الصفر) تحت جبل غباغب[5] بعد أن تم توزيع القوات فى مواقعها سار السلطان ومعه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون ، الجيش على الجهاد ويشوقون إلى الجنة والخليفة يقول « يامجاهدون لا تنظروا ، لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم[6] فتأثر الناس وضجوا فى بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض وتواصى بيبرس وسلار على الثبات فى الجهاد ، وعاد السلطان إلى موقعه ثم وقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفاً واحداً وقيل لهم « من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه[7] زحفت كتائب التتار كقطع الليل المظلم بعد الظهر

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢، النجوم ج ٨ ص ١٥٨ ، المختصر ج ٤ ص ٤٨ .
Howorth, Part 3, P. 469.

(٢) المرج الأرض الواسعة الكثيرة النباتات، وراهط موضع فى غوطة دمشق ، النجوم ج ٨ ص ١٥٩ حاشية ١ .

(٣) وهى ممر فى الطريق بين دمشق والكسوة – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ حاشية ١ .

(٤) Howorth, Part 3, P. 469.

(٥) شقحب قرية فى أول عمل حوران من نواحى دمشق بينهما ستة فراسخ وهى فى الشمال الغربى من غباغب – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ حاشية ٤ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣، النجوم ج ٨ص ١٦٠، تاريخ المماليك البحرية ص١٢٣ .

(٧) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣ ، النجوم ج ٨ص ١٦٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ .
Howorth, Part 3, P. 469.

من يوم السبت الثانى من رمضان ٧٠٢هـ / أبريل ١٣٠٣ م وتقدم قطلوشاه بمن معه من قادة التتار وهاجموا ميمنة الجيش الإسلامى وقاتلوها فثبتت لهم الميمنة واشتد القتال بين الطرفين ، فلما رأى المسلمون ضعف الميمنة جاءتها النجدة من القلب ومن الميسرة وصاح سلار « هلك والله الإسلام » وصرخ سلار فى بيبرس الجاشنكير الاستادار والمماليك البرجية فأتوه بسرعة وهاجم بهم مقدم العدو قطلوشاه فتمكنوا من كشف التتار عن المسلمين فخرج إليهم أمراء السلطان ، لنجدة بيبرس وسلار وقاتلوا العدو فتمكنوا منه وهزموه[1] .

أما السلطان الناصر فأمضى تلك الليلة وسائر قواته على ظهور الخيل ، والطبول تضرب وجاء من انهزم شيئاً بعد شىء وهم يقصدون صوت الطبول ، والكوسات الحربية ، واشتد ساعد المسلمين وحاصروا الجبل الذى بات عليه التتار وكان بيبرس وسلار وقبجق والأمراء الأكابر أمضوا طول الليل وهم يرتبون الصفوف وينظمون الجند يؤكدون عليهم فى الحذر والتيقظ والاستعداد [2] ، فما إن طلع نهار الأحد إلا وقد اجتمع شمل عسكر السلطان الناصر ووقف كل فى مصافه مع أصحابه، ووقف الناس والأحمال والجفال خلف الجيش على بعد واستمروا على ذلك حتى ارتفعت الشمس وعندئذ شرع العدو فى ترتيب قواته ، وقاتلوا العسكر الإسلامى فتقدمت المماليك السلطانية بقادتها إلى قطلوشاه وجوبان « وعملوا فيهم عملا عظيماً تارة يرمونهم بالسهام وتارة يهاجمونهم » وأخذ الأمراء يقاتلون من صادفهم ويتناوبون أميراً بعد أمير واشتد القتال بين المماليك ، السلطانية وقطلوشـــاه واستبسل المماليك فى القتال حتى إن فيهم من قتل تحته الثلاثة رؤوس من الخيل [3] واستمر الحال كذلك حتى انتصف النهار ، (يوم الأحد) وصعد قطلو شاه الجبل مرة ثانية بعد أن قتل من رجاله نحو الثمانين [4] وجرح الكثير واشتد عطشهم وتسلل أحد أسرى المسلمين من الجبل

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣ – ٩٣٤ – النجوم ج ٨ ص ٦٠ – ١٦١

(٢) Howorth, Part 3, P. 471.

(٣) Howorth, Part 3, P. 470.

(٤) Howorth, Part 3, P. 471.

وحدث السلطان أن التتار قد أجمعوا على النزول لقتال المسلمين فجأة وقت السحر وأنهم يعانون من العطش فاتفق الرأى على أن يتاح لهم فرصة النزول والهروب فإذا ما نزلوا تولاهم الجيش الإسلامى من خلفهم ، وبات التتار على تلك الحال وأصبح النهار وهو يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٧٠٢ هـ / أبريل ، ١٣٠٣ م ونزل التتار من الجبل فلم يتعرض لهم أحد وساروا إلى نهر الفرات فاقتحموه[1] ، وعند ذلك هاجمهم المسلمون وأيدهم الله بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم « وتتبع المسلمون العدو حتى العصر ثم عادوا إلى السلطان » فسرحت الطيور بالنصر إلى غزة » ومنع المنهزمون من المسير إلى مصر ثم تتبع من سرق الأموال والخزائن السلطانية وقت هزيمة الميمنة الإسلامية فى بداية القتال يوم السبت وعين الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر وسار من وقته وكتب إلى دمشق وسائر القلاع بالبشارة أيضاً[2] ، وتتبع الأمراء فلول المغول إلى القريتين وقد كلت خيول التتار عن العدو وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل والمسلمون يقتلونهم بدون مدافعة ، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها » ثم قام الأعراب بدور كبير فى الكيد للتتار فكان العرب يأتى اثنين أو ثلاثة منهم إلى جماعة كبيرة من التتار كأنهم يسيرون بهم فى البر عن طريق قريبه حتى يأتى الليل ويعم الظلام فيتركونهم وينصرفون فينهبون فى الصحراء ويموتون عطشاً وفر بعض التتار إلى غوطة دمشق فتبعهم الناس وقتلوا منهم عدداً كبيراً أما نائب غزة فإنه تتبع المنهزمون وقبض عليهم[3] وقد اشترك النويرى صاحب كتاب نهاية الأرب فى هذه الوقعة وكان

---

(١) Howorth, Part 3, P. 472.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٦ ، النجوم ص ١٦٢ ، العبر ج ٥ ص ٤١٨ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٦ ، دولة بنى قلاوون ص ١٩٧ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٧٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٠ – ١١٤ ، المختصر ج ٤ ص ٤٩ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٥ – ٢٣٦
Howorth, Part 3, P. 473.

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٦ – ٩٣٧ ، النجوم ج ٨ ص ٦٢ – ١٦٣ ، دول الإسلام ج ٤ ص ١٦٢

فى مسيرة الجيش الإسلامى فوصف ما شهده فى العبارة الآتية « وكنت يوم ذاك بدمشق فخرجت منها بعد أن أعددت لأمة الحرب ، والتحقت بالعسكر ووجدت الجفال قد ازدحموا بالأبواب زحاماً شديداً ، وقد ذهلوا عن أموالهم وأولادهم ، ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى فوجدتهم ، منـــذ توجهوا ، إلى مرج الصفر فلحقت بالجيوش فى يومى الخميس والجمعة ، فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان دارت النقباء على العساكر وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة وأنه متى دهمهم العدو ويركبوا خيولهم ، ويكون الاجتماع عند قرية الهجة قرب خربة اللصوص ، فبتنا فى تلك الليلة وليس منا إلا من ليس لأمة حربه وأمسك عنان فرسه فى يده وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور وكنت قد أوقفت الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهار فى يوم السبت المذكور ، ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ثم ظهرت الشمس ، ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال ، وأقبل التتار كقطع الليل المظلم وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية فى ساعة واحدة[1] وذكر أن المسلمين أسروا عشرة آلاف من المغول وغنموا[2] عشرين ألف رأس من الماشية ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة[3] » .

نتائج موقعة شقحب :

ولقد كان لموقعة شقحب نتائج بالغة إذ أن التتار قضى على أغلب جيشهم فى هذه الموقعة ولم يعبر قطلوشاه مقدم التتار نهر الفرات إلا فى القليل من أصحابه وعلم غازان بهزيمة جيشه ، فانتشر الحزن فى بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٤ حاشية ٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٤ .

(٢) مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ ، الدر الفاخر ص ٨٢ — ٨٨ .

(٣) Howorth, Part 3, P. 472 475.

من المدائن إلى لقاء من عاد من جيش التتار سالماً لاستجلاء الخبر اليقين إذ للهزيمة أثر سيء على أنفسهم وهم الذين كانوا يتأهبون بأنهم قوم لا يعرفون الهزيمة ، واستمر الحزن فى تبريز شهرين على من فقد فى شقحب واغتم غازان غماً عظيماً لما علم بهزيمة جيشه حتى اقترب من الموت ، ثم جلس غازان ، لمحاكمة قطلوشاه وجوبان وسوناى ومن كان معهم من الأمراء والقادة ، فأنكر غازان على قطلوشاه الهزيمة وأمر بقتله فتوسط له بعض الأمراء حتى عفا عنه ثم أبعده عنه إلى جيلان وضرب غازان بولاى وأهانه[1] .

عودة السلطان الناصر إلى مصر بعد شقحب :

سار السلطان الناصر يوم الاثنين الرابع من رمضان ٧٠٢ هـ/ أبريل ١٣٠٣م من مكان الموقعة وبات بالكسوة ، ووصل يوم الثلاثاء الخامس من رمضان ، ٧٠٢ هـ / ٢ أبريل ١٣٠٣ م إلى دمشق وخرج أهلها لاستقباله ومعه الخليفة المستكفى بالله وابتهلوا إلى الله بالدعاء والثناء والهناء ، ثم دقت البشائر ، ونزل السلطان بالقصر الأبلق وزينت له المدينة ثم خلع على الأمراء والمقدمين ، واستمر الناس طول شهر رمضان فى مسرات ثم صلى السلطان عيد الفطر وخرج من دمشق فى الثالث من شوال ٧٠٢ هـ / مايو ١٣٠٣ م قاصداً الديار المصرية[2] . وتقدم الأمير بكتوت الفتاح إلى مصر فى ثامن شهر رمضان بالبشارة ولعمل الزينات والترتيبات الخاصة باستقبال السلطان وجيشه ، وحمل الأمير بكتوت الفتاح معه كتاب البشارة بالانتصار على التتار ، فاستمرت الترتيبات والزينات حتى وصل السلطان الناصر محمد ، فخرج أهل القاهرة إلى لقائه وكان يوماً عظيماً وتفاخر الناس فى الزينة ونصبوا أقواس النصر ، فقدم السلطان يوم الثلاثاء — ثالث والعشرين شوال عام ٧٠٢ هـ / يونية ١٣٠٣ م ، وخرجت المدينة وأهل الريف لاستقباله وكان يوماً مشهوداً ، وكان

---

(١) Howorth, Part 3, P. 475.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، العبر ج ٥ ص ٤١٨ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٤ .

الأسرى من التتار يسيرون بين يدى السلطان مقيدين ورؤوس القتلى معلقة فى رقاب الأسرى وكان عدد الأسرى ألف وستمائة فى أعناقها ألف وستمائة رأس [١] وأرسل الملك الناصر محمد إلى غازان بعد هزيمة جيشه فى موقعة شقحب ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م رسالة أخبره فيها بما جرى على جيوشه التى امتلأ من قتلاهم فسيح الأرض والفضاء حتى عفت لحومهم الوحوش [٢] .

وفاة غازان ملك مغول فارس :

وفى الثالث عشر من شوال سنة ٧٠٣ هـ / مايو ١٣٠٣ م توفى غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو ملك مغول فارس فى مدينة الرى [٣] وكانت مدة حكم غازان تسع سنوات وعشرة أشهر وقيل فى سبب وفاته إنه أصيب بحمى بعد أن علم بهزيمة جيشه فى مرج الصفر بشقحب ، وقيل إنه مات مسموماً [٤] فتولى الملك بعده أخوه خدابندا فى الثالث عشر من ذى الحجة ولقب نفسه غياث الدين محمد وكتب يخبر الملك الناصر بجلوسه وتوليته الحكم ويطلب المصالحة وإخماد الفتنة [٥] وكان غازان قد أسلم سنة أربع وتسعين وستمائة ، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس ونشر الإسلام بين التتار وأظهر العدل فى رعيته وملك بلاد العراقين وخراسان وفارس والجزيرة وبلاد سلاجقة الروم وتسمى

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٩ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٦، ١٦٧ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٠ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٤ ، الدر الفاخر ص ٨٨ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤، ١١٤٥، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٤

(٢) نص الخطاب الملحق رقم ٨ .

(٣) الرى مدينة ببلاد الجبال فيها ولد الخليفة هارون الرشيد وهى الآن تقع على مسافة خمسة كيلو مترات من شرق طهران عاصمة إيران تعرف باسم مشهد عبد العظيم ، النجوم ج ٨ ص ١٦٨ حاشية ١ .

(٤) ذكر أنه جلس على سرير الملك فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ٧٠٣ هـ – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، المختصر ج ٤ ص ٥٠ .

(٥) النجوم ج ٨ ص ١٦٨ – السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩، المختصر ج ٤ ص ٥٠ ، دائرة المعارف الإسلامية – الترجمة م ٤ ص ٤٥٤ .

بالقمان وضرب السكة باسمه وكان أجل ملوك بيت هولاكو[١] ، وبالرغم من إسلامه فإن علاقته مع المماليك كانت عدائية سادها القتال والتوتر ، وفشلت مساعى الصلح ولعل ذلك راجع إلى رغبة غازان فى أن يكون هو صاحب الكلمة فى المسلمين حيث كان يعتبر نفسه القوة التى تستطيع الدفاع عن بلاد الإسلام ، ومن ثم يجب أن تكون له المكانة الأولى، وبعد موته خفت حدة التوتر بين الجانبين[٢].

وقد ترك موت غازان حزناً عميقاً عليه فى بلاده إذ حزن عليه المسلمون من المغول حزناً عميقاً « لأنه أعاد الإسلام إلى المكانة التى كان يتبوؤها فى بلادهم قبل غزوات جنكيزخان[٣] وكان قد كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى فى البلاد ، وأقام العدل ، وخشى المسلمون فى بلاده أن يخلفه ملك يضطهد الإسلام ، والمسلمين ويسفك دماءهم » .

أما ألوجايتو خليفة غازان المعروف خدا بندا[٤] بن أرغون بن أبغا والذى لقب نفسه بالملك غياث الدين فسار على سياسة ودية مع سلاطين المماليك ، ولهذا أوفد فى بداية عهده إلى الملك الناصر محمد السفراء ومعهم الأمير حسام الدين أزدمر المجيرى ، وعماد الدين على بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى بن السكرى وهما سفراء الناصر الذين ذهبوا إلى غازان فى أواخر أيامه وذلك فى شعبان عام ٧٠٤ هـ/ مارس ١٣٠٤م ووصلا إلى القاهرة أول رمضان ومعهما كتاب خدابندا وهديته وتضمن كتابه خبر جلوسه على العرش بعد وفاة غازان[٥]، وأكد خدا بندا للناصر فى خطابه حرصه على توثيق روابط الصداقة وخاطبه فى كتابه بالأخوة وسأله إخماد الفتنة وإحلال الصلح ، وقال إن غازان قد خرب البلاد بدون عقل وكان مسلم الظاهر كافر الباطن وما دخوله الشام برضاى ولا برضاء أمراء المغل ، فلذلك قتله

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٦ ، النجوم ج ٨ ص ٢١٣ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ .

(٣) أصل اسمه فربندا ثم تغير خدابندا ومعناه عبدا لله وهو محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولى بن جنكيزخان ، النجوم ج ٨ ص ١٦٩ حاشية ٢ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦ ، الدر الفاخر ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٥) الدر الفاخر ص ١٢٧ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦ .

الله تعالى ، وقال فى آخر كلمة « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه »[١] ، فاستجاب الناصر لطلبه وجهز له هدية مع بعض الرسل وأكرم رسله وسير معهم علاء الدين على بن الأمير سيف الدين بلبان القلنجقى أحد مقدمى الحلقة والصدر سليمان المالكى المرتقى وساروا فى أول ذى القعدة عام ٧٠٤ هـ / مايو ١٣٠٥ م وعاد علاء الدين وسليمان المالكى من بلاد خدابندا فى رمضان عام ٧٠٥ هـ / مارس ١٣٠٦ م[٢] ، وكان ملك مغول الشمال ابن أخى بركة أرسل رسله عام ٧٠٤هـ » / ١٣٠٥ م إلى الملك الناصر ومعهم هدية وجوار كثيرة ومماليك بلغ عددهم أربعمائة مملوك ومائتى جارية ، فأخذ السلطان منهم مائة وعشرين مملوكاً والباقى اشتراه الأمراء ، وتضمنت رسالة هؤلاء الرسل طلب ملك الشمال التعاون والتحالف ضد خدابندا ، وأن يسير لمحاربته فى وقت واحد وقال للناصر : وحيث ما وصلت خيلنا من البلاد فهو لنا وحيث ما وصلت خيلكم من البلاد فهو لكم ، ولذلك كان خدابندا يحاول عقد الصلح مع الناصر حتى لا ينضم إلى ملك الشمال من ناحية ويقف على الحياد من ناحية أخرى[٣] ، إلا أن العلاقات بين خدابندا والمماليك ساءت وكان ذلك بسبب اعتناق خدابندا — ألوجايتو — المذهب الشيعى وعمل على نشره فى الجهات الغربية من دولته وأمر الخطباء ألا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، هذا فى الوقت الذى كان فيه المماليك يعتنقون مذهب السنة ويعتبرون أنفسهم حماة له ، ومن ثم توترت العلاقات بين الطرفين فأرسل إلى البابا كلمنت الخامس ، وإدوارد الثانى ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب إليهم مساعدته فى احتلال الشام ومصر ، إلا أن ملوك أوربا والبابا لم يكترثوا لطلبه ولا بتحقيق رغبته لأن أحوالهم الداخلية لم تكن تسمح لهم بخوض غمار حرب المسلمين خاصة بعد القضاء على باقى الإمارات الصليبية فى فلسطين والتى كانت تعتبر ثغوراً لهم وكان ذلك فى عام

---

(١) الدر الفاخر ص ١٢٧ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) الدر الفاخر ص ١٢٨ .

(٣) النجوم ج ٨ ص ٢٧٨ .

١٢٩١م عندما استولى الأشرف خليل بن قلاوون على عكا وغيرها من إمارات الاستعمار الصليبي [١] .

وفود بعض التتار إلى بلاد الإسلام :

علم السلطان الناصر بقدوم الأمير بدر الدين جنغلى بن شمس الدين البابا وهو أحد مقدمى التتار ومعه نحو عشرة من أهله وأتباعه ، وكان أحد عيون الملك الناصر على التتار [٢] ، فكتب الملك الناصر إلى نائب حلب باستقباله فتلقاه وبالغ فى إكرامه ، ثم تلقاه نائب دمشق واستمرت الاستقبالات له فى كل منزل حتى وصل القاهرة ، فخرج الأمير بيبرس الجاشنكير لاستقباله ، ومعه الأمراء ، ثم مثل بين يدى السلطان فى الثالث من ذى الحجة ٧٠٣ هـ / يولية ١٣٠٤ م وأنزل فى دار بقلعة الجبل [٣] حيث منحه الناصر إمرة ألف ، ثم وصل جماعة من التتار مستأمنين عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م وكانوا نحو مائتى فارس بنسائهم وأولادهم وفيهم جماعة من أقارب السلطان غازان وبعض أولاد سنقر الأشقر الذى كان ببلاد التتار قبل ذلك ، فكتب الناصر إلى نوابه بالشام باستقبال الوافدين حتى وصلوا إلى القاهرة فى جمادى الأولى عام ٧٠٤ هـ / ديسمبر ١٣٠٤ م معهم أخوا الأمير سلار نائب السلطنة وهما فخر الدين داود وسيف الدين حبا [٤] ، فرتبت للوافدين الرواتب وأعطوا الإقطاعات ووزع جماعة منهم على الأمراء [٥] .

محاولة غزو سيس عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م :

كان ملك سيس يقدم ضريبة سنوية للمماليك دليلا على الولاء وحسن الجوار، ولكنه فى عام ٧٠٤ هـ/١٣٠٥ م امتنع عن دفع تلك الضريبة التى جرت بها العادة ،

(١) السلوك ج ٢ ق١ ص ٦ ، النجوم الزاهرة ج ٨ص ٢٧٨ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٠ .

(٤) وكان سلار من أسرى وقعة الأبلستين أيام الملك الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٥ حاشية ٤ .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ .

وكان معنى هذا خروجه عن ولاء المماليك ومن ثم أرسل إليه نائب حلب استاداره قشتمر الشمسى أحد مقدمى حلب ، ومعه نحو ألفى جندى فى ذى الحجة عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م فأغارت القوات الإسلامية على بلاد سيس ونهبوا واحرقوا كثيراً من الضياع وسبوا النساء والأطفال وكان ذلك فى المحرم من عام ٧٠٥ هـ / يولية ١٣٠٥ م وكان ابن قطلوشاه مقدم التتار بأطراف بلاد الروم ومعه ثلاثة آلاف جندى كانوا ساروا خلف والده وأخيه سلار نائب السلطنة الذين دخلوا بلاد الإسلام ولكنهم لم يتمكنوا منهم ، فعلموا بأخبار غزو جيش حلب لبلاد سيس فساروا نجدة لصاحبها ، فأنفق فيهم الأموال وأعطى كل فارس منهم سبعمائة درهم فاجتمع لديه حوالى ستة آلاف جندى[1] وقيل غير ذلك وهو أن جماعة من التتار وصلوا يطلبون المال من صاحب سيس فلما بلغهم خبر الغارة الإسلامية على بلاد سيس ساروا مع صاحب سيس وملكوا طريق الدرد بند (الطريق) وكان المسلمون فى عشرة آلاف فارس تقريباً إلا أنهم لم يعدوا أنفسهم إعداداً كاملا لقتال العدو ، فتقدمت قوات العدو وقاتلوا مع المسلمين الذين انحصروا فى هذا الممر الضيق (الدردبند) فرمى التتار المسلمين بالنشاب ورمى الأرمن الحجارة فقتلت جماعة من المسلمين ، ثم سار التتار بالأسرى إلى خربندا بالأردو ، ثم علم نائب حلب بالهزيمة التى لحقت بالحملة فكتب بذلك إلى السلطان الناصر والأمراء فتقرر خروج الأمير بكتاش أمير سلاح وبيبرس الدوادار وأتوش الموصلى قتال السبع والدكز النلاح دار فساروا من القاهرة فى منتصف شعبان عام ٧٠٥ هـ / مارس ١٣٠٦ م ومعهم أربعة آلاف فارس فلما علم صاحب سيس بهم خشى على نفسه فأرسل ما أخر عليه مما كان يحمله السلطان من الهدايا والأموال واعتذر بأن القتال والهزيمة السابقة التى لحقت بالمسلمين لم تكن بإرادته ، وإنما بسبب التتار ، ووعد أيضاً بالتحايل فى إحضار الأمراء المأسورين ، ثم عاد الأمير بكتاش بالجيش من غزة ، وفى عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م وصلت رسل صاحب سيس ومعهم الهدية بعد أن أطلق مائتين وسبعين أسيراً من المسلمين وجاءوا إلى حلب[2] وذلك فى عام ٧٠٧هـ

---

(١) الدر الفاخر ص ١٣١ .

(٢) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦ ، ١٧ - ٣٠ ، المختصر ج ٤ ص ٥١ - ٥٢ .

١٣٠٧ م أما الأمير فتح الدين بن صبرة فقد هرب من بلاد التتار ومعه جماعة ممن أسروا فى غزوة سيس المذكورة[1] .

اضطراب السلطنة المملوكية فى مصر :

ضجر السلطان الناصر من تحكم الأمير بن سلار نائب السلطنة وبيبرس ، الجاشنكير فى شئون دولته وملكه ووقعت الفرقة والخصام بين السلطان والأميرين سلار وبيبرس واستطاع سلار وبيبرس إبعاد كثير من أمراء السلطان وخاصته وذلك تمهيداً للاستيلاء على السلطنة ، واستمر ذلك الحال حتى شهر جمادى الآخرة عام ٧٠٨ هـ / نوفمبر ١٣٠٨ م فقرر الناصر الرحيل عن مصر والذهاب إلى الكرك ، فتظاهر بأنه يريد الحج فوافق سلار وبيبرس على ذلك ما يتيح لهم والمماليك البرجية تحقيق أغراضهم فى غيبته ، فسار من القاهرة فى الخامس والعشرين من رمضان ٧٠٨ هـ / مارس ١٣٠٩ م[2] ومعه جماعة من الأمراء ثم وصل إلى الكرك فى اليوم العاشر من شوال ٧٠٨ هـ / مارس ١٣٠٩ م[3] بمن معه من الأمراء ومماليكه ، ثم اجتمع الناصر بالأمراء الذين رافقوه ، وأخبرهم بأنه قرر الإقامة فى الكرك واعتزال الحكم وترك السلطنة وكتب إلى الأمراء فى مصر بذلك وطلب منهم الإنعام عليه بالكرك والشوبك ، ثم أمر الأمراء الذين قدموا معه بالعودة إلى مصر فعادوا ، وفى مصر تقرر إقامة سلطان جديد بعد أن علموا بتنازل الناصر ، فأشاروا بسلطنة الأمير سلار ولكنه خشى عاقبة ذلك فامتنع ، فاختار الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبويع له ولقب المظفر وذلك فى الثالث والعشرين من شوال عام ٧٠٨ هـ / أبريل ١٣٠٩ م وعين سلار نائباً للسلطنة[4] ، ثم كتب تقليداً إلى

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٣٦ .

(٢) ذكر أنهم ساروا فى يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان ٧٠٨ هـ ، الدر الفاخر ص ١٥٦ .

(٣) وذكر أن ذلك يوم الأحد الثامن من شوال ٧٠٨ هـ الدر الفاخر ص ١٥٦ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٣٣ - ٣٦ ، ٤٤ - ٤٥ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥-١٧٩ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٧ ، العبر ج ٥ ص ٤٢٢ ، أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر والدول ص ١٣١ .

الملك الناصر محمد بالإنعام عليه بالكرك والشوبك[١] وفى هذه الآونة أغارت طائفة من المغول على قلعة كركر ونهبوا من فيها من التركمان ، فسارت إليهم القوات وهاجموا التتار فى الليل وقتلوهم واستردوا ما أخذوه من قلعة كركر وأسروا منهم ستين رجلا وغنموا عدة خيول[٢] .

اضطراب أحوال السلطان المظفر الجاشنكير :

اشتد السلطان الجديد بيبرس الجاشنكير فى مطالبة الملك الناصر محمد بدفع الأموال التى أخذها من الكرك والخيل التى أخذها معه من مصر والمماليك الذين استقروا عنده وتبودلت الرسائل بين الطرفين فى هذا الشأن[٣] ولكن دولة الجاشنكير بدأت تنهار شيئاً فشيئاً وذلك بسبب اختلاف الأمراء فى مصر والشام مع السلطان المظفر وتركهم لطاعته وتحولهم إلى مناصرة الملك الناصر محمد ، مما أثار خوف المظفر وشجعه أنصاره على القبض على الناصر ولكنه لم يفعل ذلك خوفاً منه ، وأرسل يطالبه بالأموال والخيل والمماليك ، فأجابه الناصر إن استمر فى طلب ذلك فإن الناصر سيسير إلى بلاد التتار يخبرهم بما أحدث الملك المظفر ، وكتب الناصر إلى نواب الشام بحلب وحماة وطرابلس وصفد وأمراء مصر ممن يثق به موضحاً لهم سوء حالته أثناء سلطنته الثانية ، وحجر الأمير سلار وبيبرس عليه مما أدى إلى اعتزاله للحكم ومسيره إلى الكرك ، وأوضح أيضاً للأمراء مطالبة المظفر له بالمال والمماليك وقال لهم « فإما أن تردوه عنى وإلا أسير إلى بلاد التتار »[٤] فاستجاب كل هؤلاء النواب ماعدا نائب صفد فقد طرد مندوب الملك الناصر ولم يجتمع به ومال نائب دمشق ومعظم أمراء الشام للملك الناصر وحضر إليه كثير من مماليك مصر ثم سار الناصر إلى دمشق فى شعبان ٧٠٩ هـ / يناير ١٣١٠ م ودخل المدينة فى الثانى عشر

---

(١) النجوم ج ٨ ص ١٨١ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٨ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص٤٥، ٤٦ ، العبر ج ٥ ص ٤٢٢ ، الدر الفاخر ص١٥٦ أخبار الأول ص ١٣١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٧ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٣ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ،

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٥٦ ، العبر ج ٥ ص ٤٢٢ .

من شعبان[١] وقدم إلى الناصر محمد نائب حلب الأمير قراسنقر والأمير قبجق نائب حماة والأمير اسندمر كرجى نائب طرابلس وتمر الساقى نائب حمص ، فاستقبلهم وشكرهم وأثنى عليهم[٢] فلما علم الملك المظفر فى مصر باستيلاء الملك الناصر على الشام بغير قتال واجتماع الأمراء معه وتأييدهم له ، قلق المظفر واضطربت الدولة وخرجت عساكر مصر فرقة بعد أخرى إلى الناصر ، ولم يبق مع المظفر إلا خواصه فاضطربت القاهرة لرحيل الأمراء إلى الملك الناصر ، فلما كان يوم الثلاثاء السادس عشر من رمضان ٧٠٩ هـ / فبراير ١٣١٠ م استدعى الملك المظفر الأمراء كلهم واستشارهم فيما يفعل بعد أن أوشك حكمه على الانهيار ، فأشار بعضهم عليه بالتنازل عن العرض والإشهاد على ذلك ، وأن يرسل إلى الملك الناصر محمد يستعطفه فأرسل إلى الملك الناصر يطلب منه أن يوليه ، إما الكرك ، وأعمالها أو حماة وبلادها أو صهيون وملحقاتها[٣] . ويتضح من الكتاب الذى كتبه المظفر إلى الناصر أنه كان مضطراً إلى الاستسلام وكتب إلى الناصر يقول : والذى أعرفك به أننى قد رجعت أقلدك بغيك فإن حبستنى عددت ذلك خلوة وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة . فلما سمع الملك الناصر ذلك ولاه على صهيون[٤] ثم جمع المظفر ما أراده من مال وخيل واصطحب مماليكه وعدتهم سبعمائة فارس وخرج من القاهرة إلى أطفيح ، ثم انتهى به الحال إلى أن قتله الناصر فى ذى القعدة عام ٧٠٩ / أبريل ١٣١٠م[٥] .

وأقام الأمير سلار بالقلعة وخطب للملك الناصر محمد فى مساجد القاهرة يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان ٧٠٩ هـ / فبراير ١٣١٠ م وزالت دولة الملك المظفر[٦] وسار الملك الناصر من دمشق إلى مصر فوصلها واستقبل استقبالا رائعاً ودخل قلعة الجبل فى أول شوال ٧٠٩ هـ / مارس ١٣١٠ م ثم جلس فى ثانى أيام

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٠ ، النجوم ج ٨ ص ٢٧١ ، العبر ج ٥ ص ٥٢٣ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٩ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٥ .

(٦) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧١ ، النجوم ج ٨ ص ٢٧١ .

شوال على سرير الملك واستقر حكمه[١] وجعل نائبه فى السلطنة بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار وولى قراسنقر المنصورى نائباً بدمشق والأقوش نائباً على صرخد وسيف الدين قبجق نائباً لحلب وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس وساروا جميعاً إلى نياباتهم[٢] .

هرب نواب الشام إلى بلاد التتار :

أشرنا أن الملك الناصر أقر الأمير قراسنقر نائباً بدمشق والأمير قبجق نائباً بحلب ولكنه نقل قراسنقر إلى نيابة حلب بدلا من دمشق وجعل فى دمشق الأمير سيف الدين كواى المنصورى ثم اعتقله وولى مكانه على دمشق جمال الدين أقوش ، ثم قبض الناصر على بكتمر الجوكندار نائب مصر وحبسه بالكرك وجعل بدلا منه فى نيابة مصر الأمير بيبرس الدوادار ، ولما كثر القبض على الأمراء خشى قراسنقر على نفسه وارتاب فى نيات السلطان نحوه وانضم إلى بعض الأمراء فساروا إلى بلاد التتار وعبروا الفرات وساروا إلى ماردين حيث استقبلهم نائبها وأكرمهم وقدم لهم تسعين ألف درهم[٣] ، ثم كتبوا إلى خدابندا ملك التتار يخبرونه بقدومهم ويطلبون منه السماح لهم بالدخول إلى بلاده فأذن لهم وأمر نواب الأقاليم بالإحسان إليهم واستقبالهم ، فلما اقتربوا من الأردو « المعسكر » ركب لاستقبالهم وترجل لهم لما ترجلوا له وبالغ فى إكرامهم وسار بهم إلى مخيمه وأجلسهم معه على التخت وضرب لكل منهم خيمة ورتب لهم الرواتب السنية ، ثم استدعاهم بعد يومين واجتمع مع قراسنقر على انفراد وسأله فحسن له غزو الشام وضمن له تسليم البلاد بغير قتال ، ثم خلا بالأمير آقوش الأفرم وحسن له أيضاً أخذ الشام إلا أنه خوفه من قوة الملك الناصر

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٣ ، النجوم ج ٩ ص ٣ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٦ ، الدر الفاخر ص ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، المختصر ج ٤ ص ٥٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٤٢٤ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) العبر ج ٥ ص ٤٢٥ .

وكثرة جيشه ، فأقطع خدابندا مراغة[1] للأمير قراسنقر وبقى عندهم إلى أن مات ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م وأقطع همدان[2] للأمير أقوش الأفرم واستمروا هناك[3] ، ولما علم الملك الناصر محمد بمسير أمراء الشام إلى بلاد التتار اتهم باقى أمراء الشام الذين بقوا فى الشام بالتآمر مع قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وعسكرهم إلى مصر وقبض على الأمراء واستناب آخرين مكانهم[4] :

محاولة خدابندا غزو الشام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م :

كان السلطان الناصر عزل الأمير مهمنا بن عيسى من نيابته ورئاسته للأعراب وجعل بدلا منه أخيه فضل بن عيسى أميراً على العرب ، فاستاء مهنا من ذلك وسار إلى بلاد التتار ولحق بالأمراء الذين دخلوا إلى خدا بندا ، فلما وصل إلى ملك التتار شجعه على فتح الشام وتحرك خدابندا بقواته نحو الشام فعلم الملك الناصر بذلك فجمع الجيش واستعرض قواته وكتب إلى نواب الشام بالاستعداد واستمر عرض الجيش من خامس ربيع الآخر ٧١٢ هـ حتى أول جمادى الأولى / ١ أغسطس ١٣١٢ — ٤ سبتمبر ١٣١٢ م[5] وسارت هذه القوات إلى الشام حتى لم يبق بمصر أحد العسكر » وخرج السلطان فى الثانى من شوال عام ٧١٢ هـ / آخر يناير ١٣١٣ م بعد أن استناب بالقلعة سيف الدين ايتمش المحمدى وبينما السلطان يسير إلى بلاد الشام وصل إليه الخبر فى الثامن من شوال بعودة التتار إلى الشرق وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان ٧١٢ هـ / يناير ١٣١٣ م بعد أن نزلوا على الرحبة فى أول رمضان فتركوها وساروا إلى بلادهم ، وفى أول رمضان عام ٧١٢ هـ / آخر ديسمبر ١٣١٢ م وصل التتار إلى الرحبة وحاصروها ثلاثة وعشرين يوماً[6] وأقاموا حولها سبع حلقات من القوات لإحكام حصارها ونصبوا عليها

---

(١) تقع بإقليم أذربيجان مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥٠ .

(٢) تقع ببلاد الجبل شمال نهاوند ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٥ حاشية ٥ .

(٣) الدر الفاخر ص ٢٢٢ — ٢٣١ تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٨٠ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٥ ، النجوم ج ٩ ص ٣٠ — ٣٣ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٤ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٨ ، تاريخ المماليك بمصر ص ١٢٦ .

(٤) العبر ج ٥ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٤ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٩ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٥ .

(٦) ذكر أن مدة الحصار دامت شهراً .

المجانيق[١] وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين موسى خمسة أيام قتالا عظيماً ، ومنعهم من دخولها فأشار عليه رشيد الدولة بأن ينزل جماعة من الرحبة إلى خدابندا ويقدموا له هدية ويطلبون منه العفو ، فنزل القاضى نجم الدين إسحاق ومعه جماعة، وقدموا لخدابندا خمسة جياد وعشرة أباليج سكر فقبل ذلك وعاد بقواته إلى بلاده فطابت النفوس بعد اضطراب شديد عم بلاد الشام وجفل الناس فى حلب وحمص وحماة ، فلما رحل العدو اطمأن الناس وعادوا إلى حياتهم الطبيعية ، وكان من أسباب عودتهم قلة العلف اللازم لدوابهم وغلاء الأسعار وموت الكثير منهم [٢] ، وذكر أيضاً أن نجمة خاتون محظية الملك خدابندا ومغنيته كانت معه فى حصار الرحبة طلبت من خدابندا الرحيل وترك الرحبة لأنها ضجرت من ذلك المكان ، فاستجاب لها[٣] فترك الملك الناصر جيشه فى قاقون وعسقلان وعزم على الحج ودخل دمشق فى شوال ، ثم غادرها فى ذى القعدة ٧١٢هـ/ مارس١٣١٣م إلى الكرك ومنها إلى الحجاز ومعه أربعون أميراً [٤] وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى الشام فى محرم ٧١٣ هـ / مايو ١٣١٣ م وعاد إلى القاهرة فى صفر ٧١٣ هـ[٥] .

إستيلاء المسلمين على ملطية :

سار نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز بجيشه ومعه قاضى القضاة نجم الدين بن صصرى وشرف الدين بن فضل الله وتبعه عسكر صفد وحمص وحماة وطرابلس ، وسار تنكز إلى حلب وخرج معه الأمير قرطاى والأمير ملكتمر الجمدار إلى ملطية وكان يعتقد أن المسير إلى بلاد سيس ولكن كان الهدف غزو ملطية لأن الناصر كان قد أرسل بعض الفدائيين من أهل مصياف لقتل قراسنقر الذى لجأ

---

(١) الدر الفاخر ص ٢٥٣ .

(٢) المختصر ج ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٩ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٦٦ ، ٦٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٦ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٩ الدر الفاخر ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) الدر الفاخر ص ٢٦١ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٩، دولة بنى قلاوون ص ٢٠٥ ، النجوم ج ٨ ص ٣٤ ، ٣٥ . Howorth, P. 3, P. 567.

(٥) النجوم ج ٨ ص ٣٥ .

إلى التتار ، ولكن رجلا من الأكراد يقال له مندوه كشف أمر هؤلاء الفداثيين وقبض على جماعة منهم ، فغضب السلطان لذلك وكان نائبها من جهة جوبان يقال له بدر الدين ميزامير بن نور الدين فخشى من مندوه أن يأخذ منه نيابة ملطية، فما زال السلطان يتحايل حتى نجح فى مراسلة الأمير ميزامير نائب ملطية واتفق معه على أن يسلم البلد لعسكر الناصر فوافق النائب فجهز الناصر الجيش ، فسارت القوات مع تنكز حتى وصلوا إلى ملطية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم ٧١٥ هـ / آخر أبريل ١٣١٥ م ، وحاصرها ثلاثة أيام فاتفق الأمير ميزامير مع أعيان ملطية على تسليمها وخرج معه جماعة من أعيان ملطية إلى تنكر فأمنهم وألبسهم التشاريف السلطانية المجهزة من القاهرة ، وأعطى الأمير ميزامير سنجقاً سلطانياً ثم قبض على مندوه الكردى وسار العسكر مع تنكز عائداً فى الرابع والعشرين من المحرم ٧١٥ هـ/ أول مايو ١٣١٥ م بعد أن ترك نائب حلب لهدم أسوار ملطية ولكن مندوه الكردى هرب قبل دخول الدربند ثم وصلوا إلى الشام وسار ميزامير وابنه وثلاثين رجلا مع الجيش فوصلوا فى الخامس من ربيع الآخر ٧١٥ هـ / يولية ١٣١٥م[١] أما مندوه الكردى فإنه طلب الأمان من السلطان فأمنه وأنعم عليه بإمرة فى دمشق وذلك عام ٧١٧ هـ/ ١٣١٧م[٢] ، ثم قبض على الأمير بدر الدين ميزامير بن الأمير نور الدين صاحب ملطية لأنه كاتب جوبان مدبرة دولة أبا سعيد بن خدابندا يطلب منه أن يطلبه من الملك الناصر فلما علم الناصر بذلك شك فيه وقبض على مندوه الكردى بغزة وذلك عام ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م[٣] .

غارة المسلمين على ماردين ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م :

سار الأمير شهاب الدين قرطاى من حلب ومعه سمائة فارس للغارة على ماردين وديتسر[٤] وذلك لعدم احترام صاحبه ماردين مما التزم به ومخالفته

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٢٦ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٨٤ .

(٤) ديتسر : بلدة مشهورة من نواحى الجزيرة تحت جبل ماردين – مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٣٥٧ .

لإدارة وأوامر السلطان الناصر محمد ، فشن الأمير قرطاى هجوماً على بلاد ماردين لمدة يومين فصادف جماعة من التتار فى ألفى فارس حضروا إلى ماردين لجباية المال أو القطيعة السنوية ، فحاربهم قرطاى وقتل منهم ستمائة رجل وأسر مائتين وستين أسيراً وقدم بالرؤوس والأسرى إلى حلب ولما علم السلطان الناصر بذلك سر سروراً عظيماً وأرسل التشريفات لنائب حلب والأمير قرطاى[1] .

استعانة شريف مكة بالمغول :

تقاتل شريف مكة أبو الغيث مع أخيه حميضة وسار العسكر من مصر لتأديبه وبعد قتال مع حميضة انهزم وسار يريد الدخول فى بلاد التتار فتلقاه خدابندا ملك المغول فارس وأكرمه وأقام حميضة عنده شهراً واقترح على خدابندا إرسال طائفة من المغول إلى بلاد الحجاز ليملكها ويخطب له على منابرها ، ومن ثم جرد خدابندا مع حميضة أربعة آلاف فارس وسار حميضة بهم فى شهر رجب ٧١٥ هـ / أكتوبر ١٣١٥ م يريد مكة ، وأخذ خدابندا يجمع الجيش للعبور إلى بلاد الشام ولكنه مات قبل تحقيق هذا الغرض ، ولما علم محمد بن عيسى بمسير حميضة وجيش التتار إلى الحجاز شق ذلك عليه ولكنه علم بموت خدابندا فسار ومعه العرب وهاجم جيش التتار وحميضة ليلا ووضع فيهم السيف وهو يصيح باسم الملك الناصر محمد ، فقتل أكثرهم ونجا حميضة وأسر من التتار أربعمائة[2] وغنم كثيراً من الغنائم ، فلما علم السلطان بذلك سر كثيراً واستدعى الأمير محمد بن عيسى (أمير العرب) وأنعم عليه ، ولكن حميضة عاد من العراق فى ذى القعدة عام ٧١٧ هـ / يناير ١٣١٨ م ومعه نحو الخمسين نفراً من المغول فمنعه أخوه رميثة من الدخول إلا بإذن السلطان الناصر فكتب الناصر يمنعه من دخول مكة مالم يقدم إلى مصر ثم هرب رميثة أمير مكة إلى مصر خوفاً من أخيه حميضة الذى ملك مكة وخطب لأبى سعيد بن خدابندا فسير الناصر إليه الجيش لتأديبه[3] .

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٧ ، دولة بنى قلاوون بمصر ص ٢٠٥ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٨ .

وفاة خدابندا ملك مغول فارس :

توفى خدابندا محمد بن أرغون بن ألغا بن هولاكو بن تولى بن جنكيزخان ملك فارس وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمنية ودياربكر وذلك فى السابع والعشرين من رمضان عام ٧١٦ هـ / ديسمبر ١٣١٦ م[١] ودفن بمدينـــة السلطانية التى أنشأها بالقرب من قزوين وكان قد اعتنق مذهب الرافضة الشيعة وذلك بعد اجتماعه مع تاج الدين الاوى الرافضى ، وكتب إلى سائر بلاده يأمرهم بسب الخلفـــاء أبى بكر وعمر وأمر باتباع مذهب الشيعة الرافضة وقيل إنه عزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة المنصورة لنقل رفات أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ولكنه هلك قبل تحقيق هذا الهدف [٢] وتوترت العلاقات بين خدابندا والمماليك بسبب اعتناقه المذهب الشيعى ، وحاول غزو الشام ونشر المذهب الشيعى فيها وحاول الاستعانة بالملوك الأوربيين وأرسل البعوث إلى البابا من أجل ذلك ولمعاقبة المماليك ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل أيضاً[٣] وبعد وفاته تولى الملك ابنه أبو سعيد فى الثالث عشر من ربيع الأول ٧١٧ هـ / مايو ١٣١٧ م وكان فى مدينة أخرى فقدم منها وتولى السلطة وكان صغير السن فأصبح الأمير جوبان مدبراً للجيوش والممالك وهو سنى المذهب ، ومن ثم أحيا المذهب السنى من جديد [٤] عبر نهر الفرات فى أواخر شعبان ٧١٧ هـ جماعة من التتار بقيادة الأمير طاطاى ودخلوا القاهرة فى شوال ٧١٧ هـ / ديسمبر ١٣١٧ م[٥] .

---

(١) وذكر أن وفاته فى سادس ذى الحجة ٧١٦ هـ ذلك أن زوجته وضعت له سماً باتفاق مع الوزير خواجا رشيد الدين والحكيم جلال الدين واسم زوجته قطلوشاه خاتون ابنة ارتجال خال الملك خدابندا ـ الدر الفاخر ص ٢٨٨ . Howorth, Part 3, P. 572.

(٢) النجوم ج ٩ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٣) تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٧ ، دولة بنى قلاوون ص ٢٠٥ ، تذييل دول الإسلام ج ٢ ص ١٧٣ ، النجوم ج ٩ ص ٢٣٩ ؛

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٧٤ .

علاقة أبي سعيد ملك مغول فارس بالمماليك :

ولقد كان عهد أبي سعيد بن خدابندا عام ٧١٧ هـ — ٧٣٥ هـ (١٣١٣ — ١٣٣٤ م) بداية جديدة للعلاقات بين التتار والمماليك إذ تحسنت العلاقات بين الملك الناصر محمد والمغول وذلك لأسباب منها أنه فى سنتى ١٣١٨ — ١٣١٩ م نزل ببلاد آسيا الصغرى قحط ومجاعة ، ثم تلتها الأعاصير والزوابع مما أثار فزع الملك أبي سعيد فاستشار علماء الدين فى سبب تلك الشدائد فأخبروه بأن السبب ما انتشر فى البلاد من فساد وموبقات وشرب للخمر ، فأمر أبو سعيد بإغلاق الحانات وإصلاح أحوال البلاد ، وأظهر الدين الإسلامي والمذهب السنى على وجه الخصوص ، مما كان له كبير الأثر فى تحسين العلاقات بين الدولة المغولية ودولة المماليك وجنح الفريقان للسلم وتركوا القتال هذا بالإضافة إلى ضعف دولة أبي سعيد واضطرابها ووقوع الفتنة بين المغول وذلك بسبب تحكم جوبان فى أبي سعيد وعجز الأخير عن القبض عليه وقتل بسبب الاضطرابات والفتنة كثيراً من أمراء المغول والأجناد والأتباع وانتصر أبو سعيد على خصمه فسر السلطان الناصر بذلك لما فيه من انقسام صفوف المغول وانشغالهم بمشاكلهم [١] وحدث أن أرسل السلطان الناصر ثلاثين فداثياً لقتل الأمير قراسنقر الذى هرب إلى خدابندا قبل ذلك ، فلما وصلوا إلى تبريز تقرب بعضهم إلى قراسنقر وأعلمه بما يدبر له فقبض على بعضهم وقتلهم وحاول البعض الآخر قتله ولكنه لم يفلح وذاع فى الأردو أن الفداثيين يريدون قتل السلطان أبي سعيد وجوبان والوزير على شاه وقراسنقر وأمراء المغول فاحتبسوا على أنفسهم وقبضوا على جماعة من الفداثيين ثم احتجب أبو سعيد أحد عشر يوماً خوفاً على نفسه ، وطلب المجد إسماعيل السلامى سفير الملك الناصر ببلاد التتار ، وأنكر عليه جوبان مافعله الفداثيون وقال له « مالك

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٨٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩٣ ، ٩٤ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧١ .
Howorth, Part 3, P. 585, 590 & 595.

أنت كل قليل تحضر إلينا هدية وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحبك لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والإسماعيلية » [١] ثم هدده بالقتل لولا تدخل الوزير على شاه فعفا عنه ثم تنكر جوبان لما يفعله الإسماعيلية من قتل بعض أمراء المغول وجهز الأمير المجد السلامى إلى مصر ليكشف الخبر ويبحث القضية مع السلطان وأرسل التتار بعده رسلا يحملون هدية لسلطان المماليك [٢] .

مفاوضات الصلح بين التتار والمماليك :

وصل الأمير المجد السلامى [٣] فى طلب الصلح فخرج القاضى كريم الدين الكبير لاستقباله ، وصعد به إلى قلعة الجبل فأخبر السلطان برغبة جوبان مدبر دولة أبى سعيد وأعيان دولته فى الصلح ، وقال إن رسل أبى سعيد وهداياه فى طريقهم إلى مصر ، فكتب إلى نائبى حلب ودمشق باستقبال الرسل وإكرامهم فوصلوا فى عام ٧٢٣ / ١٣٢٣ م [٤] ومعهم كتاب أبى سعيد يطلب الصلح واشترط فيه شروطاً منها : أولا : ألا يدخل الفدائيون إلى بلاد التتار ، وثانيا : أن من يقدم من مصر إلى التتار لايرد إلى مصر . ومن يقدم منهم إلى مصر لايعود إلى التتار إلا برضاه ورغبته . ثالثاً : وألا يبعث السلطان العرب والتركمان للإغارة على بلاد التتار . رابعاً : وأن تفتح الطريق وتؤمن لتيسير التجارة بين البلدين هذا بالإضافة إلى أن يسير ركب الحجاج من العراق إلى الحجاز فى كل عام بمحمل ومعه سنجق فيه اسم صاحب مصر مع سنجق أبى سعيد، كذلك لايطلب السلطان الناصر الأمير قراسنقر ولا يحاول قتله [٥] فجمع الملك الناصر الأمراء واستشارهم فى ذلك بعد ما قرأ عليهم كتاب أبى سعيد فاتفق الرأى على عقد الصلح بالشروط المذكورة ، ومن أسباب ذلك الصلح أن جوبان مدبر دولة أبى سعيد كان مسلماً

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ .

(٣) مجد الدين السلامى وهو تاجر يتنقل فى بلاد المغول ويقوم بدور السفير — الدر الفاخر ص ٣١٢ ،

(٤) الدر الفاخر ص ٣١٢ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، العبر ج ٥ ص ٤٣١ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٧ .

وأن السلطان الناصر يرغب فى منع الخارجين عليه من الدخول فى خدمة المغول وتحريضهم على غزو الشام وقتال المسلمين ، وعقدت الهدنة بينهما لمدة عشر سنوات وعشرة أيام وتوقفت العلاقات من أجل ذلك حتى اعترف كل منهما براية الآخر فى الحج[1] وجهزت الهدايا لأبى سعيد بما قيمته أربعين ألف دينار[2] ، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الملك الناصر محمد على منابر مكة وحدث أن أرسل الناصر رسله ومعهم كتاب يطلب من التتار ألا يمكن عرب آل عيسى من دخول العراق لخروجهم على طاعة الملك الناصر واعتدائهم على رسل أبى سعيد وسرقتهم للهدية فى هذه المرة وأن العسكر خرج لقتالهم ، ثم سافر المجد السلامى إلى التتار ليبشرهم بعودة الرسل والهدية من سلطان مصر والشام ومعهم رسالة الناصر محمد إلى الملك أبى سعيد وكتب لصاحب مكة بإكرام حجاج العراق والدعاء لأبى سعيد بعد الملك الناصر محمد فى منابر مكة ، ونادى أبو سعيد فى بلاده بالحج وانتشر العدل فى بلاده وأراق الخمور ورفع شهادة الإسلام وعمر المساجد والجوامع[3] .

فتقرر الصلح بين المملكتين وساد السلام وانتشر العدل وعاد الأمير أيتمش المحمدى رسول الملك الناصر إلى أبى سعيد وكان ذلك فى ربيع الأول عام ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م وتم عقد الصلح بينه وبين التتار، وحمل أيتمش نسخة الأيمان التى تتضمن قسم أبى سعيد وجوبان والوزير على شاه وزير أبى سعيد ، ثم خلع أبو سعيد على أيتمش المحمدى بهدية سنية قدمها للسلطان الناصر عندما وصل إلى مصر وأقسم ألا يدخل فى ملكه فقبله الناصر منه ، وأنعم عليه بمائة ألف درهم ثم وصلت رسل أبى سعيد فى الرابع عشر من جمادى الآخرة ٧٢٢ هـ / أول يولية ١٣٢٢ م لأخذ قسم السلطان الناصر محمد على اتفاقية الصلح ومعهم هدية فتم لهم ماجاءوا بسببه وعادوا إلى بلادهم بهدية سنية وذلك فى جمادى الآخرة ٧٢٢ هـ / يولية ١٣٢٢ م وتواتر تبادل الرسل بين أبى سعيد والملك الناصر لتوطيد أواصر الصداقة

---

(١) الدر الفاخر ص ٣١٣ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٨١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١٠ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١١ .

والعلاقات الودية إلا أنه بعد وفاة أبى سعيد اضطربت بلاد المغول وسادتها الفوضى مما جعل الملك الناصر يفكر فى غزو فارس والاستيلاء عليها ، ومن ثم بدأ يظهر التأييد لحسن الأكبر ضد أخيه حسن الأصغر الذى ينافسه على العرش وهما ولدى تيمور تاش بن شوبان حاكم آسيا الصغرى فأرسل الناصر إلى حسن الأكبر كتاباً يعده بالمساعدة ، مقابل اعترافه بالسيادة للملك الناصر محمد فى بغداد[1] .

والخلاصة أن السياسة العدائية بين مغولى فارس والمماليك انتهت منذ عهد خدابندا حيث كانت العلاقات قد تحسنت منذ وفاة غازان وسارت العلاقات الودية والسلمية وحلت محل العلاقات العدوانية ، وظلت الأمور هكذا حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى . ويجدر بنا الآن أن نعود إلى مغول الشمال القفجاق وكان ملكهم قد غضب حينما علم باتفاق الملك الناصر محمد مع أبى سعيد وكان رسل الملك الناصر حينئذ عند أزبك ملك مغول الشمال فبعث معاتباً الملك الناصر فاعتذر الناصر لأزبك بأنهم إنما دعوا لإقامة شعائر الإسلام وإعلاء شأنه فى بلاد أبى سعيد[2] .

خروج دمرداش بن جوبان على طاعة أبى سعيد :

قدم إلى بلاد الإسلام فى السابع من ربيع الأول عام ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨م الأمير دمرداش بن جوبان بن تلك بن تدوان وكان السبب فى ذلك أن القان أبا سعيد بن خدابندا . لما ملك البلاد أقبل على اللهو وترك شئون الحكم فاستبد الأمير جوبان بالحكم واستناب ولده المسمى دمشق خواجا بالأردو وبعث ابنه دمرداش إلى مملكة الروم ، ولم يبق لأبى سعيد من السلطنة شىء وحدث أن تحرك بعض أولاد كيك خان بجهة خراسان ، وخرج عن طاعة أبى سعيد فتقدم جوبان لقتاله ، فلما ابتعد جوبان عن الأردو قبض أبو سعيد على دمشق خواجا وقتله بظاهر مدينة السلطانية فى شهر شوال ٧٢٧هـ / أغسطس ١٣٢٧م وكتب إلى من خرج من الجيش مع جوبان بما حدث وأمرهم بالقبض على جوبان ، فلما علم جوبان بما فعل

---

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٤٣٢ .

أبو سعيد حشد جيشاً وأقام شخصاً من أسرة جنكيزخان يسمى ساؤور بقصد خلع أبي سعيد من الحكم وإقامة ساؤور مكانه ليحقق مآربه وينجو من مؤامرات أبي سعيد ، فعلم به أبو سعيد وخرج لقتاله؛ ودارت بينهم الوقائع وثارت الفتنة وانتهت بمقتل جوبان وهروب ساؤور [١] ثم كتب إلى دمرداش جوبان أن يقدم إلى الأردو وحرض أمراء الروم على القبض على دمرداش أوقتله [٢] وكان الأمير دمرداش قد ملك بلاد الروم جميعها وجبال ابن قرمان ، وكان يخشى على نفسه من السلطان الملك الناصر خشية أن يرسل إليه فداثياً يقتله لأن دمرداش منع التجار من إرسال المماليك إلى مصر ، فأخذ الناصر يرسل الهدايا إليه ويتحايل عليه ويترضاه إلا أن دمرداش كان يتشكك فيه ولم يأمن جانبه ولذا لم يلتفت إليه ، فلما وصل رسل سعيد قتلهم دمرداش كما قتل الأمراء لأنهم يتآمرون مع أبي سعيد ثم فكر دمرداش أنه مضطر إلى التقرب من الناصر وتحسين علاقته معه حتى لا يقع بين عدوين في آن واحد فكتب إلى الملك الناصر بطاعته ويستأذنه في القدوم إلى مصر ليكون في خدمة السلطان فيجعله نائباً ببلاد سلاجقة الروم ، فسر الناصر بذلك وكتب إلى دمرداش رسالة وعده فيها بأشياء كثيرة ورغبة في الحضور فتحير دمرداش بين أن يقيم فيأتيه أبو سعيد فيقاتله أو يتوجه إلى مصر فلا يدرى مايكون موقف الناصر منه وأخيراً استقر رأيه على المسير إلى مصر وأخبر الأمراء أن عسكر مصر تقدم لفتح بلاد سلاجقة الروم وأن الناصر محمد أمره أن يكون نائبه ببلاد الروم فمشى عليهم ذلك وسرهم » [٣] ووضع دمرداش أولاده وأهله في قلعة حصينة ، وبعث معهم أمواله ثم سار بعسكره حتى اقتربت من بهسنا فأخبر من كانوا معه أنه يريد مصر وخيرهم بين العودة إلى بلادهم وبين المسير معه فعادوا ثم وصل دمشق في صفر ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٣٢٧ م واستقباله تنكز نائب دمشق وسار إلى مصر فركب الأمراء للقائه ووصل دمرداش إلى القاهرة في السابع من ربيع الأول ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨ م فقدم الهدايا إلى الملك الناصر [٤] واجتمع

---

(١) الدر الفاخر ص ٣٤٦ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٢ ، البرج ٥ ص ٥٥٠ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٠٩ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٣ ، دولة بني قلاوون ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٤ .

دمرداش بالسلطان الناصر وفاوضه فى أمر بلاد الروم، وطلب من الناصر أن يجهز جيشاً لفتح بلاد الشام ، ولكن السلطان أمهله حتى يأتى خبر أبيه جوبان وماذا فعل به أبو سعيد ثم أرسل الناصر إلى ابن قرمان [١] يطلب إليه أن يبعث أولاد وأهل دمرداش إلى مصر ولكن الأسرة رفضت وقالوا « لاحاجة لنا فى مصر » فأرسل ابن قرمان إلى الناصر يعرفه بذلك ويخبره أن امتناعهم بسبب تحالفهم مع دمرداش وقال أيضاً إن دمرداش سفك دماء كثيرة وقتل من المسلمين الكثيرين وما دخل فى مصر إلا طمعاً فى ملكها ، فلما علم السلطان بأمر دمرداش تغير عليه وجمع السلطان بينه وبين نجم الدين إسحاق الرومى[٢] الذى قدم بكتاب ابن قرمان إلى السلطان [٣] ، ثم وصل فى ربيع الأول ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨ م الأمير شاهنشاه ابن عم جوبان فخلع عليه السلطان ثم وصل نحو ستمائة فارس من فرسان دمرداش ففرق أكثرهم على الأمراء واختار نحو التسعين منهم العودة إلى بلادهم فسمح لهم بالعودة فعادوا ، ووصلت رسل أبى سعيد إلى الناصر ومعهم كتاب أبى سعيد يستشير السلطان فى أمر جوبان بعد أن قبض عليه ثم أرسل الناصر فى جمادى الأولى ٧٢٨ هـ / مارس ١٣٢٨ م الأمير سيف الدين أروج إلى أبى سعيد يشفع فى دمرداش فى التاسع من جمادى الأولى ٧٢٨ هـ / مارس ١٣٢٨ م[٤] ولما تبين للناصر سوء نية دمرداش قبض عليه ، وأمسك من معه من الأعيان وذلك فى يوم الخميس العشرين من شعبان وكان دمرداش قد حاول التقرب إلى الأمراء ففرق عليهم مائة ألف رأس من الغنم عدا الأموال بقصد أن يضمن ولاءهم ويحقق عن طريقهم أطماعه حين تسنح الفرصة ثم أخذ ينتقد الملك الناصر ، فقبض عليه

---

(١) دولة بنى قرمان أسسها بجهات أرمناك جنوب آسيا الصغرى فى أوساط القرن السابع الهجرى وقد أسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى ٦٢٠ هـ / ١٢٦١ م دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١١ حاشية ١ .

(٢) كان إسحق الرومى يحكم قلعة أنطاكية وهى حصن وبلد كبير بآسيا الصغرى على شاطئ البحر المتوسط وهى قلعة أخذها دمرداش وقتل والده فقدم إلى مصر مطالباً دمرداش بدم أبيه، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٧ حاشية ٢ .

(٣) السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٩٧ ، العبر ج ٥ ص ٤٣٥ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٥ .

واعتقله وفرق أصحابه على الأمراء[١] ، ثم قتل دمرداش فى الرابع من شوال ٧٢٨ هـ / أغسطس ١٣٢٨م[٢] .

تطور العلاقات بين المماليك وأبى سعيد :

وصل رسل أبى سعيد فى رمضان ٧٢٨ هـ / يوليو ١٣٢٨ م إلى الناصر ومعهم هدية وكتاب فأنعم السلطان عليهم وأرسلهم إلى دمرداش وهو فى معتقله ليروه فاجتمعوا به وتحدثوا معه وكان مضمون رسالتهم طلب إلى السلطان بتسليم دمرداش إلى أبى سعيد مقابل تسليم الأمير شمس الدين سنقر المنصورى فوافق السلطان أولا ولكنه عدل عن ذلك، فلما كان يوم الرابع من شوال ٧٢٨هـ / أغسطس ١٣٢٨ م أخرج دمرداش من معتقله وشاهده رسل الملك أبى سعيد فى أغلاله ثم قتل السلطان دمرداش وقطع رأسه وأرسله إلى أبى سعيد ومن ثم عاد رسل أبى سعيد فى الثامن من شوال ٧٢٨هـ / أغسطس ١٣٢٨ م ومعهم الأمير سيف الدين أيتمش المحمدى برسالة السلطان إلى الملك أبى سعيد متضمنة مافعله الناصر بدمرداش بن جوبان ، وهكذا أسفرت العلاقات الطيبة بين أبى سعيد والملك الناصر على تعاون الطرفين على القضاء على الخصوم وتوطيد أواصر المودة والصفاء[٣] ، ثم ألزم النصارى ببغداد أن يلبسوا العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر اقتداء بما فعله بالسلطان الملك الناصر . وذلك للتدليل على تحسن العلاقات بين الساطنة المملوكية ودولة إيلخانات فارس فى ذلك العصر[٤] ويقول صاحب النجوم الزاهرة « وأما أبو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر أخاً ، وكانت الكلمتان ومراسيم الملك الناصر تنفذ فى بلاد أبى سعيد ورسله يتوجهون إليه بأطلابهم وطلبخاناتهم بأعلامهم المنشورة »[٥] ثم عاد أيتمش المحمدى من بلاد أبى سعيد فى المحرم

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٧ ، العبر ج ٥ ص ٤٣٦ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٩ دولة بنى قلاوون ص ٢١٢ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص٨١ وقيل إنه توفى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ذى القعدة ٧٢٨ هـ الدر الفاخر ص ٣٤٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢١١ .

٧٢٩ هـ / نوفمبر ١٣٢٨ م ثم قدم رسل أبي سعيد فى جمادى الآخرة ٧٢٩ هـ / أبريل ١٣٢٩ م يطلبون المصاهرة إذ أن أبا سعيد عرض الزواج من إحدى بنات السلطان الناصر محمد [١] ، وكرر هذا الطلب فى سفارة عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م فطلب الناصر مهلة لتحقيق هذه الرغبة [٢] وكان الشيخ حسن بن الجلائرى [٣] أصبح الشخصية البارزة فى بلاط أبي سعيد بعد مقتل جوبان وأولاده وهو الذى أسس الدولة الجلائرية بفارس بعد وفاة أبي سعيد ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م فأرسل رسله إلى الملك الناصر [٤] .

كان أبو سعيد بن خدابندا لما قتل جوبان أراد إقامة ياسور مكانه لأنه من عظماء القادة ولكنه خشى منه لشجاعته أن تحدثه نفسه بالاستيلاء على السلطة ، ثم استأذن ياسور أبا سعيد فى الحج ، فأذن له وسار إلى الحجاز فكتب أبو سعيد كتاباً إلى الملك الناصر يعرفه بأمر ياسور ويطلب إليه قتله خوفاً من أن ينقلب عليه ، فلما وصل كتاب أبي سعيد إلى الناصر كلف بعض مماليكه بالمسير إلى الحجاز لتنفيذ رغبة أبي سعيد ، وبينما كان ياسور يؤدى شعائر الحج قتله مملوك الملك الناصر وفى تلك الفترة كان الأمير مهنا بن عيسى خرج على طاعة الناصر ولجأ إلى بلاد التتار إلا أن الملك أبا سعيد اضطره إلى الرحيل حرصاً منه على إرضاء السلطان الناصر [٥] وإبقاء على وشائج الصداقة بينهما وكتب بذلك إلى الملك الناصر فازداد سروراً واضطر مهنا إلى العودة إلى بلاد الشام ومنها إلى القاهرة حيث قابله السلطان بالترحاب وعاتبه على ماحدث فاعتذر له ابن مهنا وقبل السلطان عذره وخلع عليه وعلى أصحابه الذين قدموا معه وأقطعه قرية دومة [٦] إحدى قرى غوطة دمشق وذلك عام ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م [٧].

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٤٤ .

(٣) ظهرت الأسرة الجلائرية الإيلخانية وسط الفوضى والاضطرابات التى أعقبت وفاة أبي سعيد آخر ملوك مغول فارس من الأسرة الجنكيز خانية فحلت الأسرة الجلائرية محلهم فى الحكم دائرة المعارف الإسلامية الترجمة م ٤ ص ٥٤٦ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٠ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٦) قرية من قرى غوطة دمشق وهى غير دومة الجندل : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٤٢ .

(٧) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٢ — ٣٧٤ .

وفاة أبي سعيد وتطور أحوال المغول بعده :

توفى السلطان أبو سعيد بن خدابندا أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلوقان ابن جنكيزخان وذلك فى ربيع الآخر عام ٧٣٦ هـ / نوفمبر ١٣٣٦ م [(١)] . وكان فى طريقه لمحاربة أزبك خان ملك مغول القفجاق ، وقيل إن سبب وفاته أن زوجته بغداد خاتون [(٢)] دست له السم لأنه أحب دلشاد خاتون زوجته الثانية ابنة دمشق خواجا بن جوبان ولم يخلف أبوسعيد أولاداً فاعتلى عرش الملك بعده أرباكاؤن من سلالة أريغ بغا « أبي هولاكو » وذلك بمساعدة الوزير غياث الدين محمد ولقب بمعز الدنيا والدين ، وحاول تدعيم مركزه فتزوج أخت أبي سعيد أرملة جوبان وسار لمحاربة أزبك خان وهزمه إلا أن الفتن الداخلية ما لبثت أن انتشرت فى دولة المغول بفارس فخرج الأمير على باد شاه على أرباكاؤن ثم وقع الاختيار على موسى بن على بن بيدو بن طوغاى بن هولاكو فاضطر أرباكاؤن إلى الفرار سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م حتى سار على باد شاه لمحاربته إلا أن الأمور لم تستقر فى دولة المغول بتولية الخان موسى ، وكان على باد شاه مديراً لدولته بل ضعفت الدولة واضطربت أحوالها ، واستقل الأمراء بولاية الأقاليم ، وقد بلغ من اضطراب بلاد مغول فارس أن أصبح بها ثلاثة سلاطين فى آن واحد وكانت هذه الفتن والاضطرابات فى بلاد المغول سبباً فى اتجاه تفكير الملك الناصر محمد بن قلاوون فى غزو بلاد فارس ، فلما قدم عليه رسل الشيخ حسن الكبير والخان محمد تطالب مساعدته أرسل الناصر بعض قواته إلى حدود المغول لتكون على أهبة الاستعداد وعاد الرسل فى صفر عام ٧٣٧ هـ / سبتمبر ١٣٣٦ م [(٣)] .

---

(١) النجوم ج ٩ ص ٣٠٩ ، العبر ج ٥ ص ٤٤ .

(٢) كانت زوجة للشيخ حسن الكبير طلقها أبوسعيد منه وتزوجها لجمالها .

(٣) دولة بنى قلاوون ص ٢١٢–٢١٤ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٢١ ، العبر ج ٥ ص ٤٩٩ ، تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٨٢ .

حملة سيس ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م وأسبابها :

تقرر إرسال حملة عسكرية إلى بلاد سيس وتخريب مدينة إياس والسبب فى ذلك وصول رسول القان موسى وعلى باد شاه بطلب النجدة ضد الشيخ حسن الكبير وطغاى بن سونتاى وأولاد دمرداش ليكون على باد شاه نائباً للسلطان الناصر فى بغداد ، فاستشار السلطان نائب الشام والأمراء واستقر الرأى على تجريد الجيش إلى سيس وكان تكفور ملك سيس فى تلك الآونة قد نقض الهدنة ، وكان هذا خير ذريعة لهم لتبرير غزوهم لسيس ، وكانت هذه الحملة تهدف إلى هدفين أولهما تأديب صاحب سيس وتخريب مدينة إياس ثم إجابة على باد شاه إلى ما طالب من نزول الجيش الإسلامى قريباً من الفرات [١] ، فجهز الناصر الجيش وجعل مقدمه الأمير أرقطاى والأمير طوغاى الطباخى ، ثم كتب الناصر إلى نواب دمشق وحماة وحلب وحمص وطرابلس بخروج عساكرهم إلى ناحية جعبر ، فإذا وصل عسكر مصر إلى حلب عادت عساكر الشام ثم يمضوا جميعاً إلى سيس ، فتحركت القوات من مصر فى ثانى عشر من شعبان ٧٣٧ هـ/ مارس ١٣٣٧ م[٢] .

وصول وفد من بغداد إلى مصر ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م :

وفى السابع عشر من صفر عام ٧٣٨ هـ / سبتمبر ١٣٣٧ م وصل من بغداد الوزير نجم الدين محمود بن على بن شروان وحسام الدين الحسى بن محمد بن محمد الغورى محتسب بغداد وفخر الدين محمود نائب الحملة ونظام الدين يحيى والحاج كابك وازبكيوك بن طاش بغا والوزير تاج الدين على شاه وولده ناصر الدين خليفة وحسين بن منكتو ، وكان هؤلاء الوافدين من الأمراء المتنافسين على عرش ايلخانات فارس مما يدل على أن السلطان الناصر محمد أصبح الحكم بين رجال تلك الدولة المغولية ، وأن من يضمن تأييد الناصر فهو الذى سيؤول له حكم البلاد هذا بالإضافة إلى أن نجم الدين كان قد تمكن من بغداد وكثر ماله ، فلما

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٨ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٨ .

قدم على باد شاه إلى بغداد صادر أهلها ثم جمع الجيش وسار شمس الدين السهروردى نائب بغداد يصادر أموال جماعة من الأمراء منهم الوزير نجم الدين بن شروان وفخر الدين محمود نائب الحلة، فلما علموا بما دبر لهم تواطأوا على قتل شمس الدين السهروردى نائب بغداد والمسير إلى مصر ، فخرجوا لاستقبال السهروردى واحتفظوا به ثم قتلوه ، فارتجت بغداد بأهلها فسار نجم الدين وأصحابه وطلبوا الإذن من نائب الشام الأمير تنكز بدخول الشام ، فبعث تنكز إلى السلطان يخبرهم فأجيب بإكرامهم وتجهيزهم إلى القاهرة فوصلوا إليها مكرمين [١] .

تطور أحوال الشيخ حسن الكبير :

سار الأمير جبار بن مهنا إلى بلاد الشرق بجماعته ودخل فى خدمة الشيخ حسن الكبير [٢] وجمع الشيخ حسن الكبير جيشاً لمحاربة أرتنا صاحب بلاد الروم [٣] وتعهد جبار بن مهنا بجمع العرب لمساعدة الشيخ حسن الكبير ، عندئذ لم يجد أرتنا بدّاً من مراسلة السلطان الناصر محمد وسأله أن يكون نائبه فى بلاد الروم وأن يضرب السكة باسمه ويقيم دعوته على منابره فخلع الملك الناصر على رسل أرتنا وأنعم عليهم ، وكتب له تقليداً بنيابة الروم وكان أرتنا قد ارتفع نجمه فى بلاد الروم وعظم شأنه فخشى الشيخ حسن الكبير أن ينفرد بمملكة الروم ، فاستعد لمحاربته ، كما كان ابن دلغادر قد صار ملك أراضى أبلستين . وأخذ يتوسع فى أطراف بلاد الروم ، فخشى أرتنا أن ينازعه فى مملكة الروم أو يكون نصيراً للشيخ حسن الكبير فرأى أرتنا مصادقة السلطان الناصر ليمده السلطان بعسكر يقوى بها جانبه ضد أهل الشرق أو يأوى إلى بلاده إن انهزم ، وقدم المجد السلامى من الشرق أيضاً ومعه رسل الشيخ حسن الكبير . وقد كلفه الشيخ حسن أن يتوسط فى

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .

(٢) يوجد الشيخ حسن الصغير كجك بن دمرداش بن جوبان ويعرف باسم الشيخ حسن الجوبانى وقد عمل كل من هذين الأميرين فى حوادث دولة إيلخانات فارس بعد وفاة أبى سعيد وتدخل كل منهما فى منازعات أربا كاؤن وموسى ومحمد بن عنبرجى ، السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ حاشية ٢ .

(٣) وكان أرتنا هذا قد استقل بمدينة سيواس وما حولها من بلاد الروم — آسيا الصغرى — عن دولة إيلخانات فارس — السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ حاشية ٤ .

الصلح بينه وبين السلطان الناصر[1] وفى ربيع الآخر عام ٧٤١ هـ/ أكتوبر ١٣٣٩م قدم رسول الشيخ حسن الكبير الجلائرى[2] وحمل كتاباً يتضمن طلب عساكر السلطان الناصر لتسليم بغداد والموصل وعراق العجم ليقيم بها الدعوة للسلطان الناصر ، وسأل أبغا أن يبعث السلطان إلى طغاى بن سونتاى للتوسط من أجل عقد الصلح بين الشيخ حسن وطغاى بن سونتاى ، فأجابه الناصر إلى ذلك ووعده بإنفاذ العساكر إليه ، سير الأمير أحمد قريب السلطان الناصر إلى طغاى ومعه هدية لينظم الصلح بينه وبين الشيخ حسن ، وبعد أن عقد الصلح بين طغاى والشيخ حسن الكبير ، عاد الأمير أحمد إلى مصر[3] .

محاولة القان الكبير المغولى غزو العراق والشام :

بلغت دولة التتار أقصى درجات قوتها واتساعها فى عهد جنكيزخان ، ولكن نتيجة للصراع الداخلى بين حلفائه انقسمت مملكة التتار بين المتصارعين ، وأصبح هناك دولتان للمغول كل منهما على استعداد لالتهام الأخرى ، فكانت هناك الدولة المغولية فى الشرق فى فارس والدولة المغولية فى الشمال وهم مغول القبيلة الذهبية ، وكانت أملاكها فى بلاد القفجاق وشبه جزيرة القرم وكان المغول سابقاً يخضعون فى سياستهم العليا إلى القان الأعظم إلا أن أيلخانات فارس حادوا عن هذه السياسة ولم يعد للقان الأعظم احترامه عند مغول فارس وضاعت هيبته وهيبة الدولة المغولية الكبرى ، ونتيجة للملك فقدت معظم ولاياتها فى أواسط القرن الثامن الهجرى، وكان طوغاى تيمور (٧٣٢ — ٧٧١ هـ) (١٣٣٢م — ١٣٦٩م) القان الأعظم قد عزم فى عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٨ م على المسير إلى العراقيين وقدم أمامه عسكراً ليزحف بهم إلى الشام إذا ما تمت له السيطرة على العراق ، وسارت قوات القان . فتعرضت لرياح شديدة واستمرت يومين كان جيش القان

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٢) وكان حسن الكبير الجلائرى قد سيطر على تبريز وبغداد وذلك منذ عام ٧٣٧هـ (١٣٧٧ م) غير أن الأمور لم تستقم له تماماً حتى كانت سنة ٧٤٤هـ وكان عليه أن يخضع ما تبقى من عناصر المعارضة له — السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٨١ حاشية ١ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

الأعظم زيادة على مائة ألف فارس ، فلم يرجع إلى القان إلا نحو عشرة آلاف وهلكت بقيتهم ، فلما علم الملك الناصر بذلك سر كثيراً[١] .

علاقة السلطان الناصر محمد مع الشيخ حسن الكبير :

اشتد الغلاء فى بلاد الشرق ونتج عن ذلك نزوح جماعة من المغول إلى الشام ، فكتب السلطان إلى نائب حلب بتمكينهم من الاستيطان حيث شاءوا من البلاد الإسلامية ، وأوصاه أبغا بالعناية بهم فأقاموا فى حلب وغيرها ، ووصل بعضهم إلى القاهرة ، فاختار الناصر بعضهم وفرق الباقى على الأمراء[٢] . وفى نفس الوقت سار الأمير أحمد الساقى قريب السلطان الناصر إلى بلاد الشرق لإحضار الرهائن من طغاى بن سونتاى والشيخ حسن الكبير ، وكانا قد سألا الناصر التوسط بينهما لإنهاء الخلافات وعقد الصلح وتسليم بلاد الشرق ، فاشترط الملك الناصر قبل تسيير الجيش إلى بلاد الشرق أن يبعثا أولادهما رهينة ، وضماناً لصدق الوعد ، فجهز ابن سونتاى ولده بردشين وجهز الشيخ حسن ابن أخيه إبراهيم شاه وسارا إلى حلب ثم إلى السلطان فى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م[٣] وقبل وصولهما شرع الناصر فى إعداد الجيش[٤] .

وتقرر أن يكون خروجهم إلى بلاد (تبريز) بالشرق فى نصف ذى الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٤١ م ثم صدرت أوامر السلطان إلى نواب الشام بتجهيز عسكر دمشق وحلب وغيرهما ، فاستعد الأمراء والأجناد ومماليك الشام ، ووصل برهشين بن طغاى بن سونتاى وإبراهيم شاه بن أخى الشيخ حسن بك الكبير فى مائتى فارس فمثلا بين يدى السلطان فى الثامن من ذى الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٣٩ م ومعهم قاضى بغداد وقاضى الموصل وقاضى ديار بكر ، وقدما كتابى طغاى والشيخ حسن الكبير الذى يحمل القسم على الطاعة للسلطان[٥] وأنهم من جنده

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٨ .
(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٥ ، ٥١٦ .
(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٨ .
(٤) السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٥١٨ .
(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٩ ، ٥٢٠ .

وضد أعدائه ، ثم قدموا نص الخطبة التى خطب بها للسلطان الناصر فى بغداد والموصل وديار بكر ، فلما تبين له ذلك عزفهم أنه رسم بإعداد الجيش للمسير وأمر السلطان بسرعة مسيره ، ولكن وصل الخبر بأن أولاد دمرداش، لما علموا بطلب الشيخ حسن الكبير وطغاى بن سونتاى من السلطان أن يجوز جيشا لهم ليأخذ البلاد ، وأنهما أقسما للناصر محمد وكذلك أقسم أهل البلاد وخطبا باسمه على منابر بغداد والموصل ، إلا أن أولاد دمرداش لم يقبلوا ذلك وتقدموا بقواتهم لمحاربة طغاى ، والشيخ حسن الكبير فطلب الأخير الصلح معهم ، وسار إليهم طائعاً فأكرموه وكتبوا لطغاى بن سونتاى أماناً واتفقوا جميعاً على أن يعبروا الفرات إلى بلاد الشام لقتال الناصر ، وأشار مندوب صاحب ماردين الذى قدم بهذه الأخبار إلى الناصر بألا تخرج الجند إلى (تبريز) فى الشرق، فإنه ليس لمسيرها فائدة فتفرقت الأجناد من القلعة بدون عرض ، وبعث السلطان على الفور يستطلع حقيقة ما حدث لأن برهشين بن طغاى اتهم صاحب ماردين بعدم صحة جوابه[١] ، ثم وصل الخبر من حلب بصحة ما جاء برسالة صاحب ماردين وبعقد الصلح بين الشيخ حسن الكبير وطغاى وبين أولاد دمرداش ، فانزعج السلطان من ذلك انزعاجاً شديداً ، وتكدر وامتنع عن مقابلة رجال الدولة والاجتماع بهم، وقام بالمناداة بابنه أبى بكر سلطانا من بعده وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به وعهد إليهم بألا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك ، وكان أرسل إلى الكرك للإقامة بها، وحذرهم من إقامته سلطاناً، وجعل الأمير بن قوصون وبشتاك أوصياء على أبى بكر وإليهما تدبير المملكة وأصيب الناصر بالمرض نتيجة للأحداث السيئة التى مرت به واشتدت به العلة حتى وافته منيته فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٤١ م[٢] وله من العمر سبع وخمسون سنة[٣] وآلت السلطنة إلى ولده سيف الدين أبى بكر الذى لم يكن مثل أبيه ، فقد انصرف إلى اللهو وعكف على ملذاته وأهمل أمور الدولة

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) وقيل إنه مات فى السابع عشر من ذى الحجة ٧٤١ هـ ودفن مع والده فى القبة المنصورية - أخبار الأول ص ١٣١ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٢٣ ، العبر ج ٥ ص ٤٤٢ ، النجوم ج ٩ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

وهي في ظروف أشد ما تكون الحاجة فيها إلى سلطان قوي فأنكر الأمراء عليه ذلك وخلعوه من السلطنة بعد سبعة وخمسين يوماً من بيعته في التاسع عشر من صفر سنة ٧٤٢ هـ/ أغسطس ١٣٤١ م[١] وبعثوا به إلى قوص حيث حبس بها، وولوا مكانه أخاه كجك ولقبوه بالملك الأشرف علاء الدين كجك وكان ذلك في الحادي والعشرين من صفر ٧٤٢هـ / أغسطس ١٣٤١ م ، ولما كان السلطان الجديد صغير السن جعلوا من قوصون الناصري وصياً عليه، ومن ثم كان تصريف أمور البلاد في يد قوصون ، أما السلطان نفسه فلا حول ولا قوة له، ومن ثم استقر الرأي على خلعه وتولية أخيه الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد ، وتم ذلك باتفاق الأمراء ثم عادوا فخلعوا هذا أيضاً وولوا أخاه الصالح إسماعيل بن الملك الناصر ، لما اتصف به من الصلاح وحسن السيرة في الثاني والعشرين من المحرم ٧٤٣ هـ / يونية ١٣٤٢م إلا أن الملك الصالح إسماعيل لم تطل مدة حكمه إذ توفي في ربيع الآخر سنة ٧٤٦ هـ / أغسطس ١٣٤٥م واجتمع الأمراء لاختيار خلف له، واستقر رأيهم على شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الكامل سيف الدين شعبان[٢] ، وهو يعتبر السابع عشر من سلاطين المماليك والخامس من أولاد الناصر محمد بن قلاوون، ولكنه لم يستمر في الحكم طويلا، إذ قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ هـ / سبتمبر ١٣٤٦ م بعد أن حكم سنة واحدة وشهرين تقريباً[٣] فآلت السلطنة من بعده إلى الملك المظفر زين الدين حاجي المعروف بأمير حاج بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو السادس من أولاد الملك الناصر[٤] ، ثم تولى السلطنة الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون في الرابع عشر من رمضان ٧٤٨ هـ / ديسمبر ١٣٤٧م وكان صغير السن لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره وهو السابع من أولاد الناصر محمد[٥]، ثم اتفق الأمراء على خلعه عام ٧٥٢ هـ / يولية ١٣٥١ م في جمادى

---

(١) النجوم ج ١١ ص ١٦ العبر ج ٥ ص ٤٤٣ ، أخبار الأول ص ١٣١ .

(٢) النجوم ج ١٠ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) أخبار الأول ص ١٣٢ .

(٤) النجوم ج ١٠ ص ١٤٠ .

(٥) النجوم ج ١٠ ص ١٤٨ .

الآخرة وتسلطن أخوه الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون باتفاق الأمراء ، ولكنه خلع بعد ثلاث سنوات من سلطنته أى فى ثانى شوال عام ٧٥٥ هـ / أكتوبر ١٣٥٤ م[1] ، وحبس بالقلعة إلى أن توفى بها ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م واتفق الرأى على سلطنة الملك الناصر حسن ثانياً بعد أن كانوا قد خلعوه كما ذكرنا ، فأخرجوه من سجنه واشترطوا عليه شروطاً قبلها ورضى لهم بها وجلس على سرير الملك يوم الاثنين الثانى من شوال ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م حتى قتله مملوكه يلبغا العمرى عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م[2] وهكذا تتابع الملوك من أسرة قلاوون . إذ حكم من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون اثنا عشر سلطاناً ولم تبلغ مدتهم مدة الملك الناصر ، إلى أن انتهى حكمهم فى عهد السلطان صفر خان حسين ابن السلطان إذ كان صغير السن والأمر لبرقوق الجركسى فخلعه فى ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م وانتهت بذلك دولة المماليك البحرية[3] من هذا كله يمكننا القول إن دولة المماليك البحرية كانت قد أخذت فى دور الاحتضار ، إذ أنه واضح جداً إلى أى مدى من الضعف وصل السلاطين المتأخرون فى دولة المماليك البحرية بحيث أصبحوا أشبه بألعوبة فى يدى المماليك فيعينون من يريدون ويعزلون من يريدون ، وكانت النتيجة الحتمية لهذه الأوضاع هو انهيار دولة المماليك البحرية التى جاهد الظاهر بيبرس من أجل قيامها وتدعيمها ، وقامت دولة الجراكسة على يد برقوق .

ولقد كان من الممكن فى تلك الفترة على المغول تحقيق سياستهم التوسعية فى مصر والشام ، لو كانت العلاقات السائدة بينهم وهى العلاقات العدوانية إلا أنه من حسن حظ البلاد فى تلك الفترة أن العلاقات بينهم كانت قد أخذت الطابع السلمى وصارت الصلات بينهم صلات مودة وصداقة بالإضافة إلى ذلك أن حكام دولة المغول فى فارس كانت جهودهم منصرفة إلى توطيد دعائم سلطتهم فى الداخل والقضاء على الفتن والاضطرابات التى يثيرها خصومهم طمعاً فى الاستئثار بالسلطة .

---

(١) النجوم ج ١٠ ص ١٨٧ .

(٢) النجوم ج ١٠ ص ٢٥٤ ، ٢٨٧ أخبار الأول ص ١٣٢ .

(٣) النجوم ج ١٠ ص ٣٠٢ وذكر أن ذلك فى شهر جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ أخبار الأول ص ١٣٢ .

أما عن طبيعة علاقات المغول بالمماليك فى هذه الفترة فقد سادت العلاقات السلمية بين الطرفين من بعد غازان : وبعد وفاة الملك الناصر لم تبذل محاولة من جانب خلفائه للتوسع فى بسط نفوذهم على دولة مغول فارس لانصرافهم إلى توطيد سلطتهم فى الداخل والقضاء على الفتن والاضطرابات التى يثيرها الأمراء طمعاً فى الاستئثار بالحكم ، وإن كان قد حدث فى عهد السلطان الأشرف شعبان ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م أن ثار حاكم مدينة بغداد التتارى خواجا مرجان وتمرد على الخان أويس المغولى، وخطب ببغداد للسلطان الأشرف شعبان وبعث رسله إلى القاهرة بكتاب جاء فيه أنه خلع أويس وأقام الخطبة للأشرف شعبان ، وضرب السكة باسمه وأخذ له البيعة فى بغداد ، فاستقبل الأشرف رسل خواجا مرجان استقبالا حافلا وزودهم بالهدايا النفيسة وجهزله « أعلاما سلطانية وخليفتية » كما بعث إليه تقليداً بنيابة بغداد، وفى رأيى أنه كان من الممكن لمثل هذا الحادث أن يثير التطاحن بين الطرفين لو كان لأى منهما القوى التى تستطيع الوقوف بها فى وجه الآخر، على أى حال فإن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضاً مثلما فشلت محاولة الملك الناصر محمد مع طغاى والشيخ حسن الكبير ، أقصد محاولة جعل مدينة بغداد نيابة مملوكية إذ انهزم حاكم بغداد المتمرد على أويس وعادت بغداد إلى طاعة دولة مغول فارس [1] .

سار إلى الشيخ حسن الكبير وقاتله واستولى على توريز وهزم الشيخ حسن وهرب الشيخ حسن إلى بغداد ، واستقر حسن بن دمرداش فى توريز ونصب للملك أخت السلطان أبى سعيد صالبيك وزوجها لسليمان خان من أسباط هولاكو ، واعترف الشيخ حسن بأحقيتها فى عرش المغول [2] ، أما حسن بن دمرداش فاستقل بملك توريز وكان يعرف باسم الشيخ حسن الصغير تمييزاً له وانقسمت مملكة التتار وضعفت ، فالشيخ حسن يحكم فى بغداد وحسن الصغير ابن دمرداش يحكم فى توريز، واستولى ملك مغول الشمال على معظم أراضى دولة مغول فارس لضعفها ، ولما هلك الشيخ حسن الصغير بن دمرداش عام ٧٤٤ هـ /١٣٤٣ م

---

(١) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٥٥٢ دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١٦ .

خلفه أخوه الأشرف حتى استولى الشيخ حسن الكبير على بغداد عام ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م [١] ثم خلفه ابنه أويس بن الشيخ حسن الكبير وكان أرسل رسالة إلى السلطان المملوكي فرد عليه برسالة أخرى، وتوفي أويس عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م بعد أن اتسعت مملكته واستقر حاله ، فتولى الملك بعده ابنه حسين بتوريز وابنه الشيخ على في بغداد وقتل أخاهم حسن وزعموا أن أباهم أويسا أوصاهم بقتله ، ثم دخل الشيخ على بن أويس متولى بغداد في طاعة أخيه حسين ملك توريز [٢] الذى استطاع أن يوطد ملكه بعد محاولات كثيرة من جهة الطامعين فى توريز ، إلا أن حسيناً بعد أن رجع من بغداد إلى تبريز عكف على ملذاته ، واستوحش منه أخوه أحمد وهاجمه فى ثلاثة آلاف فارس وهزمه ، واختفى حسين أياماً حتى قبض عليه وقتل [٣] فلما علم الشيخ على بما فعله أخوه أحمد وقتله لأخيه حسين فى تبريز جمع جيشاً وسار إلى تبريز ، ووقع القتال بين الأخوين فقتل الشيخ على ودخل أحمد بغداد وانتظمت البلاد فى حكمه حتى عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م حيث انقض عليه أهل دولته [٤] .

---

(١) العبر جـ ٥ ص ٥٥٢ .

(٢) وكان يسيطر عليها أويس قبل وفاته وذلك بعد وفاة حسن الصغير .

(٣) العبر جـ ٥ ص ٥٥٣ .

(٤) العبر جـ ٥ ص ٥٥٤ دائرة المعارف الإسلامية الترجمة م ٤ ص ٥٤٦ – ٥٤٧ .

الخاتمة

علاقة المماليك بمغول القفجاق

لقد استطردنا فى الحديث عن علاقات المماليك بدولة المغول فى فارس والتى أخذت مجالا كبيراً من بحثنا، ولكن لما كان المغول كما سبق أن ذكرنا انقسموا إلى دول يهمنا منها دولة فارس ودولة القفجاق — القبيلة الذهبية — فلا بد لنا أن نتحدث عن علاقة دولة مغول القبيلة الذهبية فى الشمال والتى كانت حدودها تمتد من السهول الفسيحة الواقعة جنوب روسيا وأقصى غرب آسيا ، وامتد سلطانها على سيبيريا والجزء الجنوبى من روسيا[١] ، وفى اعتقادى أنه إذا كان الطابع الذى اتسمت به العلاقات بين المماليك ومغول فارس هو الطابع العدوانى نجد أنها كانت علاقات صداقة ومودة وتحالف بين المماليك وبين مغول القفجاق .

ولعل أهم أسباب التقارب وقيام علاقات ودية بين الدولتين ترجع إلى عدة عوامل من أهمها :

أولاً : الجانب الدينى حيث كان بركة خان قد أشهر إسلامه وجعل الإسلام الدين الرسمى للدولة ، ومن الواضح هنا أنه لابد أن تقوم هناك علاقات مبنية على الود والإخاء بين هذه الدولة الإسلامية الجديدة وبين أكبر قوة إسلامية فى ذلك الحين ، وهى قوة المماليك التى تعتبر نفسها الحامية للدين الإسلامى وأهله .

ثانياً : أنه لابد أن يقوم خلاف وشقاق بين مغول فارس ومغول القفجاق حول الأراضى وحق كل منهما فى تزعم العالم المغولى ، ومن ثم كان لابد من حدوث الشقاق والخلاف بين دولتى المغول فى الشرق والشمال وبحث كل منهما عن حليف، فكانت الفرنجة فى تحالف مع مغول الشرق والمماليك حلفاء لمغول الشمال .

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٣ .

ونتيجة لما سبق كانت سياسة كل من الدولتين على نقيض الأخرى[١] .
إذ قام فى مملكة القفجاق بعد وفاة طرطق خان بركة خان بن جوشى خان بن جنكيز خان ، وأسلم هذا الخان وأظهر شعائر الإسلام فى بلاده ، وأقام المدارس وقرب إليه الفقهاء والعلماء ثم أسلمت زوجته ججاك واتخذت لها مسجداً ، وكان ذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرا ، ومع ذلك فقد اختلفت الروايات فى إسلام الملك بركة خان ومن الأرجح أنه اعتنق الإسلام وتعلم القرآن فى حداثته حين كان ببلدة خوقند ، وذلك على يد أحد فقهائها ، وقيل فى إسلامه غير ذلك[٢] ، وذكر

(١) نشأت مملكة مغول القفجاق عندما أقسم جنكيز خان إمبراطورية فى حياته بين أولاده الأربعة فكان نصيب ابنه جوشى وهو أكبر الأبناء البلاد الواقعة بين نهر أتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين ، وكان اسم تلك البلاد القبشاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية نسبة إلى خيم معسكراتهم ذوات اللون الذهبى وكان أغلب سكانها من الترك والتركمان ، ولكن جوشى صاحب هذه البلاد مات قبل وفاة جنكيزخان بستة أشهر عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ، فانقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر وكان أكبر هؤلاء الأولاد أوردا فخلف أباه على سائر المملكة فى أول الأمر وثانى الأولاد باطو الذى فضلته قبائل القسم الغربى من المملكة الذهبية وأعلنته ملكاً عليها واعترف جنكيزخان نفسه بذلك الاستقلال قبل وفاته ، وبهذا انكمش سلطان أوردا الأخ الأكبر إلى القسم الشرقى فقط ، وعرف باسم القبشاق الشرقى أو القبيلة البيضاء ، كما عرفت بلاد باطو باسم القبشاق الغربى أو القبيلة الزرقاء ، وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا ، وقد اتخذ منها عاصمة سماها صراى وهو الذى غزا أوربا فتوغل فى روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا ما بين عام ٦٣٥ — ٦٤٠ هـ / ١٢٣٧ — ١٢٤٢ م فطغت شهرته على الجميع حتى اعتبره سائر قبائل التتار فى جميع بلاد القبشاق شرقاً وغرباً من أحق أبناء جوشى خان بالحكم وذلك بالرغم من وجود أوردا على قيد الحياة فى بلاد القبشاق الشرقى ، وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية ، وذلك اللقب يشمل جميع القبشاق شرقاً وغرباً فأصبح يعادل فى عظمته وسلطنته الخان الأعظم منكوخان الذى خلف كيوك عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ م ، ثم مات باطو خان عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م وتولى الحكم بعده مباشرة ولده طرطق خان ولكنه توفى فى نفس السنة واستمرت سلالة باطو من بعده محتفظة بلقب خان القبيلة الذهبية حتى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م :

السلوك ج١ ق٢ ص ٣٩٤ — ٣٩٥ حاشية ٤ ،

الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٩ حاشية ١ .

(٢) قيل إن سبب إسلام بركة خان أنه تلاقى يوما مع قافلة تجارية آتية من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الإسلام فشرحاه شرحاً مقنعاً ، بحيث اقتنع بركة خان به وأخلص له وأخفى ذلك ، وأول ما كاشفه فى ذلك أخوه الأصغر ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه للإسلام — الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٠ حاشية ١ .

الجوزجانى الذى ترجم لحياة بركة خان أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته، ولما شب وبلغ سن التعلم حفظ القرآن الكريم على أحد علماء مدينة خوقند، وكان جيشه يعتنق الإسلام أيضاً، وقيل إنه قد جرت العادة أن يكون مع كل فارس من جيشه سجادة للصلاة حتى إذا حان موعدها اشتغلوا بصلاتهم، وكان يتقرب من العلماء والفقهاء والمفسرين ورجال الحديث[1]، وقد عمل على نشر الإسلام بالرغم من محاولات الخصوم القيام بالثورة عليه ومنع انتشار الإسلام، وقد حاولوا خلع بركة خان عندما أشهر إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاكو العدو اللدود لبركة خان[2]، واهتم بركة خان بنشر الإسلام بين رعيته، وأمر أن يكون فى حاشية كل واحدة من زوجاته، وكل أمير من أمرائه إمام ومؤذن لإقامة الشعائر الدينية[3].

ولقد اتسمت سياسة مغول القفجاق بالطابع الودى، إذ قامت العلاقات بينهما على أسس من السلم والإخاء، أضف إلى هذا حرص كل منهما بأن تكون سياسته تجاه الآخر قائمة على المصافاة والمسالمة بين مغول القفجاق وسلاطين المماليك فى مصر ليكونوا عوناً له على أعدائهم من بنى هولاكو فى فارس[4]، ومما لا شك فيه أنه سادت العلاقات الودية بين مملكتى المماليك ومغول القفجاق، هذا فى الوقت الذى ساءت فيه العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق، ولقد كان لهذا التنازع والتنافر بين مغول الشرق والشمال فرصة سانحة للمماليك لنجاح جهودهم فى اجتذاب مغول الشمال إلى جانبهم ضد العدو المشترك، ألا وهو مغول فارس، وقد اختلفت الأسباب والدواعى التى أدت إلى قيام الاختلافات بين المغول فى الشرق والمغول فى الشمال — ومغول القبيلة الذهبية — فهناك من يذكر من أسباب الخلاف بينهما غضب مغول الشمال من تصرفات هولاكو فى أراضى الإسلام من تخريب وتدمير وقتل المسلمين، بالإضافة إلى قتل الخليفة المستعصم بالله[5]،

---

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٠ حاشية ١.

(٢) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٠، تلفيق الأخبار ص ٤٢٧.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥ حاشية ٢، دائرة المعارف الإسلامية م ٣ ص ٥٦٥، الذيل على مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٦٥، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٣.

(٤) تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١.

(٥) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٢، الذيل ج ٢ ص ٣٦٥.
تلفيق الأخبار ص ٤١٨ — ٤٢٠.

أضف إلى هذا أن مغول القفجاق لم يكونوا ليقبلوا قيام دولة ثانية للمغول فى فارس ضمت إليها بعض أملاك دولة مغول الشمال، مثل أرّان وأذربيجان وكانت تابعة لأملاك جوجى بن جنكيز خان عملا بوصية الأخير عندما قسم إمبراطوريته بين أولاده الأربعة، فغضب مغول الشمال من مغول فارس بضمهم هذه البلاد إليهم لأن زعماء القبيلة الذهبية كانوا يدعون ملكية هذه الأرض ولكنهم لم يفوزوا بطائل[1]، إلى جانب ذلك هناك عامل آخر هو عدم قيام هولاكو بدفع نصيب مغول الشمال من الغنائم على ماجرت عليه العادة، بل إقدامه على قتل رسل بركة خان، ومن ثم يتضح لنا أن أسباب الخلاف بين مغول الشمال والشرق كانت متعددة واستحكمت بالتالى الخلافات بينهما، وكانت الأوضاع تنذر بالخطر، ولقد كان مقتل رسل بركة خان الذريعة التى أدت إلى قيام الحرب بين الطرفين، ولقد كان النصر حليف هولاكو بادئ الأمر، إلا أن بركة خان لم يكن ليستسلم للهزيمة بسهولة، ومن ثم جمع جيوشه من جديد وألحقوا بهولاكو هزيمة كبيرة، إذ فقد هولاكو معظم جيشه فى أثناء تقهقره، فانتقم هولاكو من بركة خان بأن قتل كل من كان فى بلاده من تجار مملكة بركة خان، فأجاب بركة خان بنفس الأسلوب سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، ولم يحاول أحدهما مواصلة القتال ضد الآخر فى السنوات القليلة التالية، وكان الظاهر بيبرس سلطان المماليك قد عزم قبل قيام الحرب بين مملكتى التتار على أن يعقد حلفاً دفاعيا ضد عدوهم المشترك هولاكو، وبدأت العلاقات بين الظاهر وبركة خان بأن وصلت جماعة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين وذلك بسبب العداء بين هولاكو وبركة خان، ووقوع القتال بينهما وساروا من سوريا إلى مصر فأكرمهم السلطان الظاهر واحتفى بهم وأقنعهم بصحة دين الإسلام حتى اعتنقوه وأغدق عليهم العطايا والهبات والإقطاعات، مما كان سببا فى كثرة الوافدين إلى بلاد الإسلام[2] وكان لبركة خان جيش يقاتل مع قوات هولاكو قبل وقوع الاختلاف بينهما، فلما اختلفا واشتد العداء بينهما أرسل بركة خان إلى عساكره يأمرهم بالمسير إليه وترك هولاكو فإن لم يستطيعوا ذلك فعليهم بدخول بلاد الإسلام فى

---

(١) تلفيق الأخبار ص ٤١٤.

(٢) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١١، تلفيق الأخبار صفحة ٤٢٨، ٤٢٩.

طاعة السلطان الظاهر بيبرس ، فحضروا فى عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م واستقبلهم السلطان وأحسن إليهم ، وأعطى أكابرهم الأمريات وأنزل بعضهم فى البحرية ، فحسنت حالهم ودخلوا فى الإسلام ، أما بخصوص البادئ بالمراسلة فقيل إن ذلك بدأ من جهة بركة خان ، وقيل إن الظاهر هو البادئ بمراسلة بركة ، ولكن الأكثر احتمالا أنهما قاما بالمراسلة فى وقت واحد ، وسار رسل كل منهما إلى الآخر فى وقت واحد ، وحدث أنهم تقابلوا فى القسطنطينية [١] ، أرسل السلطان الظاهر بيبرس من القاهرة رسالة إلى الملك بركة خان فى عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م بطلب الاتفاق والتعاون ، وتزوج أيضاً من ابنة بركة خان ، وفى المحرم ٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢م قدمت بعثة السلطان على بركة خان لنفس الغرض ، وأمر الخطباء أن يدعوا للملك بركة خان بعد الدعاء للظاهر على المنابر [٢] ، وقدمت رسل بركة خان عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م إلى السلطان الظاهر ومعهم رسالة يقول فيها : « قد علمت محبتى للإسلام وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين فاركب أنت من ناحية حتى آتيه من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد ، وأعطيك ما كان بيده من البلاد . فاستصوب الملك الظاهر ذلك وشكره وخلع على رسله [٣] ، وجاء فى الرسالة أيضاً : « . . . . فيعلم السلطان أننى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر بالله ورسوله ، وقد سيرت قصادى ورسلى صحبة رسل السلطان ، ووجهت ابن شهاب الدين غفازى (صاحب ميافارقين) معهم لأنه كان حاضراً فى الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه عن عجائب القتال ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق بالخبرات والسعادات لأنه أقام إماماً من آل عباس فى خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله ، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا سيما لما بلغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحى من أيدى الكفار » فرد عليه الظاهر الرسالة وهدية [٤] .

وفى عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م وصلت إلى القاهرة سفارة بركة خان ، فلما

---

(١) تلفيق الأخبار ص ٤٢٩ — ٤٣١ .

(٢) مصر فى دولة المماليك البحرية ص ٤٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٨ .

(٤) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١١ ، تلفيق الأخبار ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

عادت هذه السفارة إلى بلاد بركة أوفد الظاهر بيبرس معهم رسله [١] ، ولكن إمبراطور بيزنطة احتجز إحدى السفارتين اللتين أرسلهما الظاهر بيبرس ، ويحتمل أن تكون السفارة الثانية هى المحتجزة [٢] مما كان سببا فى هجوم جيش مغول القفجاق على شبه جزيرة البلقان ، وتمكنت هذه الحملة من فك أسر السلطان عز الدين بن كيخسرو الذى كان قد طرد من آسيا الصغرى وحبس فى حصن اينوس على بحر إيجة أحضر إلى منكوتمر فأكرمه ، وأقام معه حتى مات فى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٨٧ م فشار ابنه مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم [٣] وبعد وفاة هولاكو لم تهدأ الأحوال بين المملكتين ، إذ قامت الحرب عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م . وبينما كان بركة يحاول الهجوم على جيش مغول فارس أدركته الوفاة فى الطريق عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م [٤]، فعاد جيش بركة خان إلى بلاده وتولى الحكم من بعده ابن أخيه منكوتمر بن صوطق [٥] ابن باتو بن تولى بن جنكيز خان ، وانتهز الظاهر بيبرس هذه المناسبة ، وأرسل رسالة تعزية فى وفاة الملك بركة خان لخليفته منكوتمر ، وأغراه أيضاً بقتال هولاكو ، فأجابه بالموافقة على محاربة هولاكو والاستيلاء على ماأخذه من بلاد الإسلام وفوض الظاهر بالقيام بهذا الواجب [٦] ، ولقد أدى بركة خان دوره فى نشر الإسلام فى بلاده بين المغول ، ولكن الإسلام انتشر على نطاق واسع بعد وفاته بنصف قرن تقريباً [٧] ، وقال أحد الكتاب فى بركة خان : « وكان بركة يحب العلماء والصالحين ، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريقه جنوده وفك الأسارى من يده ، وكان يناصح الملك الظاهر ويكرم رسله ويهاديه ، وكان لايقطع مكاتبته ومراسلته منه » . وكما أنه كسر قوة هولاكو وشوكته وصدمه بذلك عن قصد بقية بلاد الإسلام ، كذلك قوى

---

(١) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٠ .

(٢) Babars I of Egypt, P.52.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨ ، دائرة المعارف الإسلامية م٣ ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٩ ، والظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٢٢ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ، النجوم ج ٧ ص ٢٢٢ ، تلفيق الأخبار ص ٤٥٥ .

(٥) ذكر أنه منكوتمر بن طغان بن باتو . تلفيق الأخبار ص ٤٥٥ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦٣ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٣

(٧) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٩ السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ج ٧ ص ٢٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية م ٣ ص ٥٦٨ .

قلوب ملوك الإسلام وحرضهم على قتاله وأعانهم بإرسال العساكر على ذلك حين جبنوا عن مقاتلته ، وخشوا بطشته وفرقوا من سطوته حتى انتعشوا بذلك ونهضوا بقوة الجأش لمحاربته »[١] .

الخلاصة أن العلاقات السلمية سادت بين الدولتين منذ عهد بركة خان ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م الذى اعتنق الإسلام وعمل على نشره فى بلاده ، وتحالف مع السلطان الظاهر بيبرس ، فلما تولى منكوتمر بعده سار على نفس السياسة واتفق مع المماليك على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه ، وقدم بقواته لمحاربة أبغا بن هولاكو[٢] ، وأرسل سفارة السلطان الظاهر عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م وكانت تحمل رسالة تتضمن القيام بقتال هولاكو حتى يتم استرداد الأملاك الإسلامية التى استولى عليها ، وطلبوا من الظاهر بيبرس أن ينجدهم ويساعدهم على استئصال شأفته[٣] . ثم أرسل الملك المنصور قلاوون سفارة إلى منكوتمر عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م[٤] ومن هؤلاء السفراء شمس الدين سنقر الغتمى وسيف الدين بلبان الخاص تركى ، فلما وصلت هذه السفارة إلى بلاد مغول القفجاق وجدوا أن منكوتمر قد توفى فى ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، وحكم بعده أخوه تدان منكو الذى امتد حكمه حتى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م[٥] ، فعادت السفارة المذكورة إلى القاهرة فى رمضان عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، ثم أرسل تدان منكو بن طوغان بن باتو بن دوشى بن جنكيز خان ملك القفجاق بعد منكوتمر سفارة إلى مصر ومعهم كتاب بالخط المغولى يتضمن أن تدان منكو أسلم و يريد أن ينعت نعتا من نعوت أهل الإسلام ، ويجهز له علم من الخليفة ، وعلم من السلطان يقاتل بها أعداء الدين ، فأجاب السلطان قلاوون الطلب[٦] ، وذلك فى عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ثم جهز السلطان قلاوون هدية سنية إلى تدان منكو ملك مغول القفجاق ومبلغ من ألفى دينار — وذلك لتعمير جامع قام وأن يكتب عليه

---

(١) تلفيق الأخبار ص ٤٢٧ .
(٢) الذيل ج ٢ ص ٣٦٥ .
(٣) الذيل ج ٢ ص ٤٧٣ .
(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ .
(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ .
(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧١٦ .

ألقاب السلطان ، وجهز أحجار لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ [١] ، وتنازل تدان منكو عن الملك وأظهر التزهد والانقطاع إلى العلماء ، وتولى الملك بعده ابن أخيه تلابغا بن منكوتمر بن طوغان وذلك عام ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م ولكنه اغتيل عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م بتدبير طقطقا المسمى أيضاً طقطاى الذى تولى الحكم منذ عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م واستمر حكمه حتى ٧١١ هـ / ١٣١٢ م وكان قد حل ببلاده قحط وفقر شديدان ، فباع الناس أولادهم وأقاربهم للتجار فقدموا بهم مصر وغيرها [٢] ومن أثر سياسة التفاهم بين دولتى المماليك ومغول القفجاق أن طقطاى ابن منكوتمر ملك مغول الشمال أرسل سفارة إلى مصر عام ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م ومعهم هدية ورسالة للملك الناصر محمد فى محاربة غازان ملك مغول فارس، فأرسل الناصر إلى طقطاى ردا ذكر فيه أن الله قد كفاهم شر غازان بموته وتولية أخيه الأولجايتو خدابنده الذى كان مسلماً وطلب الصفح من الملك الناصر فانعقد بينهما [٣] ولكن طقطاى أعاد الكرة بعد عامين فأرسل سفيره إلى الملك الناصر محمد ومعه هدية سنية وكتاب يعلن فيه رغبته فى إرسال جيش من بلاده ليصحب جيش المماليك إلى الفرات للاستيلاء على بلاد غازان — خدابنده فى هذا الوقت — على أن يكون لسلطان المماليك وملك مغول القفجاق ما يفتحه جيش كل منهما [٤] فلما وصل هذا السفير نامون إلى القاهرة ومعه الرسل الذين توجهوا إلى طقطاى قبل ذلك استقبلوا جميعا بحفاوة [٥] وأرسل الملك الناصر رسله إلى طقطاى ومعهم الجواب بأن الناصر عقد الصلح مع اولجايتو خدابنده ايلخان المغول بفارس، ولا يليق نقضه ،وقال أيضاً إذا حدث ما يستوجب نقض الصلح مع أولجايتو ، فإن السلطان سيعمل على تلبية طلب الملك طقطاى فى المحالفة [٦] وحدث أن وقع قتال بين دولتى المغول الشمالية والفارسية انتصر فيها خدابنده ملك مغول فارس على جيش طقطاى ملك القفجاق، فشق ذلك عليه

---

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٤٢ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٧.

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧ ، ٢٧ — ٢٨ .

(٦) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٧ — ٢٨ .

واتهم قراسنقر وأصحابه بمناصرة خدابنده وأنهم سبب هزيمة جيشه، ولذلك أرسل سفارة إلى الملك الناصر محمد يخبره بذلك ، وذلك فى عام ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م ، وكان هذا الرسول يسمى بكلش بن قنجوبغا وهو من أقارب الملك طقطاى ، وكان معه نحو ثلثمائة نفر كباراً وصغاراً ومماليك وجوار ، فلماحضر أمام السلطان الناصر ، قدم له الهدية وقال للناصر : ابن عمك يسلم عليك ويهنيك بهذا الملك الذى أعطاك الله، ولم يكن اليوم شىء مثل ملكك ، وذكر فى حديثه ما جرى على عسكر طقطاى بسبب قراسنقر وأصحابه وأن الهزيمة وقعت بسببهم ، وطلب أيضاً من الناصر سلاحاً وعدداً إنعاماً من السلطان عليه ، فخلع عليه السلطان وأعطاه كل ماطلب وسلمه هدية إلى الملك طقطاى، وقال له الناصر : سلم على ابن عمى وقل له: يسير إلى جوارى ملاحا ومماليك قفجاق ، وعرفه إذا تحرك خدابنده عليه يسير إلى . أعبر إليه من قدامه ، ويجىء هو من خلفه ونخرب دياره ونقلع آثاره ، وأى مكان وصلت خيلى يكون لى، وأى مكان وصلت خيله يكون له، ونملك بغداد ونعيد الخليفة إلى كرسى خلافته إن شاء الله تعالى» وسار الرسول إلى بلاده عن طريق الإسكندرية [1] ، وبالرغم من كل ذلك فإن طقطاى كان على دين المغول وكان له ولد قد أسلم إلا أنه مات قبل والده ، وتوفى طقطاى بين عامى ٧١٢ – ٧١٣هـ/١٣١٢ – ١٣١٣م [2]
واستمرت العلاقات الودية بين الجانبين فى عهد أزبك عام ٧٣٠ – ٧٤١ هـ / ١٣١٣ – ١٣٤٠ م ابن أخى طقطاى الذى حكم بعده وحذا حذو بركة خان فى نشر الإسلام فى بلاده« فأخلص فى الإسلام غاية الإخلاص وتظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة وحافظ على الصلاة وداوم على الصلاة [3] ». وأصبح الإسلام ثابت الأركان فى عهده [4] وظهرت نتيجة ذلك فى استمرار العلاقات الودية بين أزبك وبين دولة المماليك فى مصر، وتبادل كل منهما المراسلات والهدايا والسفارات ، ثم أراد الناصر محمد عقد معاهدة مع أزبك خان، فأرسل الأمير علاء الدين ايدغدى الخوارزمى ومعه حسين بن صاروا أحد مقدمى الحلقة وذلك عام ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م

---

(١) الدر الفاخر ص ٢٧٩ – ٢٨١ .

(٢) النجوم ج ٩ ص ٢٢٦ ، دول الإسلام ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ .

(٤) تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١٨ .

ومعهم رسالة إلى أزبك خان تتضمن طلب الناصر للمصاهرة وزواجه من بنات ملوك البيت الجنكيز خانى ، فلما وصل الرسل بهذا الجواب وعرضه أزبك على أمرائه فنفروا منه أول الأمر وقالوا « هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكيز خان وإلى هذا الوقت ، وفى مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكيز خانية إلى الديار المصرية ؟ »، ورفضوا طلب الملك الناصر لأنهم اعتبروا ذلك خروجا عن تقاليدهم وعاداتهم ، ولكنهم مالبثوا أن اجتمعوا بعد أن وصلت هدايا الملك الناصر ودرسوا الموضوع مرة ثانية وعدلوا عن رأيهم الأول وعملوا على تذليل الصعاب فى مسألة زواج الناصر وقالوا : مازالت الملوك تخطب إلى الملوك وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ماطلب إلا أن هذا الأمر لايكون إلا بعد أربع سنين ، سنة كلام وسنة خطبة وسنة مهاداة وسنة زواج »[1] ووضعوا شروطاً لإتمام الزواج تنص على أن يدفع الملك الناصر مليون دينار ومليون فرس وألف عدة كاملة للحرب ، وأن يحضر بعض الأمراء ونساؤهم لمصاحبة الأميرة المغولية فى سفرها إلى مصر ، وغير ذلك مما يتعذر إجابته ، فلما عاد الرسل من عند أزبك خان عدل الناصر عن الخطبة[2] ، ويبدو أن المصاهرة السياسية التى أرادها السلطان الناصر لم تكن لتتحقق بسرعة نظراً لارتباط المغول بعاداتهم وتقاليدهم القديمة بالرغم من دخولهم دين الإسلام، فإنهم لم يتخلصوا من تعاليم جنكيزخان ، فكانوا ينظرون إلى المماليك نظرتهم إلى العبيد والأرقاء وأنهم أقل منهم قدراً ، وقال القلقشندى حول هذا الموضوع : « إن ملوك هذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها فى كثير من الأمور ، واقفون مع سياسة جنكيزخان التى قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه مع مؤاخذة بعضهم بعضاً أشد المؤاخذة فى الكذب والزنا ونبذ المواثيق والعهود، وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم أخذوا ماله وباعوا أولاده »[3] واستمر وصول الرسل وانتقالهم بين المملكتين دون أن تتعرض لمسألة المصاهرة .. ثم سار السفير سيف الدين اطرجى من مصر

---

(١) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢١٩ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ .

إلى بلاد أزبك خان حاملا الهدايا والتحف والملابس الفاخرة ، فتحدث معه أزبك فى مسألة زواج الملك الناصر محمد وقال له : « قد جهزت لأخى السلطان الملك الناصر ماكان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكيز خانى » فقال الأمير سيف الدين لأزبك : « إن السلطان لم يرسلنى فى هذا الأمر » فلما تحدث أزبك مع السفير فى موضوع الصداق اعتذر الأمير سيف الدين عن التحدث فى هذا الموضوع لعدم وجود مال معه ، ثم طلب أزبك خان من التجار أن يقوموا بإقراض السفير بعض الأموال فاقترض منهم سبعة وعشرين ألف دينار [(١)]
ثم جهزت الخاتون دلنبية بنت طغاى بن هندو بن باطو بن دوشى خان بن جنكيزخان [(٢)] ومعها جماعة من الأمراء فى مائة وخمسين رجلا وستين جارية [(٣)] وصحبهم قاضى مدينة صراى ، وركبوا جميعاً البحر فى شهر رمضان عام ٧١٩ هـ/ أكتوبر ١٣١٩م قاصدين مصر ، ومروا فى طريقهم بالقسطنطينية ثم تابعوا سفرهم إلى الإسكندرية فوصلوا إليها فى ربيع الأول سنة ٧٢٠ هـ / أبريل ١٣٢٠ م حيث كان فى انتظارها الأمير اقبغا عبد الواحد وبعض الحجاب وثمانية عشر حراقة ، فركبت الأميرة فى الحراقة السلطانية الكبرى ، ثم نقلت إلى قلعة الجبل فى عجلة موشاة بالذهب والديباج [(٤)] ، وأكرم الناصر الأميرة والوفد الذى رافقها ودعاهم لمقابلته ، ولما مثل كبير رسل أزبك بين يديه ، سلمه رسالة أزبك وقال له فيها : « أقول أزبك .. قد سيرنا لك من بيت كبير ، فإن أعجبتك خذها بحيث لاتخلى عندك أكبر منها ، وإن لم تعجبك فاعمل بقوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) » فقال له السلطان «نحن ما نريد الحسن وإنما نريد كبير البيت والقرب من أخى ونكون وإياه شيئاً واحداً» [(٥)] . ومرت أيام قليلة على وصول الأميرة والوفد المرافق لها ثم عقد الزواج على صداق قدره ٣٠ ألف دينار ، وأثمرت هذه الزيجة بأن وطدت الصلات

---

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ذكر أنها ثلاثون ألف دينار .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٣) قيل إن عدد من رافقها ألفا شخص وأربعمائة ، توفى منهم فى الطريق أربعمائة شخص ووصل الباقون معها : الدر الفاخر ص ٣٠٣ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٤ ، الدر الفاخر ص ٣٠٢ – ٣٠٣ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ، دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٠ .

بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، وعادت العلاقات مثلما كانت فى عهد بركة خان والملك الظاهر بيبرس الذى حالف بركة خان وتزوج من ابنته[١] ، وجهز الناصر الرسل بالهدايا والعطايا وسفرهم ، ووصلت رسل أزبك خان فى عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م إلى مصر بكتاب من أزبك إلى الملك الناصر محمد يتضمن احتجاج الملك أزبك على إطلاق الناصر للخاتون طولبية — دلنبيه — بنت طقطاى أخى أزبك، ثم زوجها الملك الناصر بأحد المماليك فطالب أزبك عودتها إلى بلادها فأجابه السلطان الناصر بأنها ماتت وأرسل إليه هدية[٢] . وقدم مراد قجا رسول أزبك إلى مصر فى آخر جمادى الأولى عام ٧٣٧ هـ / ديسمبر ١٣٣٦ م ، فأقام خمسة أشهر وعاد إلى بلاده فى الرابع عشر من ذى القعدة عام ٧٣٧ هـ / يونية ١٣٣٧ م[٣] ، ثم أرسل الناصر سفارة إلى بلاد أزبك عام٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ومعهم هدية إلى أزبك خان وعشرون ألف دينار لشراء مماليك وجوار من بلاد مغول الشمال[٤] فقدمت رسل أزبك خان إلى مصر بهدية وكتاب يطلب أزبك فيه مصاهرة السلطان الناصر ، ويبدو أن ذلك الطلب كان مقابل زواج الناصر من الأميرة المغولية وموتها كما أشرنا ، وأنعم الناصر على الرسل وعادوا . وتوفى أزبك خان قبل أن تتم هذه المصاهرة وذلك عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م ، فتولى الملك بعده جانى باك خان[٥] . وكان أزبك لما توطدت علاقاته مع الملك الناصر طلب منه أن يساعده على خصمه أبى سعيد إيلخان المغول فى فارس ، ولكن نظراً لدخول الناصر فى اتفاق وصلح مع أبى سعيد ، اعتذر لأزبك عن قتال أبى سعيد فى هذا الوقت ، وأوضح له أن إيلخان مغول فارس قد اعتنق الإسلام وأنه قد عمل على إزالة أسباب العداوة بين الدولتين فلا يجوز نقض الصلح إلا بما يستوجب ذلك ، وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين أزبك خان وأبى سعيد وانتهت بعقد الصلح بينهما ، وأعاد كل منهما ما أخذه من الآخر[٦] . واستمرت العلاقات الودية بين الدولتين أيام

---

(١) الدر الفاخر ص ٣٠٣ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٣ ، دولة بنى قلاوون ص ٢٢٢١ .
(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٧٨ .
(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١١ .
(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٢٣ .
(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٨ ، النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٧٤ .
(٦) مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ .

جانى بك خان ابن أزبك خان ، وتبادل الطرفان الرسائل عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥م ، ولم تكن هذه العلاقات الودية لتتغير أو تضطرب بسبب انحلال دولة مغول القفجاق وضعفها بعد وفاة بردى بك ابن جانى بك ، فظل الصفاء بينهما ، وأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى أرض خان الذى انتزع الملك من حفدة أزبك خان ، وفداً مزوداً بالهدايا ، وبعض الطرف ، ثم أرسل شعبان إلى أرض خان رسالة أخرى يتباهى فيها الملك الأشرف شعبان بعظمة ملكه وتوارث أسرته الحكم ، ويعتذر له فى تأخره فى الكتابة إليه لانشغاله بمحاربة الصليبيين الذين أغاروا على الإسكندرية ، وجاء فى هذه الرسالة . . . . « الحمد لله الذى وهبنا ملكا دانت له الأقطار وازدانت الأسرة والتيجان بما له من عظمة . . . ونحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هى محل الإمامة العباسية ، فلا جحود ولا إنكار . . . ونشكره على أنه أورثنا ملك أسلافنا الشهداء فأقر العيون وسر الأسرار ، وجعل السلطنة العظيمة فى بيتنا المكرم ، تنتقل تنقل البدور فى بروجها . . . وكان لنا مدة مديدة ، وقد تأخرت رسلنا عن حضرتك ولم تصدر من جهتنا الشريفة . . . ولا وردت رسل من جهتك ، ولم يشغلنا عن ذلك إلا موافقة الفرنج المخذولين أعداء الدين ومقاومتهم فى سائر السواحل بشدة البأس والتمكين . . وقد وجهنا إلى المقام العالى أعلى الله شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الأقمشة الإسكندرية وغيرها على سبيل الهدية والمذاهب السنية . . . »[1] .

وخلاصة القول أن العلاقات بين مغول القفجاق ودولة المماليك كانت قائمة على أساس متين وصلات وثيقة ربطت بين الدولتين وفى مقدمتها العقيدة الإسلامية ، ثم العداوة السياسية لدولة مغول فارس التى قامت دوما على التوسع على حساب جيرانها منذ عهد جنكيز خان ، سواء كانت هذه السياسة مع المماليك أو مغول القفجاق ، ولهذا فإن العلاقة بين مغول فارس بعد إسلامهم أيضاً لم تصل إلى نفس المستوى التى كانت وصلت إليه العلاقة مع مغول القفجاق لما ذكرناه من نزعة السيطرة والتوسع التى تمكنت من نفوس معظم ملوك فارس[2] .

وظلت العلاقات المملوكية المغولية قائمة على الود والمسالمة خاصة بعد الصلح الذى

---

(١) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٢ .

(٢) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

عقد بين المماليك والمغول في الشرق ، أضف إلى هذا أنه كان لا بد من قيام علاقات سلمية مع المغول في تلك الفترة بالذات ، إذ كان على المماليك مواجهة الخطر الصليبي الذي عاد إلى الظهور من جديد .

وفي الختام ، أرجو الله أن أكون قد وفقت في بحثي هذا . . »

الملاحق

ملحق رقم ١

نص خطاب إيلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

بقوة الله تعالى ، باقبال قاآن (كذا) فرمان أحمد إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى ، بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده فى دينه ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور المسلمين ، إلى أن أفضت بعد أبينا الحبيب وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هدى المملكة على يدينا ، وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا فى قوريلتاى المبارك وهو المجمع الذى تنقدح فيه الآراء جميع الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير فى إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها وامتلأت الأرض رعباً لعظيم صولتها وشديد بطشتها إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتناء الخير العام الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله .

فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرسلنا إليه من تقديم مايوحى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ،

وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا نحب المسارعة إلى هذا الفصال للنضال إلا بعد إيضاح الحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق ووضوح الحجة . .

وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وأنفذنا أقضى القضاة وقطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا وبينا لهم أنالهم من الله على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلبنا أن نتبع الحق وأهله، ويشاهدون عظيم نعمة الله . على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال وكل يوم هو فى شأن ، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل يستحكم بسببه دواعى الاعتماد وحجة يثقون بها من باوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أثرنا مما اشتهر خبره وعم أثره .

فإنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء أعلام الدين ، وإظهاره فى إيراد كل أمر وإصداره تقديما ، وإقامة نواميس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى إجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف ، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين ، من المشاهد والمساجد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقها لشروط واقفها ، ومنعنا أن يلتمس شىء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها وتيسير قوافلها ، وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقوا غول والشحانى فى الأطراف التعرض بهم فى مصادرهم ومواردهم وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً فى زى الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم ، ولا يخفى عليهم ما كان فى إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم فى زى الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم فى تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بهم

ما فعلوا وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك ، بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم ، فإذا أمعنوا الفكر فى هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عليهم أنا أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عريه ، وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعى المضرة التى كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوذة المسلمين ، فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين وإن كان لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الثواب فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها لترضى بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، فيسكن فى سابغ ظلها البوادى والحواضر ، تقر القلوب التى بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الاخلاص بحيث تغمر تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة ، وتحل ألطافه أرض الهوينى وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذب والهون ، وإن غاب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ومنع من معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد وحسبنا الله وحده .

كتب فى (مدينة) واسط (فى شهر) جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، بمقام الأوطان .

السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٧٧ — ٩٨٠ . صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ — ٦٨ .
تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٦ — ١٠ .

ملحق رقم ٢

نص خطاب السلطان قلاوون ردًّا على رسالة أحمد أغا تكودار.

« بسم الله الرحمن الرحيم »

بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور ، أما بعد،حمداً لله الذى أوضح بنا ولنا الحق منهاجا ، وجاء بنا فجاء نصرالله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبى نجى به أمته وعلى كل نبي ناج ، صلاة تنير ما دجا وتجير من داجى . فقد وصل الكتاب الكريم ،المتلقى بالتكريم المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله فى الدين، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين ،ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلم المعلم، والحديث الذى صح عند أهل الإسلام إسلامه ،وأصبح الحديث ما روى عن مسلم، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه فى أن يثبته على ذلك بالقول الثابت وإن ينبت حب هذا الدين فى قلبه كما أنبته من أحسن النبت من أخشن المنابت ، وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية فى أول العمر وعنفوان الصبا والإقرار بالوحدانية، ودخوله فى الملة المحمدية بالقول والعمل والنية فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ،وألهمه شريف هذا الإلهام ،كحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المنال والمقام، وثبت أقدمنا فى كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام ،وأما إفضاء النوبة فى الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتوقله الأسرة التى طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده ، وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد فى مجتمع قوريلتاى الذى تنقدح فيه زند الآراء، وإن كلمتهم اتفقت على ماسبقت به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه

فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم ، فوجد مخالفاً لما فى ضميره إذ قصده الصلاح ، ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك الثائرة ، وسكن تلك النائرة ، فهذا فعل الملك المتقى المشفق من قومه على من بغى ، المفكر فى العواقب بالرأى الثاقب ، وإلا فلو تركوا وآراؤهم تحملهم العزة ، لكانت هذه الكرة هى الكرة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى ، وأما القول منه بأن لا يحب المسارعة إلى المقارعة ، إلا بعد إيضاح الحجة وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة ، وعلى من غدت طواغيته عن سلوك هذه الحجة متنكبة ، فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا إنما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول ، وبارتفاع المنافرة ، تحصل المظافرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام منارة فله أهل بأهل فى كل مكان وجيران بجيران فى كل أرض ، وأما ترتيب هذه القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله من بركاته ، فلم تر لولى قبله كرامة كهذه الكرامة والرجاء بركاته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن ما كان ، ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن فى الوجود ، إن كل حق بركته إلى نصابه يعود ، وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما فى إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضروا وأعادوا كل قول حسن من حوالى أحواله وخطرات خاطره ، ومنتظرات ناظره ، ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويعنون حديثهما فيه عن مسند أحمد وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كان لها تطلع إلى إقامة دليل تتحكم به دواعى الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره فى موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتيسير للحج إلى غير ذلك ، فهذه صفات من يريد لملكه الدوام ، فلما ملك عدل ، ولم يمل إلى لؤم من عدى ولا لوم من عدل على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة فهى واجبات تؤدى وقربات بمثلها يبدى ، وهو أكثر من أنه بإجراء غيره يفتخر ، أو عليه ينتصر ، أوله يدخر ، بل إنما يفخر الملوك الأكابر برد مماليك على ملوكها ، ونظم ما كانت

عليه فى سلوكها ، وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وما كان أحد منهم يدينه بدين ولا دخل معه فى دين ، وأقرهم فى ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم ، ويحب عليه الأيدى حقاً مغتصبا ، ويأبى إلا رده ولا باعاً ممتداً بالظلم ويرضى إلا صده ، حتى إن أسياف ملكة تقوى وأيامه تتزين بأفعال التقوى ، وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحانى بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى وإرضاء موارد الواردين والصادرين من شوائب الغذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب وإلى مقدمى العساكر بأطراف تلك المماليك ، وإذا اتحد الإيمان ، وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام ، وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق ، وأن بسبب من تزيا من الجواسيس بزى الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرق كان قدحه ، وكم من متزى بفقير من ذلك الجانب سيروه وإلى الاطلاع على الأمور سوروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بكم ولا كيف . وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلى ظلم الاختلاف وتدر بها من الخيرات والأخلاف ، ويكون بها صلاح المعالم ، وانتظام شمل بنى آدم فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح إلى السلم فما حاد ولا جاد ، ومن ثنى عنانه عن المكافحة ، وكان كمن مد يد المصالحة للمصافحة ، والصلح وإن كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده ، ويعلم من مدلولها فوائده بالأمور المسطورة فى كتابه هى كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم أن تهيأ صلح أو لم ، ثم أمور لا بد وأن تحكم وفى سلكها عقود العهود تنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة التى إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس ، وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى ، (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فما على هذا النسق من الود ينسخ ، وعلى هذا السبيل ينهج ، بل الفضل للمتقدم فى الدين ، ونصره عهوداً ترعى ، وإفادات تستدعى ، وما يبرح الفضل للأولوية وإن تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية فى غير

مكانها لتروى وتأول ، وعندما أنهينا إلى جواب ما لعلة بحث عنه الجواب من فصول المكاتبة سمعنا المشافهة التى على لسان أقضى القضاة قطب الدين ، فكان ما يناسب ما فى هذا الكتاب من دخوله فى الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسطه من عدل وإحسان ، مشكورة بلسان كل إنسان ، فالمنة لله عليه فى ذلك فلا يشينها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله فى حق من امتن بإسلامه : (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما فى يد غيره من أرض وماء فإن حصلت الرغبة فى الاتفاق على ذلك ، فالأمر حاصل بالجواب إن تم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا وإزلال عدونا وإعزاز مصطفينا ، فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر هذا الدين واستخدم فى صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة ، فإن كانت له رغبة معروفة إلى الاتحاد ، وحسن الوداد وجميل الاعتضاد وكبت الأعداء والأضداد والاستناد إلى من يشتد الأزر به عند الاستناد فالرأى إليه فى ذلك من المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما فى يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة ، فالجواب عن ذلك ، أنه إذا كف كف العدوان وترك المسلمين وما لهم من مماليك ، سكنت الدهماء ، وحقنت الدماء وما أحقه بأن لا ينه عن خلق ويأتى مثله ولا يأمر ببر وينهى فعله ، فثغر طاب بالروم وهى بلاد فى أيديكم ، وخراجها يجبى إليكم وقد سفك فيها وفتك وسبى وهتك ، وباع الأحرار وأبى إلا التمادى على الإصرار ، ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا يفتر عن هذه الإثارات ، فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة مرة ، قد عاف مواردها من سلم أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه

عند الله فلا يقدر ، وما النصر إلا من عند الله لمن قدر لا لمن قدر ، لا نحن ممن ينتظر فلتة ولا له إلى غير ذلك لفتة ، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا يتأتى إلا بغتة ، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة ، والقادر على إتمام كل خير ونعمة .

السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٨٠ – ٩٨٤:
صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٣٧ – ٢٤٢.
تاريخ مختصر الدول ص ٥١٠ – ٥١٨.

ملحق رقم ٣

نص فرمان إيلخان غازان لتأمين أهل دمشق ، قبيل دخوله بعساكره إليها في ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ (يناير ١٣٠٠م) .

بقوة الله تعالى ، ليعلم أمراء التومان والألوف والمائة ، وعموم عساكرنا المنصورة من المغول والتازيك والأرمن والكرج ، وغيره ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا أن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومد الأيدى العادية إلى حريمهم وأموالهم والتخطى عن جادة العدل والإنصاف وارتكابهم الجور والإعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية ، على أن توجهنا إلى تلك البلاد ، لإزالة هذا العدوان وإماطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجم الغفير من العساكر ونذرنا على أنفسنا أن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد وبسطنا العدل والإحسان فى كافة العباد ممتثلا للأمر الإلهى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) ، وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة ، والنذور الأكيدة ، ومن الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين ، والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمته وأنزل علينا سكينته ، فقهرنا العدو الطاغية والجيوش الباغية وفرقناهم أيدى سبا ، ومزقناهم كل ممزق ، حتّى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ،

منخرطين فى زمرة من حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة. فوجبت علينا رعاية تلك العهود الموثقة، والنذور المؤكدة، فصدرت مراسيمنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها، لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الإسلامية الشامية، وأن يكفوا أظفار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده، من تجارة وزراعة وغير ذلك، وكان هذا الروح العظيم وكثرة العساكر، فتعرض بعض نفر يسير من السلامية وغيرهم إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم فقتلناهم ليعتبر الباقون ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأمر، وغير ذلك من الفساد، وليعلموا أننا لا نسامح بعد هذا الأمر البايغ ألبتة، وألا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية، لقول على عليه السلام إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا والسلاطين موصون على أهل الذمة المطيعين، كما هم موصون على المسلمين، فإنهم من جملة الرعايا، قال صلى الله عليه وسلم: الإمام الذى على الناس راع عليهم، وكل راع مسئول عن رعيته، فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء الشرفاء، والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا، والاستبشار بهذا النصر الهنى، والفتح السنى، وأخذ الحظ الوافر من السرور، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة آناء الليل وأطراف النهار. كتب فى خامس ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة.

السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٠١١، ١٠١٢.

الدر الفاخر ص ٢٠ إلى ٢٣.

تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٦٢ — ٦٤.

بدائع الزهور جـ١ ص ١٤٠، ١٤١.

ملحق رقم ٤

رسالة الملك الناصر إلى غازان بعد هزيمته الأخيرة فى موقعة شقحب عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٠ م وأخبره فيها بما جرى على جيوشه التى امتلأ من قتلاهم فسيح الأرض الفضاء حتى عفت لحومهم الوحوش ، وهذا نص الرسالة .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة وسمح به من الكرامة العامة حين أعاد البدر إلى كماله ، والسرور إلى أتم أحواله ، فاشتاقت النفوس إلى عوايدها وارتاحت القلوب إلى ملايذها ، وأضاءت شموس المعالى ، وطلعت بدورها بالسعد المتوالى ، وارتاحت القلوب إلى معجز برهانها التالى . وكانت غلطة من الدهر فاستدركها ، وسقطة خطب غطته فما ملكها . فقرت تلك العيون ، وتحققت فى بلوغ الآمال الظنون ، فلله الحمد الجزيل ما لاح فى الجو بارق وعرا فى الليل طارق ، وبعد :

فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود وحاشد الحشود أنه قد كان ما جرى وقدر فى القدم ، فلا راد لما قضى وبرم وحكم ، فحملنا ذلك أنه كان من ربنا تقدير ، وأنه ليس لأحد فيما أراد الله تعالى تدبير ، فما لبثت إلا اليسير من المدة حتى أرسلت رسلك إلينا مجدة ، تطلب الصلح وتحث عليه ، وتذكر السلم وتندب إليه بعدما اعتمدت الفساد فى الأرضين ، وكان من الواجب علينا وعليك إصلاح ذات البين فأكرمنا رسلك إكراماً يليق بجميل فعالنا ، وجاوبناهم بمقتضى حالهم لا حالنا . وأعدناهم إليك . وقلدناك من البغى ما عاد وباله عليك فعدت وأرسلت تطلب منا رسلا تسمع كلامك وقد فهمنا مقصدك ومرامك ، فأرسلنا إليك ما طلبت وركبناك فرس البغى فيا بئس ما ركبت :

فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكرك وأظهرت الغدر لنا وحرضتهم بما عاد وباله عليهم وما رأوه حاضراً لديهم . ثم شيعتهم من هناك ورجعت طالباً للسلامة

من الهلاك ، فما كان إلا أن دخلوا البلاد . وفعلوا ما أمرتهم به من الفساد . ونزلوا بالقرب من حلب وشنوا الغارة وجدوا فى الطلب وسيرت من جيشك جماعة إلى القريتين . فشاهدهم يزكنا المنصور مرأى العين . فوجدوهم وقد أخذوا أغنام التركمان فتلقوهم يزكنا بأضيق مكان فلم يلبث الباغون إلا ساعة من نهار وطلبوا الهزيمة والفرار ، فلم يمهلوا حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار و بقيت أجسادهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض . ثم سارت عساكرك طالبين الغوطة ولم يعلموا أن بها أسوداً مربوطة . وعساكرنا تتأخر عنهم قليلا قليلا . وأعيننا ترقبها بكرة وأصيلا ، فلما عاينوا دمشق ظنوا أنهم يدخلونها ولأهلها يأسرون ، وما علموا أنهم فى تجارتهم يخسرون ، فإن سجية الغدر للهلاك ومصرع البغى ليس منه فكاك ، فلم تغرب الشمس حتى فرقناهم على أديم الأرض وشتتنا بعضهم عن بعض ، والتجأ من بقى منهم إلى الجبل وباتوا وهم من سيوفنا على وجل ، وأقاموا عليه ليلة الأحد وظنوا أن ليس مقابلهم أحد ، فلما دقت نصف الليل كوساتنا المنصورة ، تحققوا أنهم الغية الباغية المكسورة ، فعندما أصبحوا نظروا الأرض وقد سالت عليهم خيلا ورجلا حتى ضاقت بهم عن المجال ، فعندها ندموا حيث لا ينفعهم الندم وأيقنوا بعد السلامة بالعدم ، فنادى لسان حالهم — وقد قصروا فى أعمالهم— اعتقنا أيها الملك الرحيم واعف عنا فإنك حليم ،فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقاً منها يخرجون وتركناهم من أمرنا يعجبون، ففروا فرار الشاة من الأسد — ولم يلتفت منهم الوالد على الولد ، فلو رأيت أيها الملك عساكر إما ذليلا أسيرا ، أو جريحاً عفيراً، (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذياب والنسور وعادوا أصحابك طعاما للذياب لعضيت على يديك وقلت (ياليتنى كنت تراباً) فبادر أيها الملك إلى حد الله العادل الذى لم يرعينك هذه المحافل، ومرورها على سمعك أهون من العيان ونظرك إلى عورات أصحابك يغنيك عن البيان فإنه كان يوماً مشهوداً ، وكانت الملائكة فيه شهوداً، وقد نصحتك فما ارعويت وبذلت لك القول فما وعيت ، وركبت فرس البغى أحمر كميت ، فمن أجل ذلك عاد كل حى من جيشك ميتاً وقلنا لك : من جرد سيف البغى فهو به مقتول ، فلا تعبأ بالقول ولا تفهم ما تقول فاستحببت الكفر على الإيمان فبئس ماسول لك الشيطان ، فإن شئت أن تقف معنا على الكتاب المبين (ولا تعثوا فى الأرض

مفسدين) فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق ونتركهما لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق ، وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك وعما قليل يخلو منك العراق والعجم – وتندم حيث لا ينفعك الندم وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقوم سبيل ، ونتقدم بإرسال رسلنا المرسولة إليك ولا تعوقهم حتى لا يكونوا وبالا عليك ، وكان قد خيلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ولكن على غير حالة مرضية ، أما الخيول فعلى أيدى عساكرنا مجنوبة والطبول فى أعناقهم مقلوبة ، وأما الرجال فنى أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال فعادت مغللك كالكلاب فى أيدى أسود الغاب ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، وفى آخر هذه الرسالة البيتان :

وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام فى قابل
فإن السيوف التى ورخت مواقعها فى يد القاتل

الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٩ – ١٢٢.
تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٨ – ١٢١.

ثبت بأسماء المصادر

١ – ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ)
– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
١٢جزءاً – طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٩ – ١٩٥٦ – الأجزاء التى اعتمدت عليها هى ٦، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

٢ – ابن الأثير : على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ) .
– الكامل فى التاريخ ١٢ جزءاً طبع الأزهرية بمصر ١٣٠١ .
– الكامل فى التاريخ ٩ أجزاء دار الطباعة سنة ١٣٤٨ هـ .

٣ – ابن إياس : محمد بن أحمد (ت ٩٢٠ هـ)
– بدائع الزهور فى وقائع الدهور طبعة القاهرة (بولاق) ١٨٩٤ م – الجزء الأول .

٤ – ابن العماد : عبد الحى الحنبلى ، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ)
– شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٨ أجزاء الجزء الخامس طبع القاهرة مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٥ – ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على بن أحمد بن محمد . (ت ٩٠٧ هـ)
تاريخ الدول والملوك
حرر نصه ونشره حسن محمد الشماع البصرة مطبعة حداد

الجزء السابع طبعة بيروت ١٩٤٢
الجزء الثامن طبعة بيروت ١٩٣٩

٦ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربى
– العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء طبعة اليزيدية بالقاهرة ١٢٨٤ هـ .
الأجزاء ٣ ، ٥

٧ – ابن كثير : إسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ)
– البداية والنهاية – مطبعة الخانكى ١٣٥١ هـ
الأجزاء ١٣ ، ١٤

٨ – ابن عبد الحق البغدادى : عبد المؤمن (ت ٧٣٩ هـ) .
– مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٣ أجزاء تحقيق على محمد البجاوى
دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م .

٩ – ابن شاكر الكتبى : محمد بن شاكر بن أحمد
– فوات الوفيات ج ١ ، ٢
طبعة النهضة القاهرة سنة ١٩٥١

١٠ – أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن محمد ابن عمر بن أيوب (ت ٧٣٢ هـ)
– المختصر فى أخبار البشر الجزآن ٣ ، ٤
طبعة القسطنطينية – دار الطباعة الشاهانية ١٢٨١هـ

١١ – أبو بكر : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى
– الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر
تحقيق روبرت رويمر – القاهرة – قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى للآثار سنة ١٩٦٠ م

١٢ – أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل
– تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين
المعروف بالذيل على الروضتين جزء ١

١٣ – أبو الفوارس العدوى : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد المصرى (ت ٧٤٩)
– تتمة المختصر فى أخبار البشر
الجزء الثانى طبعة القاهرة جمعية المعارف ١٢٨٥ هـ

١٤ – المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
ابن إبراهيم بن محمد بن تميم (ت ٨٤٥ هـ)
– السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق زيادة . طبعة القاهرة
الجزء الأول ١٩٣٤ م
الجزء الثانى ١٩٤١ م

١٥ – المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد
ابن إبراهيم بن محمد بن تميم (ت ٨٤٥ هـ)
– المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار –
طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ (أجزاء ٢ ، ٣، ٤)

١٦ – الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركمانى
الفارقى الدمشقى (ت ٧٤٨ هـ)
– تاريخ دول الإسلام الجزء الثانى
طبعة حيدر آباد ١٣٢٧ هـ

١٧ – اليونينى : قطب الدين أبى الفتح موسى بن محمد بن أحمد
قطب الدين البعلبكى الحنبلى
– الذيل على مرآة الزمان
طبعة حيدر آباد الدكن ١٩٥٤–١٩٦١ أجزاء ١
٢ ، ٣

١٨ ـــ الديار بكرى الشيخ حسين بن محمد الديار بكرى
ـــ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس
مطبعة القاهرة ١٣٠٢ ـــ مطبعة عثمان عبد الرازق
الجزء الثانى .

١٩ ـــ البغدادى : كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى
ـــ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة
السابعة طبع المكتبة العربية ـــ بغداد ـــ سنة
١٣٥١ هـ

٢٠ ـــ الهمذانى : رشيد الدين فضل الله
ـــ جامع التواريخ ـــ طبعة القاهرة ١٩٦٠
الجزآن ١ ، ٢

٢١ ـــ السيوطى : عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر جلا ل الدين
(ت ٩١١ هـ)
ـــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـــ الجزء
الثانى طبعة الشرفية بغداد ١٩٢٧ م

٢٢ ـــ اليافعى : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان
عفيف الدين اليافعى اليمنى (ت٧٦٨ هـ)
ـــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من
حوادث الزمان ـــ الجزء الرابع
طبعة حيدر آباد الدكن

٢٣ ـــ الاسحاطى : محمد بن عبد المعطى (ت ١٠٦٠ هـ)
ـــ أخبار الأول فى من تصرف فى مصر من أرباب
الدول طبع القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ

٢٤ ـ القلقشندى : أبو العباس أحمد القلقشندى (ت ٨٢١هـ)
ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (ج ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٤) طبعة الأميرية القاهرة سنة ١٣٣٦هـ .

٢٥ ـ السيوطى : جلال الدين (ت ٩١١ هـ)
ـ تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة طبع القاهرة

٢٦ ـ رمزى : م . م . رمزى
تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار
المكتبة الكريمية والحسينية سنة ١٩٠٨ م

المراجع الحديثة

١ ـ جمال سرور :

ـ دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره القاهرة (١٩٦٠)

ـ دولة بنى قلاوون فى مصر القاهرة (١٩٤٧)

٢ ـ حافظ أحمد حمدى :

ـ الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى القاهرة (١٩٥٠)

ـ الدولة الخوارزمية والمغول القاهرة (١٩٤٩)

٣ ـ سعيد عاشور :

ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية القاهرة ـ مكتبة النهضة

٤ ـ على إبراهيم حسن :

ـ مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى القاهرة (١٩٦٤)

ـ دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص النهضة (١٩٤٤)

٥ ـ فؤاد عبد المعطى الصياد :

ـ المغول فى التاريخ القاهرة (١٩٦٠)

٦ — محمود رزق سليم :

— عصر سلاطين المماليك فى مصر ونتاجه العلمى
والأدبى القسم الأول من الجزء الأول
القاهرة ١٣٦٦ — ١٩٤٧

٧ — مصطفى طه بدر :

— محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية
من بغداد على أيدى المغول
مطبعة المكتب الثقافى بالجيزة ١٩٤٧

٨ — وليم موير :

— تاريخ دولة المماليك فى مصر — ترجمة
محمود عابدين — سليم حسن
القاهرة ١٩٢٤

٩ — لسترنج :

— بلدان الخلافة الشرقية
ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد
بغداد سنة ١٩٥٤

١٠ — دائرة المعارف الإسلامية : م ٣ ، ٥٤٤

REFERENCES

1. Howrth : Sir Henry.
   History of the Mongols. Part III. London 1888.
2. C. C. Walker
   Jenghiz Khan. London 1939.
3. The Mamluk Sultans;

   C, 22028 بدار الكتب المصرية برقم

4. Babars 1 of Egypt : By Fatima Sadeque, Pakistan, 1956.

الفهـــرس

الصفحة

الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والمغول

الصفحة

الفصل الرابع
علاقات قلاوون الألفى وأولاده بالمغول

الصفحة

الخاتمة

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٢٠٢
الترقيم الدولي ٤ – ٢٦٦ – ٢٤٦ – ٩٧٧	ISBN

هذا الكتاب

لم يعرف التاريخ حرباً مدمرة تكتسح أمامها شتى مظاهر المدنية مثل حروب المغول فى الشرق الإسلامى .. والتى انتهت بسقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية فى ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م . وصارت جحافل المغول الشرسة تطل على المغرب الإسلامى كله بل الغرب المسيحى أيضاً . . لولا وجود المماليك فى مصر . . الذين أوقفوا زحف المغول بانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م) . لكن هذه الموقعة لم تنه هذا الخطر الساحق وإنما كانت بداية لنوع جديد من الصراعات التى صاحبتها أشكال جديدة من العلاقات السياسية بين المغول والمماليك ...

وهذا الكتاب يعد بحق أول بحث مقارن فى أطوار هذه العلاقات خلال تلك الفترة المتقلبة والحافلة من التاريخ الإسلامى . .

والكتاب يجىء فى وقته ليملأ فراغاً فى المكتبة العربية فى ناحية لم تأخذ بعد حقها الكافى من البحث والدراسة . .